

تجليد
صالح النقر
بيروت - المزرعة

مبارك، زكي

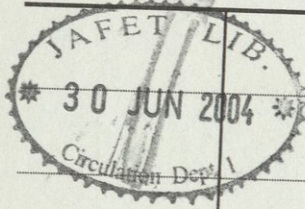
مدايح العشاق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031177

DATE DUE





مَدَامُ الْعَشِّقِ

تأليف

الدكتور زكي بركات

« ليس شعر الغزل في كلام العرب من المسائل الهزلية :
لأن الشعر الذي هو وحي النفوس أكثر ما يكون ظهوراً في
التعبير عن الحب ، والعشق إدراك أكبر مظاهر الجمال في الكون ،
ومن لم يفتح الحب قلبه يوماً لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير
ظواهرها ، ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال
الوجود »

الدكتور أحمد ضيف

67123

Cat. Oct. 1846

Replacement



إهداء

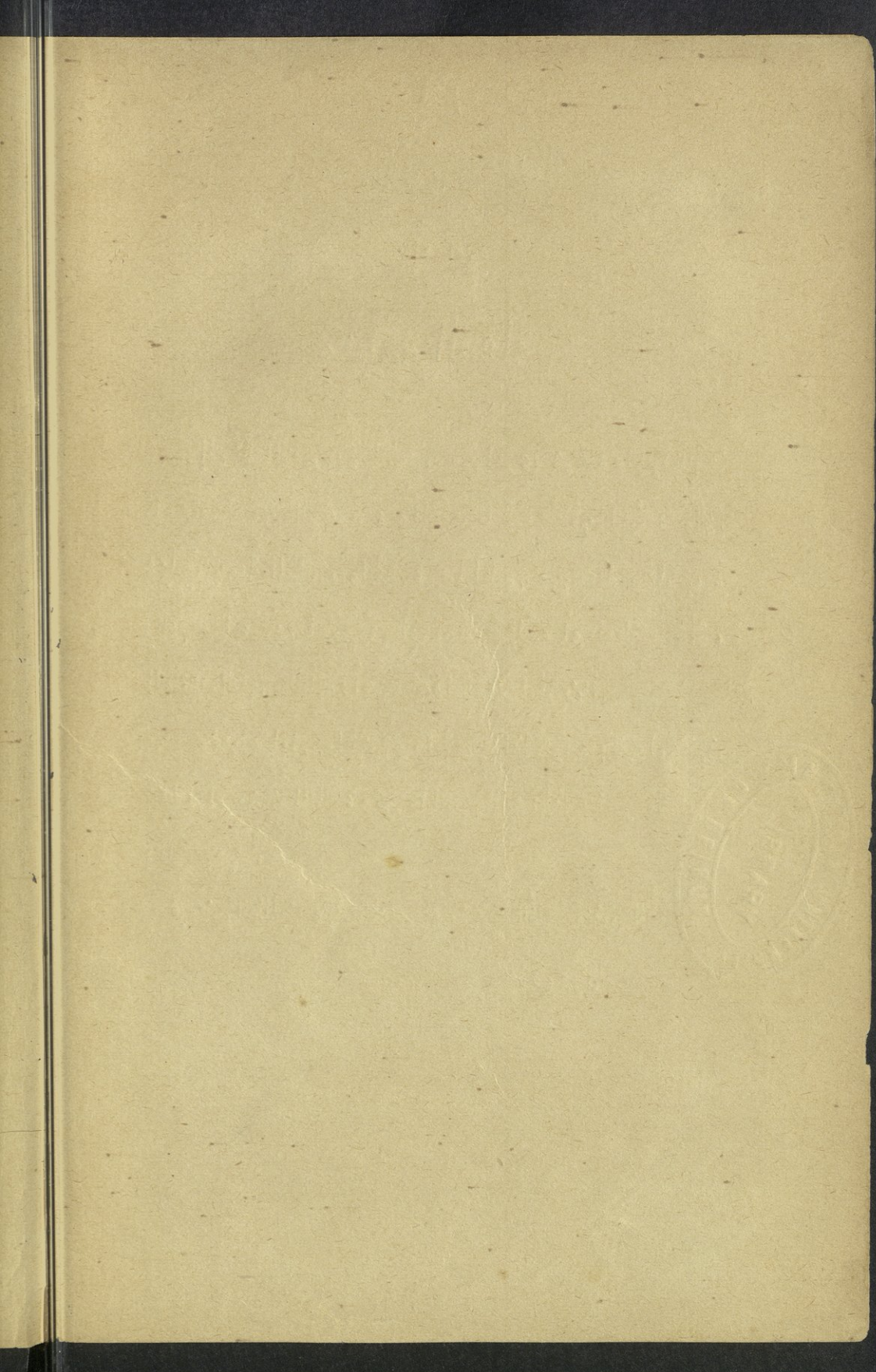
مدامع العشاق

إلى تلك النفس التي لا يَعبُها من أمرى شيء ، والتي أَخْلَقَتْ
 ما أَخْلَقَتْ من الوُعود ، وَنَسِيَتْ ما نَسِيَتْ من العُهود ، والتي
 شَغِلَتْ بنعمة المال ، والجمال ، عمّا أَقْسَى من حِجَّةٍ وعذاب ،
 والتي ما أَحْسَبْنِي أَطْمَعُ في أَنْ تَسْكُنَ إِلَيَّ ، أو تَعْطِفَ عَلَيَّ ،
 إلى تلك النفس الظُّلُوم : أَهْدِي هذا السُّفْرَ الحزين !

ولست آمَلُ والحمد لله والحب ، أَنْ تُتَوَجَّهَ بِالْقَبُولِ ، فَإِنْ
 هَذَا آمَلٌ عَزِيزُ الْمَنَالِ ، وَكُلُّ ما أَصْبَوُ إِلَيْهِ : أَنْ تَنْفَحَنِي مِنْ أَجْلِهِ
 بِظِلِّهِ جَدِيد .

فبعض الظالمين وإن تنأهى * شَيْئُ الظلمِ مَغْفُورُ الذُّنُوبِ

زكى مبارك



مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - في أوائل سنة ١٩٢٥ كنت مع الأستاذ الدكتور منصور فهمي في بار اللواء في صباح يوم مشمس ، وكان معنا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ينشدنا فقرات من كتاب السحاب الأحمر ، وبعد حوار شخصي بيني وبين الأستاذ الرافعي استطرده فقال : وأنت سرقت كتاب مدام العشاق من كتاب الزهرة ! فقلت : ويحك ! ماذا تقول ؟ إنني أعرف أنه كان هناك كتاب بهذا الاسم ولكني ما كنت أظن أنه موجود فقال : انه مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية . فلشتدت رغبتي في الاطلاع على هذا الكتاب الذي سرقت منه « مدام العشاق » من حيث لا أشعر ، ثم صرفتني الشواغل عن الاطلاع عليه . . . وفي صيف سنة ١٩٢٧ أطلعني المسيو ماسينيون على نسخة منه في باريس كان استنسخها لنفسه لينشر منه فصولا في كتابه عن خواطر الصوفية ، وفي شتاء سنة ١٩٣١ لقيني في باريس الدكتور لويس نيكل البوهيمي ومعه نسخة فتوغرافية من كتاب الزهرة ،

وعلمت أنه مشغول بتصحيحه ونشره ، وفي العام التالى قدم الرجل
بيروت فطبع الكتاب وأذاعه فى سنة ١٩٣٢

٢ — وأسارع فأقرر أن ملاحظة الأستاذ مصطفى الرافعى
صادقة كل الصدق ، فان كتاب (الزهرة) وكتاب (مدامع العشاق)
يتشابهان أشد التشابه فى الوضع والأسلوب ، والفرق بين
الكتابين أن الأول لا يتعدى المستجد لشعراء النسيب إلى أواخر
القرن الثالث ، وأن الثانى يصل فى الاختيار الى صميم القرن الرابع
عشر ، وأن مؤلف (مدامع العشاق) يعترف بأن مؤلف الزهرة
أكثر إحاطة بروائع الشعر القديم وأعرف بقلوب المتيمين ، وهو
فى حبه أصدق من شاب يعيش بالقاهرة فيما سموه القرن العشرين !
ومن ضروب التشابه أن مؤلف الزهرة وضع كتابه فى عهد
الحدائث ، وكذلك صنع مؤلف مدامع العشاق ، لولا أن مؤلف
الزهرة ظل يفتخر بكتابه طول حياته ، أما مؤلف مدامع العشاق
فيأسف أشد الأسف على تسجيل عبث الشباب بذلك الكتاب !
هل الله عافٍ عن ذنوب تسلفت ؟

أم الله إن لم يعف عنها يعيدها ؟
ومن يدرى ! فلعل هفوات الشباب هى أطيب ما نلقى به
الله يوم يقوم الحساب !

٣ — مؤلف كتاب الزهرة هو الامام أبو بكر محمد بن داود

ابن علي المعروف بالفقيه الأصفهاني ، كان فقيهاً شاعراً ، وله في
فقه الظاهرية والأحاديث والتواريخ شهرة مستفيضة عند المتقدمين
وكان رقيق الإحساس الى حد الجنون ، مع العفاف التام
الذي شهد به جميع معاصريه ، وقد حدثوا انه قال : ما دخلت جامع
المدينة مما يلي باب خراسان منذ عشرين سنة . فلما سئل : وله ؟
قال : لا في دخلت ذات يوم فرأيت متحابين يتعاتبان فلما رأياني
تفرقا فآليت أن لا أدخل من باب كنت فيه السبب في الفرقة
بين متحابين !

ومن نوادره أنه التقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس
أبي الحسن بن عيسى فتناظرا في مسألة من الإيلاء ، فقال له ابن
سريج : أنت بقولك « من كثرت لحظاته ، دامت حسراته » أحق
من أن تتكلم في الفقه ! وفي رواية أنه قال له : أنت أعزك الله
بكتاب الزهرة أمس منه بغيره ! فقال : أبكتاب الزهرة تعيرني ؟
والله لا تصالح للنظر فيه ! ألم أقل في كتابي

أنزه في روض المحاسن مقلتي

وأمنع نفسي أن تنال المحرما

وأحمل من ثقل الهوى مالهو أنه

على جانب الصلاد الأصم تهدما

ويظهر سرى عن مترجم خاطوى

فلولا اختلاس الطرف منه تكلمنا

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم

وما إن أرى حياً صحيحاً مساماً

فقال له ابن سريج : بم تفخر على ؟ ولو شئت لقلت :

ومسامر بالشهد من نغماته قد بت أمنعه لذيد سناته

صباً به وبجسده وحديثه وأنزه اللحظات في وجناته

حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولى بخاتم ربه وبراته

فقال ابن داود : ليحفظ مولانا الوزير قوله حتى يقيم بينة

بالبراءة ! فقال ابن سريج : يلزمنى في ذلك ما يلزمك في قولك

« أنزه في روض المحاسن مقلتي » فقال الوزير لقد حوينا

ظرفاً وعلماً

ومن لطف ابن داود أنه سئل يوماً :

يا ابن داود يافقيه العراق أفتنا في فواتك الاحداق

هل عليها القصاص في القتل يوماً أم مباح لها دم العشاق

فأجاب :

عندى جواب مسائل العشاق فاسمعه من قلق الحشى مشتاق

لما سألت عن الهوى أهل الهوى أجريت دمعا لم يكن بالراق

لو أن معشوقاً يعدّب عاشقاً كان المعبّد أنعم العشاق
وقيل له وهو في مرض الموت : ماذا تشكو ؟ فقال : حب
من تعلم صبرني إلى ما ترى ! فقيل : ما منعك وقد كنت
قادراً على ذلك ؟ فقال : التمتع إما نظر مباح وقد أخذت منه
بمحظ ، وإما تلذذ بالمحرم فمنعني منه قوله عليه السلام : من عشق
وكنم وعف وصبر غفر الله ذنبه وأدخله الجنة . وأنشد :

ما لهم أنكروا سواداً بخدي به ولم ينكروا سواد العيون
إن يكن عيب خده بذر الشعر فميب العيون شعر الجفون
فقيل له : نفيت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر ! فقال :
غلبة الهوى وملاكة النفس دعوا إليه

وكانت وفاته رحمه الله لا أيام بقين من رمضان سنة ٢٩٧

٤ — كتاب الزهرة يدل على أن مؤلفه لم يكن طبع القلم ،
فانه لا يتكلم إلا قليلاً ، وهو حين يتكلم مصاب بالخفاء والغموض ،
وقد شكنا إلى ذلك الدكتور نيكول حين تحدثنا عن أسلوب ابن
داود ، ومع ذلك فلننظر كيف يفصح في خطبة الكتاب إذ يقول :
« أطال الله في العز الدائم بقاءك ، وصان عن غير الأيام نعماك ،
وجعلني غرضاً للنوائب فداك ، وقدمني إلى ورود الحمام قبلك
وأبقاك ! أما بعد ، أدام الله الرغبة إليك ، وجعل معتمداً وليائك

في المهمات عليك ، فاني وإن بخل على الزمان بوفائك ، ونافستني
 الايام فيما أعتصم به من حبل إخائك ، لينطق من المودعة ، والثقة
 بك ، والرعاية والانس بقربك ، على حال تفنى الأوصاف دون
 فنائها ، وتنقضي الآجال قبل انقضائها ، ولن يعدل بي ماشكوت
 وجوده من تواتر جفائك ، وأملت لفقده من صحة وفائك ، عن
 المسارعة إلى طاعتك ، والوقوف عند محبتك ، فان من حسن وداده ،
 قبُح استفساده ، ومن صحت مودته ، وجبت طاعته ، ولن أفل
 ذلك قدمني الله قبلك وقالك ، بدلا من وفائك ، ولا مجازاة لك على
 عدلك ونعمائك ، ملتتمسا الذريعة اليك ، ولا متفضلا به عليك ،
 لان من دعاه إلى الوفاء لصاحبه وفاءه ، دعاه إلى الغدر جفائه ،
 ومن دعاه العدل إلى الانصاف ، دعاه الجور إلى الانتصاف ..
 وكيف يكون متفضلا عليك ، من ليست فيه فضيلة إلا وهي
 مردودة اليك ؟ لئن حرمت العلم بفضلك على ، مع ما حرمته من
 رغبتك في ، وميلك إلى ، لقد حرمت حظا جزيلا ، وخيرا كثيرا ،
 ولكن السبب الباعث لى على طاعتك ، والمذلل لى عند سطوتك ،
 والباسط لك العذر فيما تجنيه ، والمعدل لك فيما تدعيه ، سبب يلطف
 عن أن يعاين بالأبصار ، ويدق عن أن يدرك بالفحص والاعتبار ،
 إن رمت إخفاءه وجد ، وإن حاولت إظهاره فقد ، هو شيء يمنعني

عن وصف جنسه ، اشتغالى به فى نفسه ، وتقطعنى مسامرتة عن
المسامرة به ، ويعوقنى التفرد بمعاناته ، عن التعرض لصفاته ...
وقد وقفت على ما وصفته من تصارييف الزمان ، وخيانة الاخوان ،
واعلم أيديك الله ، أن من عجيب ما تضره الأيام ، وتجول به
الأوهام ، ظالم يتظلم ، وغابن يتندم ، ومطاع يستظهر ، وغالب
يستنصر ، ما الذى تنكر — أدام الله عزك ، وبسط باخير يدك —
من تغير الزمان وأنت من مغيريه ، ومن جفاء الاخوان وأنت
المقدم فيه ؟ أنت بأن تحتج له وتعتذر لفاعليه ، أخرى منك
بأن تعيبه وتذم مستعمليه

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها
٥ — وابن داود يميل إلى السجع ، ويكاد يلتزمه ، وأظرف
ما وقع له سجعه فى عناوين الفصول ، ولنتمثل كيف يتفق له ذلك
فى إجادة مع أن الكتاب مائة باب . وإلى القارئ نماذج من
العناوين التى كادت تجرى خلفها ولطفها وصدقها مجرى الأمثال :

(١) من كثرت لحظاته ، دامت حسراته

(٢) العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما أمير

(٣) من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفاؤه

(٤) ليس بلييب ، من لم يصف ما به لطيب

- (٥) إذا صبح الظفر ، وقعت الغير
 (٦) التذلل للحبيب ، من شيم الأديب
 (٧) من طال سروره ، قصرت شهوره
 (٨) من كان ظريفاً ، فليكن عفيفاً
 (٩) سوء الظن ، من شدة الضن
 (١٠) من وفى له الحبيب ، هان عليه الرقيب
 (١١) من منع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال
 (١٢) من أحبه أحبابه ، وشى به أترابه
 (١٣) يُهد القلوب على قرب المزار ، أشد من بُعد الديار
 من الديار

- (١٤) ما خُلِق الفراق ، إلا لتعذيب العشاق
 (١٥) من غاب قرينه ، كثر حنينه
 (١٦) من قدم هواه ، قوى أساه
 (١٧) من شابت ذوائبه ، جفاه حبائبه
 (١٨) لا يُعرف المقيم على العهد ، إلا عند فراق أو صد
 (١٩) قليل الوفاء بعد الوفاة ، أجل من كثيره وقت الحياة
 ٦ — ولا يقف ابن داود عند رواية الشعر في النسيب ، بل
 يضيف أحياناً طرائف النثر الجيد ، كقوله في ص ١٥

« وكتب بعض الظرفاء : إني صادفت منك جوهر نفسي ،
فأنا غير محمود على الانقياد اليك بغير ذمام ، لأن النفس يتبع
بعضها بعضاً »

٧ — ويمتاز كتاب الزهرة بالاكثر من رواية أشعار النساء ،
ومن أرق ماقرأنا فيه قول امرأة من الاعراب تصف حبیبها بالبخل
والاعراض

بنفسى وأهلى من لو أنى أتيتهُ	على البحر فاستسقيته ماسقانيا
ومن لو رأى الأعداء ينتضلوننى	لهم غرضاً يرموننى لرمانيا
ومن قد عصيت الناس فيه جماعة	وصرمت خلانى له وجفانيا
فيا أخوى اللائى على الهوى	أعيذكما بالله من مثل مايا
سألتكما بالله لما جعلتما	مكان الاذى واللوم أن تريايا
ولا تغفلا إن لامنى ثم لائم	ولو سخط الواشون أن تعذرايا
فأقسم لو خيرت بين فراقه	وبين أبى اخترت أن لا أباليا
ثكلت أبى إن كنت ذقت كريقه	لشئ ولا ماء من المزن صافيا
وقول امرأة من قيس تصف كيف يصنع العشق بالرجال	

فينقلهم من العقل إلى الحق ، ومن النعيم إلى الشقاء
وما كيدس في الناس يُحمد رأيه فيوجد إلا وهو في الحب أحق
وما من فتى ما ذاق بؤس معيشة فيعشق إلا ذاقها حين يعشق

٨ — الآن وقد بينا وجوه التشابه بين (الزهرة) و (مدامع العشاق) وعرفنا القارئ بكتاب ابن داود، وهو من السابقين الى هذا النوع من التأليف، وتبين أنه فن من الدرس لم يتورع عنه ذلك الامام الجليل، وسقطت حجة من لامونا على التأليف في الحب والمحبين، نرى من الخير أن نذكر كيف ألفنا هذا الكتاب :

في سنة ١٩١٧ وأنا طالب في الجامعة المصرية أردت أن أعد رسالة للدكتوراه، ورأيت أن يكون موضوع تلك الرسالة « الشعر الوجداني » وهو موضوع كان يبدو لي من الطرافة بمكان فلما عاد الاستاذ الدكتور أحمد ضيف من باريس في خريف سنة ١٩١٨ كنت أول من لاقاه من طلبة الجامعة المصرية، وعرضت عليه في أول لقاء كتاب « الشعر الوجداني » لينظر كيف يصلح لامتحان الدكتوراه. وبعد أيام رجعت اليه فأفهمني أن ذلك البحث يصلح أن يكون (كتاباً) ولكنه لا يصلح أن يكون (رسالة) وكانت أول مرة عرفت فيها الفرق بين (الرسالة) و (الكتاب)

وفي خريف سنة ١٩١٩ كنت أحرر جريدة الأفكار مع الصديق المأسوف على أدبه وفضله وتقاه المرحوم الشيخ

عبد الباقي سرور نعيم . وكانت معى أجزاء من (الشعر الوجدانى)
فأخذ الجزء الأول وخرج يتنزه فى حديقة الجزيرة فأضاعه هناك
وكان أهم أجزاء الكتاب

حاولت أن أنشئ ذلك الجزء مرة ثانية فلم أفلح . ومن
عيوبى أنى لا أستطيع أن أكتب البحث الواحد مرتين . فان
الإنشاء الأول يكاد يستنفد حماسى . فاذا عدت الى الإنشاء الثانى
رجعت بقلب فاقتر لقيمة لجهد ولا غناء

كذلك ضاع الجزء المهم من كتاب الشعر الوجدانى وقد
نظرت فى أجزاءه الباقية فوجدت فيه بابا يصلح أن يكون كتابا
وهو باب النسيب . فنظمت منه (مدامع العشاق) ونشرت بعض
فصوله فى جريدة الأفكار ومجلة الصباح

٩ — ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٩٢٥ ، ونفدت نسخها
فى زمن قليل . فأحجمت عن إظهار الطبعة الثانية . وكنت فى
ذلك الاحجام مأخوذاً بأراء طائفة من الناس كادوا يجمعون على
أن هذا النوع من التأليف لا يليق بوقار الأساتذة . ثم تبين أن
الكتاب لم يحو إلا شريف المعانى ، ولم يحرفيه لغو ولا لعب ولا مجون ،
واستأنست بما كتب الائمة فى هذا الفن ، ورأيت من الجبن أن
أحجم عما أقدم على مثله ابن داود وابن حزم وابن القيم .

وكان كتابي في جملته لا يقل وقاراً عن طوق الحمامة وروضة المحبين
١٠ — ومن الخير أن أدل القارئ على أن هذا الكتاب
يصور فهم المؤلف للعلاقات الوجدانية لعهد القديم في سنة ١٩١٧
وكان يومئذ في فجر الشباب . وهذا هو السر فيما يعثر عليه القارئ
أحياناً من النظرات الساذجة التي يضحك منها المؤلف نفسه في
هذه الأيام!

وتلك النظرات الساذجة ستجد من يفهمها من تلاميذ القسم
الابتدائي في معهد الحب ، وقد أبقيتها بلا تغيير ولا تبديل لأرى
نفسى حين أشاء في مرآة ذلك الزمان !

وهل يستطيع أحد أن يجزم برأى قاطع في عالم القلوب ؟
لعل ما أنكرته من سذاجة ذلك العهد كان أقرب إلى فهم
سرائر الروح من العقل الذي أصطنعه في هذه السنين ، وقد أخذت
أتنكر لنوازع القلب والوجدان . ويرحم الله من يقول
ليت الحوادث باعني الذي أخذت

منى بعقلي الذي أعطت وتجريبي
كنت في ذلك العهد أقول في الحرب القائمة بين عين العاشق
وعين المعشوق :

« يالها من حرب ضروس تظاً فيها أقدام الجنس اللطيف

أعناق الجنس النشيط، وإنا بهذه الهزيمة لفرحون (١) »
 وأنا الآن لا أسمع أن يذل عنقي لأية مخلوقة من الملاح،
 ولو فكرت إحداهن في ذلك لضربت عنقها، ولا أقول جيدها،
 في غير رحمة ولا إشفاق ! فيا بعد ما بين العهدين : عهد القلب وعهد
 العقل ، إن كنت عقلت !
 وكنت أقول في ذلك الزمان :

« وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء أشهى
 من الحديث المعسول ، حين يغدو الحب ولا أمل له في غير الوجد
 المشبوب ، والدمع المسكوب ، والصبر المغلوب (٢) »
 وأنا اليوم لا أفهم معني لهذا الكلام . ولا أرى الوجد والبكاء
 مما يليق بأقرباء الرجال ... هي دنيا تغيرت كل التغير في مدى خمسة
 عشر عاما . ودنيا القلب قد تتغير في خمس دقائق . فلا يتلوّم
 القارئ ولا يتعجب ، فذلك مصير جميع القلوب
 ويكفي أن أعترف بأنني كنت مخلصاً في الحالين جميعاً .

كنت مخلصاً حين رأيت الحب كل شيء في الوجود ، فكتبت ما
 كتبت في « البدائع » و « ذكريات باريس » و « حب ابن أبي
 ربيعة » و « سرائر الروح الحزين » وأنا اليوم مخلص حين أرى

(١) أنظر ص ٤٠ من هذه الطبعة (٢) ص ٤٥

الحب من العبت الذي يولع به كبار الأبطال . فقد جدت للنفس
مطامح أدبية واجتماعية ستعصف بكل ما كان يهذى به القلب من
نزوات الصبوة والالتباع

وللقارئ أن يوازن بين مقدمة الطبعة الأولى والطبعة
الثانية من هذا الكتاب فسيرى للمؤلف شخصيتين مختلفين
أشد الاختلاف

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي ياعز لا يتغير
ولست والله بأسف على ماسلف ولا محزون لهذا المصير . حياة
القلب أن يطرب لمختلف المعاني والأغراض ، وقد خفق القلب بمعاني
الحب ، وهو يخفق اليوم لمعان أقوى وأعنف من معاني الحب ، ويشهد
الله ما غوى في الأولى ولا ضل في الثانية ، وإن ادعاه الصبا فاستجاب ،
وأهاب به الواجب فأطاع

فلا يترحم على أحد حين يوازن بين هاتين المقدمتين ، فإنتقلت
من حياة إلى موت ، وإنما وثبت من حياة إلى حيوات ، والحب موجة
عابرة في بحر الحياة

١١ - أسلوب المؤلف في « مدامع العشاق » يشبه كل الشبه
أسلوب ابن داود في الزهرة فكلاهما يعرض للباب فيفصل ما قال فيه
الشعراء ولا يطيل في الشرح والتعليق ، وقد يتفق لهما أن يخرج

في بعض الأحيان من الإيجاز إلى الإطناب

وإني لأعجب كيف تلاقيت مع ابن داود في أبواب كثيرة ،
مع أني لم أركتابه إلا بعد أن نشرت كتابي ، ومما تلاقينا فيه « بكاء
الديار » و « نوح الحمام » و « طيف الخيال » و « الرضى بالقليل » و « من
أرق ما تلاقينا فيه الفصل الذي سميته « بكاء المساح » و سماه
« قليل الوفاء بعد الوفاة » أجل من كثيره وقت الحياة » و كنت
أحسب أني تفردت بذلك الفصل الطريف . ثم تبينت أني لم أنفرد
إلا بطوائف من الفصول لم يتجه إليها ذهن ذلك الامام الجليل

غير أني أقرر أن كتابه لا يغني عن كتابي . فقد اختلفنا
كثيرا في اختيار الشعر والطواف بأسرار القلوب ، فوقف هو عند
القرن الثالث ، ووصلت فيما اخترت إلى القرن الرابع عشر ، وهو
يمثل بعض اتجاه زمانه ، كما أمثل أنا بعض اتجاه هذا الزمان

١٢ — كان في النية أن أضيف إلى هذه الطبعة شرح الأشعار
وتراجم الشعراء ، ولكن حال دون ذلك أني كنت مشغولا بإصدار
كتاب « النثر الفني » فلم يتسع الوقت لإنجاز ما أريد ، على أن الأشعار
اختيرت في الغالب من الأدب الذي يقل فيه الغريب . والقارىء
يستطيع الرجوع إلى المعاجم إن أشكل عليه بعض الالفاظ . والشعراء
الذين تحدثنا عنهم أكثرهم من المشهورين الذين تدرس أشعارهم في

المعاهد العلمية

ولكن لم تستطع الشواغل أن تصرفنا عن فهرس القوافي
وفهرس الأعلام ، وكنا أهملناهما في الطبعة الأولى

وبالرغم من أن موضوع هذا الكتاب موصول بالحب - وقد
رأينا من العبث الذي يولع به كبار الأبطال - فانا نراه خدمة جليلة
للغة العربية . وعلى هذا الأساس نرجو الله عز شأنه أن يجزيينا عليه
جزاء من أحسنوا في خدمة لغة القرآن -

زكى مبارك

مصر الجديدة في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟

آية كريمة ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكني أريدها لمعنى خاص : هو الحكم على الأقوال والأفعال وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول ، أو يعمل ، فنحكم عليه بالبر أو الفجور : فتارة نخطئ ، وتارة نصيب . وأكثر ما نكون شططاً إذا حكمنا على القول ، أو الفعل ، من غير أن نحيطُ خبراً بظروف القائل ، أو الفاعل . وهي وحدها محور الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب . فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بمكفرة ، ما لم تشهد القرائن على أن قائلها مُعاند جحود . وليست القصائد الحمرية شهادة على قائلها بالإثم ولا قصائد التشبيب رمياً لصاحبها بالفسوق . ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير !

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال ، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل

قبل تأمل ما فعل من مُنكر أو خبيث ، فقد ترَفَع التهمة عن كثير ممن حُكِمَ عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعلٍ ظاهره المجون

وليس في ذلك خروج على أصول الدين ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا كُلُّ امْرِئٍ مِمَّا نَوَى » ، وليس لمتعنت أن يردَّ علينا بأن هذا خاصٌّ بأعمال الخير ، لا الشر . فانه كما يجوز أن يفسد الخير حين يراد به شر ، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقصرون في إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم ، وما لها من الضر ، أو النفع ، لتماثل النيات والأعمال

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله ، من غير أن تلمَّ الإمامةً بالأسباب القريبة والبعيدة لما يعمل وما يقول - وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله - فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب إن علماء الغرب لا يحكمون على خُلُقِ المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي أحْدَقَتْ به ، فنال منها ونالت منه ، لاحتمال أن تسود كتابتهُ فكرةٌ كانت في

عصره حسنة ، وهي في عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء

ولنرجع إلى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فاني لا أكنم القراء أني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه . مع أني أعرف أني كتبتها من قبل ، وأنا نقي القلب ، خالص الضمير . ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجلال ، وهي سداجة طريفة ، تمثل عهداً من عهود الصبا ، تُخيل إلى فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكاً لجميع العيون ، تستمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور ، ولا يحجبها عنه ضنين . وليس في مقدوري الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة ، لأنني حرمت من تلك السداجة ، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلئوم من بعدها الكريم ، وحاشاى ! وسأفرض الآن أني في العهد الأول من عهود الشباب ، وأن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين أطهاراً بررة ، لا يحرفون الكلام عن مواضعه ، ولا يتقوّلون الأقاويل ، ولا ذكر طرفاً من ذلك الخطاب :

« يا أرباب الجلال !

ما لكم تَضْمَنُونَ علينا بما سوف يشبع الدود منه لثماً ، ويا كَلَه
التراب أَكَلًا لَمَّا ؟

كم صَائِنٍ عن قُبَلَةٍ خَدَّهُ سُلِّطَتِ الأَرْضُ على خَدِّهِ
وحامِلٍ ثَقُلَ الثَّرَى جِيدُهُ وكان يشكوا الضعف من عقده
أما والله إن أرواحنا في حاجة إلى بعض ماتنعم به الوسائدُ
من الخدود ، والمراد من الجفون ، والمساويك من الثغور ،
والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من
الأطراف ... فلم تحرمونا في حبنا لكم وإشفاقنا عليكم ، مما
تكرمون به الجماذ ليلاً ونهاراً ، على أنه لا يعرف ما حَفَّ به من
حُسْنٍ ، وأحْدق به من جمال ؟ !

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، في القفار ، تُزهر ، ثم تذبل
ولا يتمتع أحد بشمها ، ولثما ، وإنما خلقكم رَوْحًا لكل حيٍّ ،
ونعيمًا لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظًا ولا أقل من النظر ،
فقد خَفْنَا على أرواحنا أن تزهق بخلقكم ، وتموت بصدكم ، وما
الله بغافل عما تعملون !!

يا أعلامَ الحسن !

إن كنتم فطِرتُم على العزة ، وجبلتُم على النخوة ، فهبونا

بعض القرب منكم ، والأُنس بكم ، ولكم منا ما تشاءون من ذلة
واستكانة ، وخضوع وعبودية ، وقد عذرناكم لعزكم ، فارحمونا
لذلنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا ، فكفى بالحب جمالاً
وبالعشق زينة ، وإن المحب المملول ، خيرٌ من الحبيب المملول ؛
فإن أيتّم إلا الصمد والقطيعة ، والجفاء والاعراض ، فانا نبشركم
بأن الحسن حالٌ تحول ، ودولة تدُول ، ثم يحكم الله بيننا وبينكم
وهو خير الحاكمين !

أوردية الخدين من ترف الصبا

ويا ابنة ذى الاقدام بالفرس الورْدِ

صلى واغنى شكراً فما وردة الربى

تدوم على حالٍ ولا وردةُ الخد

٣

ولقد يعجب قارئ هذا الخطاب حين يرى كاتباً يعتقد أن
الجمال ملك العيون النواظر ، وأن البخل به إثم وعقوق ، ولكنه
لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط ، وأن صاحبها
لا يسلم من الإسراف ، ورحم الله ذلك العهد الذى كنت أعيش
فيه بأمل غير محدود !!

ليالى لاتجو بنبلى خريدة * وإن عز حاميها وجم عديدها

إذا ما رمتنى ذات دلٍّ رمتها * بعينٍ لها منها مقيدٌ يقيدُها
على أننى لا أمتنع أحداً من أن يسيء الظن بما كتبت منذ
سنين ، فإن الذى يطمع فى معرفة النفس البشرية ، لا يبتخل بوضع
نفسه على المشرحة ، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل ، ومثله فى ذلك
مثل الطبيب المخلص لعلمه ، لا يبتخل بتضحية نفسه وهو يفحص
صرعى السل والتيفود . فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم ،
وشهواتهم ، فينسئون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم باللسنة حداد ؟
إن قليلاً من الروية والأناة لكافٍ لسلامتنا من الزل
والعثار ، حين نحكم على ما يعمل الناس وما يقولون



وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب
حين هم بنشر مدامع العشاق فى جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها
بهذه الكلمة الجريئة ، موجهة الى إحدى العذارى
« قضى الأمر ، وأصبحت حياً كيت ، وموجوداً كعدم !
فما ضررتى لو أذعت هذا الحب ، وما أبقى هوالك منى ما أسمع به
ملاماً أو أرى وجه عدول ؟ »

على أن قلبى يحدثنى بأن الإشادة بما بيننا من هوى قد تزيد
حقد الحاقدين ، وما الى ردعهم سبيل ! وأنت المعنية بهذا

الإشفاق ، أما أنا فما كنت لأرهبَ قوماً لا سلاحَ لهم غير
القيـل والقال

فليت رجالاتك قد نذروا دمي * وهُمُّوا بقتلى يابسينَ لقُـوـنى
إذا ما رأوني طالعاً من ثَنِيَّةٍ * يقولونَ : من هذا ؟ وقد عرفوني
وبعد فانه لم يبق ما أسكن اليه في هذا الوجود غير حديث
الحب ، وبلايا المحبين ، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في
أعذب ما جرى على ألسنتهم : وهو النسيب ، وأن أبدأ ذلك بما
انتبهوا اليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما لها من سبب قريب
أو بعيد ، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المسفوح ،
عدت فصاحبت الشعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة
الأولى ، وبيّنت مهوى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الحدود
القواتن ، والعيون القواتك ، ولن أخرج من ذكر ما كان من
الوقائع بين الخصر النحيل ، والرّدْف الثقيل ، وعلىَّ وحدى إثم
الفتنة التى ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة فى صدور الشباب
والكُـهول ، ولئن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن
عن قراءة هذا الحديث

نصحتك علماً بالهوى ، والنذى أرى

مخالفتى ، فاخترْ لنفسك ما يحلو

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يُوجّه إلى فتاة ، فضلاً
عما فيه من المجازفة ، في حمل إثم الاثنين ، وفتك الفاتكين ، ولقد
آذنتي آثمي ، فكيف أحمل آصار الناس !

ولم يمرّ ذلك الخطاب بدون أن توضّح له إحدى الجرائد
الأسبوعية ، وبدون أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد ،
فكتبنت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية :

« في مصر قوم لا يعرفون من الجِدِّ غير الغطرسية والكبرياء
والسكاتب الجادُّ في نظرهم هو الرجل السليط الذي يُخَيِّلُ إليه
كلما كتب : أنه قسيس في كنيسة حافلة ، أو خطيب في مسجد
جامع ، فهو مستول عن سرد الذائل وعد المنكرات ؟ فأمّا الكاتب
المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن ، وبدائع الجمال ،
فهو في رأيهم كاتبٌ ماجنٌ خليع ! !

ولا أدري بماذا يجب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه
الصور الجميلة التي أطارت أبواب الشعراء ؟ وصيّرتهم في كل وادٍ
يهيمون ؟ أتراهم يقولون إنها من خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟
فاذا كانت من خلق الله ، فلم ينكروا علينا أن نتغنّى بصنعه
البديع ؟ وإن كانت من خلق الشيطان : فلم لا يمحون الحسن من

وجوه الحسان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطقٍ مقلوب !

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم ، وعموا عن صنع الله
الذى أتقن كل شيء ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن أجاريهم
في عمآيتهم ، وأن أسايرهم في جهالتهم ، فلا أكتب في غير
ما يروقهم من ذم الدنيا والتبرُّم بالوجود ! ولكنى عرفت ما لم
يعرفوا من « أفنان الجمال » في هذه الدنيا البديعة التى حملت
الغزالي على أن يصرِّح بأن ليس فى الـمكان ، أبدع مما كان ، فعُدَّتْ
خليقاً بحمد الحسَن ، والتقدِّيس له ، كلما معنوا هم فى الجحود !

يقولون إن مدامع العشاق التى أنشرها فى جريدة الصباح
مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال ، وماله من
الآثر فى تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول . ويهدِّدون ويوعدون
بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت فى هذا البحث الشائق الطريف !
فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم
السخيف المأفون !

أبيننا أن نطيعكم أبيننا فلا تلقوا نصيحتكم إلينا
ركبنا فى الهوى خطر أفاًمنا لنا ما قد كسبنا أو علينا

ولو لم يرض ربك ما أردنا لما أعطى لنا أذنًا وعينا
فما تسألكم عن كل صبٍّ كأن لكم على العشاق دينًا

— ٦ —

إلى هنا وقف القارىء على ألوانٍ من الخواطر ، صرَّت بخاطر
شبابهم بالتمرُّد على ما ألف الناس . وما كنت لأذكر هذه التفاصيل
لولا بغضى الرياء ، فأنا بصريح القول موكلٌ بالحسن أتبَّعه ، ومُغرمٌ
بالتعريد على أفنان الجمال . وإني لأقول :

أشجأك ما خلف الستار وإنما * خلف الستائر لؤلؤٌ مكنونٌ
والناس في غفلاتهم لم يعلموا * أنى بكل حسانتهم مفتون
وأقول

فيارب إمارُمت لي الخير منعماً

ففي قرب من أهوى وبعد أخى اللوم
وإن كان لي فيما قضيت مساءةٌ

فخزنٌ على النائين جيرتي القدم
وإن شئت لي يوماً جوارك فلا كن

شهيد الجوى لا ينصوهم ولا سقم

وطول حسابي في المعاد على الهوى * فطول أحاديث الصباية من همي

وما كان أغنانى عن الفزع الى حكم الأَخلاق ، لأرجع
الخير والشر الى النيات ، لا إلى الأعمال : فقد آذن لنا أن نعرف
أن من الحق ، بل من الواجب ، أن ندرس الجمال ، وأن نتغنى به ،
وأن نصفه بالنثر البليغ ، والشعر الجميل ، وأن نكتب عمّن كلفوا
بالحسن : من العشاق ، والشعراء

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال (إن الله ليعجب من شابٍ
لا صبوة له) وأنا لأأريد أن يعجب الله منى ! وسينكر المتعنتون
هذا الحديث ، وأنا قبلهم لأجزم بصحته. ولكنى أثق بأنه
يقرر حقيقة واقعة ، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمى عنه ، أو
لنرمى عشاقه بالآثم والفجور ، وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا يملكون
من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة ؛ لهم الويل ، وهل الإنسان
إلا أبواب الطبيعة ، وسرّها المكنون ؟

وماذا أصنع بالأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والأنهار ،
والسكواكب ، والنجوم ، والشهول ، والخزّون ، والجبال ، والوديان ،
والطيور الصواوح ، والظباء السوانح ؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك إذا لم يكن معى إنسان أطارحه القول
وأسأله الحديث ، وأسأقيه صبياء هذا الوجود ؟!

وهذا الانسان ؟ أليس لى الحق فى اختياره ، قبل اصطفاؤه ،
وكيف أختاره إن لم أحكم الذوق فى تمييز جسمه وروحه ، وعقله
وشعوره ، وحسّه ووجدانه ؟

وما قيمة الليل إن لم تظلّنى فى الحب ظلماؤه ؟ وما قيمة البدر
إن لم يذكرنى بالشعر لآلؤه ؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزّنى
إلى ضمّ القدود ؟ وما حُسن الأزهّار إن لم تشقنى إلى اتم الحدود ؟
وكيف أميل إلى الأطباء ، لو لم تُشبهه بعيونها وأجيادها مالا يحسان
من أعناق وعيون ؟ وكيف أصبو إلى غنة الغزال ، لولا ذكرى
تلك النبرات العذاب ، التى يسمونها السحر الحلال ؟

وإنك لتعلم أيها القمر ، كيف كنتُ أصدفُ عنك ، وأنا
أطالع ذلك الوجه الذى نَعِمْتَ معى بشعره المفلّج ، وأنفه الأقى ،
وطرفه الأحرور ، وجبينه الواضح ؟ وإنك لتعلم أيها القمر كيف
هجرتك حين غاب ، وتعلم أنى لا أنظر إليك إلا حين السّرار
لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالى !
وانها لشماتة طفيفة ، أحزن من بعدها على خلود مُتعتك بِصباح
الوجوه ، وعلى عودتك لشبابك ، فى حين أنى أودّع كل يوم
جزءاً من شبابى . وواحسرتاه على ما أودّع من أجزاء الشباب !!

نكى مبارك

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب ، وعن الحسن
وتنوعت مذاهبهم في وصف ما يشق به الحب ، وما ينعم به
الحبيب !

ويمكن رجع كلامهم في النسيب إلى أصليْن اثنين :
الأول — وصف ما يلاقى المحبون من عنت الحب . ويدخل
في ذلك كل ما يهيج الوجد ، ويشير الدمع ، كحديث الفراق ،
والعتاب ، والذكرى ، والحنين

الثاني — وصف ما يرى الشعراء في أحبابهم من روعة
الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس ، والعين ، من جمال
الأبدان والأزواح ، كوصف العيون ، والحدود ، والثغور ،
والنحور ، والصدور ، وكالحديث عن العطف ، والرفق ، والوفاء ،
والعفاف

وقد رأيت أن أفصل مذاهب النسيب في وصف ما يشق
به المحبون في كتاب أسميه « مدامع العشاق » وأن أشرح مذاهبهم
في الكلام عن الحسن في كتاب أسميه « أفنان الجمال »
وكان الواجب أن نبداً بطبيع « أفنان الجمال » لأنه أوفى
وأمتع ، ولأن أفنان الجمال وجدت قبل مدامع العشاق

ولكنّ دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة ، فلنقتابعها في
الظلم ، ولنقدم الفروع على الأصول !!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء ،
وموجبات المدامع ، ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن
كانت بيضاء ، وايضا ضياعها بعد أن كانت حمراء !!

وللدموع أسباب عامة ، وأسباب خاصة : فأما الأسباب
العامة فهي الحرق الدخيلة ، والجوى الدفين ، وما إلى ذلك من البث
والحزن ، واللوعة والحسرة ، فمن هذا قول العباس بن الأحنف

ظلمت عيناك عيني أنها بادلتها بالرقاد الأرقا
سُلِطَ الشوق على الدمع فما هبّ داعي الشوق الا اندفقا
وما كان له أن ينسب إلى عينيها الظلم ، لا ابتلاؤه بالسهاد .
وخير منه قول صريع الغواني .

أسهرتموني أنام الله أعينكم
لسنا نبالي اذا ماتت من سهرنا
ولو قال :

رحمت عيناك عيني أنها بادلتها بالرقاد الأرقا
لكن أقرب الى الصدق وعرفان الجميل ، فحسب الحب
ما أهدته عينا حبيبته من ضنى الجسم ، وسهد الجفون .

وقال البحترى :

قد أرتك الدموع يوم توات

ظعن الحى ما وراء الدموع (١)

عبرات ملء الجفون مرّتها حرق لفؤاد ملء الضلوع (٢)

فرقة لم تدع لعينيّ حب منظرًا بالعقيق غير الربوع

ولا أدري ما الذى أراد به البحترى بما وراء الدموع ؟ أهو الدم

الأحمر الذى تجود به الشئون عند ما تفيض المدامع ، أم هى الحرق

الدخيلة التى ينبىء عنها الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ؟

وقال الشريف الرضى :

يقولون ما أبقيت لعين عبدة فقلت جوى لو تعلمون أليم

أيسمح جفنى بالدموع وأغتدى ضنينًا بها ؟ إني إذن للئيم

ولو بخلت عيني إذن لعبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

ولعل هذا خير ما قيل فى الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجهه ،

والداعى إليه ، وإنه لشعر بديع .

أما الأسباب الخاصة فهى كثيرة : فمن العشاق من يبكى لتلمس

الأخبار ، كما قال ابن هرمة :

وأستخبر الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهد هموعهدى

(١) الظن والطعان : جمع ظئنة . وهى المرأة فى المودج

(٢) يقال مرى الراعى الناقة : اذا مسح ضرعها لتدر اللبن . ويريد الشاعر أن يقول ان اللوعة

مربت الدمع ، أى حملته على أن يفيض

فان ذكرت فاضت من العين عبرةً على لحيتي نثر الجمان من العقد
وإني ليروقني قوله (وأسأل عنها الركب عهدهم عهدى) فانه
يدل على حيرة ووَّله ، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئاً ،
استرواحاً بالسؤال عنها ، وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن
يستنكر الغواني فيض الدموع على اللحية في هذا الشعر ، لأن
الأمر كما قال أبو تمام :

أحلى الرجال من النساء مواقعاً من كان أشبههم بهنَّ خدودا
وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنايته على الشباب !
ومنه من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم . كما قال
ابن الدمينه :

هل الحب الا زفرةٌ بعد زفرةٍ وحرٌّ على الأحشاء ليس له بردُ
وفيض دموع العين يامى كلما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو؟
وما كان الحب زفرة ولا عبرة - كما قال ابن الدمينه - ولكنه
شئ به الروح تكلف . وما أحسن قول ابن أسباط القيروانى :

قال الخليلُ الهوى محالٌ فقلت لو ذقته عرفته
فقال هل غير شغل قلب ان أنت لم ترضه صرفته
وهل سوى زفرة ودمع ان لم ترد جريه كففته
فقلت من بعد كل وصف لم تعرف الحب إذ وصفته

ومنه من يبكي عند الوقوف بالرياض ، إذ تذكره رشاقة

أغصانها ، وحرمة أزهارها ، بالقدود الرشيقة ، والحدود الوردية ،
كما قال ابن المعتز

وقفت بالروض أبكى فقد مشبهه وقد بكت بدموعى أعين الزهر
للم تعرها الجفون الدمع تسفحه لرحمتى لاستعارته من المطر
وهذا نوع من الاسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيما أعلم ،
وأما كانت تسعد الجمائم ويبكى الرفيق ^(١)

ومن الشعراء من يبكى عند هبوب النسيم . كما قال بعض
الأعراب :

لعمرك ما ميعاد عينيك والبكا بداء الا أن تهب جنوب
أعشر في (داراء) من لا أحبه وبالرمل مهجور إلى حبيب ^(٢)
إذا هب علوى الرياح وجدتنى كأنى لعلوى الرياح نسيب ^(٣)
ومنهم من يبكى لبكاء الجمائم ، وهو كثير فى كلامهم . ولعل
من أبدعه وأروعها قول الشبلى يصف شجوة حمامة هاجت
شجوة :

رب ورقاء هتوف فى الضحى

ذات شجوة صدحت فى فنن ^(٤)

ذكرت إلفاً وعيشاً سالفا فبكت حزناً فهاجت حزنى

(١) الاسعاد هو المشاركة فى البكاء . (٢) داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل (٣) علوى

نسبة شاذة الى عالية نجد

(٤) الورقاء هى الحمامة . والشجوة الحزن . والفن الفنن ويجمع على أفنان

فبكأى ربما أرقها وبكها ربما أرقى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى
أتراها بالبكا مولعة أم سقاها اللبن ماجر عنى
وهذه الأبيات من أحسن الشعر تقسيما ، وأبرعه تصويراً
ولقد افتتح بها الشيخ على الجارم خطبته فى تأيين المرحوم الشيخ
حمزة فتش الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظنا
منهم أنها له . ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء
على حساب الأموات ، من حيث لا يشعر الناس !!

ومما ابتدعه المتأخرون فى موجب البكاء ، ما جعله بعضهم
عقاباً للعين ، جزاء بما أهدت نظراتها للقلب من شجى ، والجسم
من نحول ، فقال :

لا أعذب العين غير مفكرٍ فيما جرت بالدمع أو سالت دما
ولا أهجرن من الرقاد لذيله حتى يعود على الجفون محرماً
هى أوقعتنى فى حبايل فتنة لو لم تكن نظرت لكنت مسلماً
سفكت دمي فلا سفحن دموعها

وهى التى بدأت فكانت أظلاما

وهو مذهب غريب ، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن ،
وفهم الجمال ، وإلا فأى عاشق يذكر جنابة النظر عليه ، ولا

يدعولعينيه بطول البقاء . ولله درالقائل :

قالت أترقدُ إذغبتُ لها نعم وأشفق من دمعى على بصرى
ماحقُ طرفٍ هداًنى نحو حسنكم انى أعذبهُ بالنوح والسهير

ومنه من جعل الدمع غسلاً للعين مما زنت بالنظر ، فقال :
وقائلةٍ ما بال عينك مذ رأت محاسن هذا اللظى أدمعها هطل ؟
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فحق لها من فيض مدمعها غسل
وقال الآخر :

إنسانةً فتانةً بدر الدجى منها خجل

إذا زنت عيني بها فبالدموع تغتسل

وهو خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !!

وقد نظر الأراجاني الى قول أبي تمام :

بسطت اليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعاً^(١)

كادت لعرفان النوى ألفاظها من رقة الشكوى تكون دموعا

فولد منه معنى لطيفاً ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد

تحدّرت كالآلئ ، بقية مانفته المودعون في آذانه من حديث هو

الدر النفيس . وذلك قوله :

لم يبكنى إلا حديث فراقهم لما أسرَّ به الى مودّعى

هو ذلك الدر الذى أودعته فى مسعى أقيته من مدمعى

(١) الاسروع ويجمع على أساريع: دود أبيض أحمر الرأس يشبه به العرب الانامل الرقيقة

أما السبب في احمرار الدموع فلم أجده فيه أبلغ من قول
صردر:

حسام أرمي وردة لا تجتنى في الخد أو تفاحة لا تلتئم
أيذاذ عن تلك المحاسن ناظري ويريد مني أن يسوِّغها الفم
في كل يوم للعيون وقائع إنسانها الطامح فيها يكلم^(١)
للم تكن جرحى غداة لقاءهم ما كان يجري من ماقيها الدم
لم أدر أن الحب حومة مأزق تُصلى ولا أن اللواحظ أسهم
وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد:

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك أنساني من الغرق
إني أصد دموعا لج سائتها

مظروفة العين بالمرضى من الحديق

ويرى القارىء أن أصحاب هذه الأخيصة الشعرية، يرون
أن احمرار الدموع إنما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق
وعين المعشوق. فيالها من حرب ضروس تطأ فيها أقدام الجنس
اللطيف أعناق الجنس النشيط. وإنا بهذه الهزيمة لفرحون !!
وكان عجيباً أن تبيض الدموع بعد احمرارها !! وقد رأينا
كيف أولوا احمرار الدموع، ولندكر أن أصدقهم سبب
ابن التعاويذي حين يقول:

(١) يكلم: يبحر

أَتَبَعْتَهُمْ يَوْمَ اسْتَقَلَّ قَرِيْقُهُمْ نظر المشوقِ وأَنَّةُ المفجوعِ
 لم تَبْكْ يَوْمَ فراقِهِمْ عيني دَمًا إلاَّ وقد نَزَفَ البكاءُ دموعي
 والآن نريد أن نعرف كيف يتأوَّلون ابيضاض الدموع بعد
 أن صيرها الحزن حمراء . فمن الشعراء من يرى الدمع الأبيض
 ماء ورد اخلدود التي قطفها بعينيه عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء :
 كانت دموعي حمراء يوم بينهم فذناؤا قصرتها بعدهم حرق
 قطفت بالاحظ ورداً من خدودهم

فاستقطر البين ماء الورد من حديق

ومنها من جعله شديدا للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله :

قالت عهدتك تبكي دماً لطول التناثي

فلم تعوضت عنا بعد الدماء بماء

فقلت ماذا كمني لسلوقة وعزاء

لكن دموعي شابت لطول عمر بكائي

وأشجى منه قول الآخر :

وقائلة ما بال دمعك أبيضاً فقلت لها يا عزُّ هذا الذي بقي

ألم تعلمي أن البكا طال عمره

فشابت دموعي مثل ماشاب مفرقي

وعما قليل لادموعي ولادمي ترين ولكن لوعتي وتحرقني

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزناً ، وأغزره دمعاً ،

وهل تجد أدعى للشجو والبهت من قوله :

فقلت لها يا عزُّ هذا الذى بقى ١١

ويذكرنى هذا بقول الشريف الرضى فى إتيان الدموع على

العيون ، والغليل على الضلوع :

محابعدكم تلك العيون بكاؤها وغال بكم تلك الأضالعُ غولها

فمن ناظرٍ لم يبق إلا دموعه ومن مهجةٍ لم يبق إلا غليلها

دُعوا لى قلبا بالغرام أذيبه عليكم وعيناً فى الطلول أجيلها

ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها

تكون أرق من الهواء . ولهم فى ذلك فنونٌ من القول ، وشجون

من الحديث ، وأجمل ما رأيت فى ذلك قول خالد الكاتب فى رفق

عذالهِ به ، وإسعادهم له :

بكى عاذلى من رحمةٍ فرحمته وكم مسعدلى فى الهوى ومعين ؟

ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعى لادموع جفونى

عذر أرباب الدموع

لا تغزل المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه

إن القليل مبللاً بدموعه مثل القليل مضرراً بدمائه

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به

لدى عذالهم . وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع ، وداعى

البكاء . والشعراء فيه رجالان : رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة :
 فباح بمكنون سره ، ومكتوم حبه ، ورجل تخوف الرقباء ،
 وتهيب العذال ، فأخذ يخلق العلل ، وينتحل الأسباب ، دفعاً
 لكيد الواشين ، ودرءاً لعدل اللائمين . . فمن الأول قول البحترى :
 سارت مقدمة الدموع وخلفت حرقاً توقد في الحشا ما ترحل
 ان الفراق كما علمت نخلني ومدامعاً تسع الفراق وتفضل
 إلا يكن صبرٌ جميلٌ فالهوى نشوانٌ يجمل فيه مالا يجمل
 وحسن البيت الأول في خلود اللوعة ، وبقاء الغليل ! وهو
 خير من قول ذى الرمة :

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحة

من الوجد أويشفي شجى البلابل
 والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس المعنى
 والصبر أجمل غير أن تلدداً
 في الحب أخرى أن يكون جميلاً^(١)

وقال البحترى في الاعتذار عن البكاء :

لا تلمني على البكاء فاني نضو وشجو ما لمت فيه البكاء
 عذلاً يترك الحنين أنيناً في هوى يترك الدموع دماء
 كيف أغدو من الصبابة خلواً بعد ما راحت الديار خلاً

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب :

عش فبيك سريعا قاتلي والضى إن لم تصلنى واصلى
ظفر الحب بقلب دنف فيك والسقم بجسم ناحل
فهما بين اكتئاب وضى صيرانى كالتضيب الذابل
وبكى العاذل لى من رحمة فبكائى لبكاء العاذل

وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة : فقد
يندر أن يبكى اللاثمون رفقا بالحب الحزين

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء أسبابا غير أسبابه قول كثير :
إذا زرفت عينى أعتلُّ بالقذى وعزة لو يدرى الطيب قذاها
وهو نوع من السكتان يفزع اليه الشعراء عند اليأس من
أحبابهم .

يأسٌ يُحسن لى التستّر فاعلمى لو كنت أطمع فيك لم أتستّر
ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه ،
وقد استجيا من صديقه :

كم من صديق لى أسا رقه البكاء من الحياء
فاذا تأمل لامنى فأقول ما بى من بكاء
لكن ذهب لارتدى فطرفت عيني بالرداء

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط . ومن جيد
الشعر فيه قول بعض الأعراب :

فان تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا منى البكا والقوافيا
فهلا منعتم إذ منعتم حديثها خيالاً يوافيني على النأى هاديا
وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن :

أليس الليلُ يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني
وما الذي يضير أعداء الحب من أن يرى القمر كما تراه ،
ويعلوها النهار كما علاه ، ماداموا قدأبعدوه عنها ، وحرموه منها .
وقد تنبه بعض الأعراب الى تفاهة هذه القناعة فقال ::

بربك هل ضمنت إليك ليلى قبيلَ الصبح أو قبَّلْتَ فاهها ؟
وهل رفت عليك فروع ليلى رفيف الأفيحوانة في شذاها ؟

على أنه ينبغي أن لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر
وأمثاله من روعة الصدق ، وجلال الوفاء . وماذا عسى أن تكون
الصباية إن لم يصبح البكاء أشهى من الحديث المعسول ، حين يغدو
الحب ولا أمل له في غير الوجد المشبوب ، والدمع المسكوب ،
والصبر المغلوب !

من أجل هذا نخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد الرصفي
ونزجوه أن يصفح عن إعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء
بدمعه الدائم ، وحزنه المقيم :

فان يحبوها أو يحل دون وصلها مقالة واش أو وييد أمير
فلن يمنعوا عني من دأَم البكا ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري
الى الله أشكوماً لاقى من الهوى ومن كُربٍ تعتادني وزفير
ومن حرقٍ للحب في باطن الحشا وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعين قريحة بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن تظهر النوى بأنعم حالي غبطة وسرور
فأبرح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبةً لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا

ولكنما الدنيا متاع غرور

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الانسانية أجمل تصوير،
وتمثيلها أدق تمثيل . ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز في قناعته بالبكاء
ثم انطلق يشكو الى الله لوعته ، وحرقة ، ولياليه الطوال ! ألم
تر إليه وقد كان يحسب الدمع نعمةً سابغةً يكتب بخلودها الأعداء
فعاد يرى الدمع آيةً الذل والمسكنة ، وآخر ما يفزع اليه الأذلاء
المساكين !!

الفرع الى الدموع

قال أبو بكر بن عياش: نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت
قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحةً

من الوجد أو يشفي شجىّ البلباب

نخلوت فبكيت فسلوت !! ولست أدرى كيف تذهب بالوجد
زفرة أو تودي به عبرة؟ ، وهو كما قيل:

ظن الهوى لبسةً تبلى فيخلعها

فكان في الروح مثل الروح في البدن

وكنيت أسمى هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع ،
وَقَفًا لما يجنح اليه الشعراء ، ولكني رأيت أن أسميه « فرعاً الى
الدموع » حين تبين أن الدمع لا يطفىء اللوعة ، وأنه نار حامية ،
لا برد وسلام !!

وهل تجد أدعى للبث ، وأجلب للحزن ، من قول كثير ،
وقد ترحلت حبيبته :

كفى حزنًا للعين أن ردّ طرفها لعزة غير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى اذن للغليل
توليت محزونا وقلت لصاحبي أقاتلى ليلى بغير قتيل
وما اختار البكاء لأنه أشفى للغليل كما قال ، ولكنه اختاره

ليفر من الصبر الذي رآه مر المذاق !! وقد حسب بعض الشعراء
أن التفضيل بين الصبر والبكاء مما ينال وفي ذلك يقول :

إذا ماعدوت الصبر بعدك والبكا

أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر

وهو ضلال مبين : فإن البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ،
ولكنه ينقض عليه انقضا الصاعقة ، فإذا هو صريع ! وأمثال
هذا الشاعر لا يتحدثون عن خزهم المقيم ، ولكنهم يمنون على
أحبابهم بهذا الدمع المجلوب

ومن الشعراء من تنبه الى أن السلامة من الجوى أمض من
الجوى ، وهؤلاء يبكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم « ومن
أسماء الحب الضلال » ومن مختار الشعر في هذا البكاء قول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ولو زلتم ثم لم أبكم بكيت على حبي الزائل

وأوجع منه قول البحتري :

وأود أنى ما قضيت لبانتى منكم ولا أنى شفيت غليلي

وأعد برئى من هوائ جنائى والبرء أعظم غاية المخبول

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه فى السلوة ، ولا فى

البكاء . . وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟

أرأيت آدم وقد خرج من الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس
الضائع ، هي سر ما يعتادنا من أنين قد لا نعرف له سبباً قريباً ؟
وهل البكاء إلا أثر من آثار الوجد يخشع لهيبته غلاظ الأكبادة ،
ويرق له قساة القلوب ؟

تلك حسرة البحتري أفصح عنها بقوله :

وأود أنى ما قضيت لباتى منكم ولا أنى شفيت غليلي

فما الذى جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول :

قف مشوقاً أو مسعداً أو حزيناً أو معينا أو عاذراً أو عذولاً

وخلاف الجميل قولك للذا كر عهداً حباب صبراً جميلاً

عل ماء الدموع يخمّد ناراً من جوى الحب أو يبلّ غليلاً

وبكاء الديار مما يرد الشوق ذكرّاً والحب نضواً ضئيلاً

لم يكن يومنا طويلاً بنعمنا ولكن كان البكاء طويلاً

إن فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية : فهي ليست

موحدة المشاعر والميول . ولو جاز أن نجد نفساً خالدة إلا لم تفقد

شقيقتها فى عالم النفوس ، جاز أيضاً أن تكون فى لوعتها الخالدة

ذات تصاريف فى الشكوى والأنين ! وليس طلب السلوة

إلا صرخة الوجد يعجز عن كبها المقيم العانى : ومن الذى يُحرّم

على شقى أن يلتمس إلى السعادة السبيل ؟ ومتى كان المحبون

سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلواهم كفرةً بنعمة الحب
التي ابتلى الله بها أولئك الشهداء ؟ ! وقد يحسن أن ننشد القارئ
قول البحتري نفسه :

قد كان مني الوجد غبَّ تذكر إذ كان منك الصدُّ غبَّ تناسي
تجرى دموعي حيث دمعك جامدٌ ويرق قلبي حيث قلبك قاسي
ألا تراه جعل الوجد أثراً للتذكر الذي حسب البكاء يفضي
إليه فيريحه من الشوق في قوله :

وبكاء الديار مما يرد الشوق ق «ذكرأ» والحب نضواً ضئيلاً
فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داء تارة أخرى : ولسنا
نتخذ من ذلك دليلاً يرضاه المنطق عن خلود الصباية ، والعالم كله
لن يرزق الخلود ، ولكننا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيتم
المحزون ، فما يدري أيشفيه الدمع ، أم يزيد لوعته اضطراباً .
على أنه لا عيب على الشاعر في أن « تتناقض » خواطره ،
لأن الشعر كالمرآة ، والنفس دنيا ثانية ، تتراءى صورها المختلفة
في آهة الشعر الجميل .



الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق . فمن ذلك قول ابن الرومي :

لو كنت يوم الفراق حاضرا وهنَّ يطفين غلة الوجدِ
لم ترَ إلا دموع باكية تقطر من مقلة على خدِ
كأن تلك الدموع قطر ندَى يقطر من نرجس على وردِ
وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه .
وهو كقول أبي نواس في جنان :

يا قرأ أبصرت في مائتم يندب شجواً بين أترابِ
يبكي فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعنابِ
والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال ، ونراها أخيلة
عادية ليس لها جمال خاص ، فقد يجد الشاعر في الجميلة الباكية
ما ينسبه وصف طرفها الساحر ، وخدها الأسيل !!

وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله :

تلاقينا لقاء لا فراق كلانا منه ذو قلب مروع
فما افترت شفاه عن ثغور بل افترت جفون عن دموع
ومما جمع بين براعة التصوير ، ومتانة التعبير ، قول المتنبي :
لما تقطعت الحول تقطعت نفسي أسي وكأهنَّ طلوحُ

وجلا الوداع من الحبيب محاسنا حسن العزاء وقد جليل قبيح
 قيد مسامة ، وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح
 يجد الحمام ولو كوجدى لا نبرى شجر الأراك مع الحمام ينوح

وقال مهيار في الاعتذار عما للمودع من الزفات والعبات :
 دعوني فلي إن زمت العيس وقفة أعلم فيها الصخر كيف يلين
 وخلوا دموعي أويقال نعم بكى وزفرة صدرى أويقال حزين
 فلولاً غليل الشوق أودمعة النوى لما خالقت لي أضلع وجفون

وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر
 إذا لم أفز منكم بوعد فنظرة اليكم فما نفعى بسمعى وناظرى
 وقال السرى الرفاء في ذكر مظاهر الوداع : من اللوعة ،

والحنين ، وتحديد الخلد بالدمع ، مع ذهاب العزاء :
 وقفننا النوى على الكره منا * موقفاً ضم شائناً ومشوقاً
 حال ورد الخدود فيه فأضحى * النرجس الغض بالدموع غريفاً
 لوعة أفرطت فعادت حريقاً * وحنين أربى فعاد شهيقاً
 وخليق بلوعة الحب صب * لم يكن بالعزاء فيه خليقاً
 ومن شجى الشعر في ذلك قول الشريف الرضى :

ولما تواقفنا ذهلت ولم يحن * لطير قلوب العاشقين وقوع
 عشية لي من رقة الحى زاجر * عن الدمع إلا أن تشدد موع
 وقد أمرت عينك عيني بالبكا * فقل لي أى الأمرين أطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة : وهي ترتيب المعاني ترتيباً لولا حيرة
المودع لكان غايةً في الوضوح . ولا يفوتنا أن نذكر هنا قول
ابن زريق :

ودعته وبودي لو يودعني * صفوا الحياة وأنى لأودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه * والضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى * وأدمعى مستهلات وأدمعه
ومن الشعراء من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة
قد لا تراها العين إلا عند الرحيل . فمن ذلك قول البحترى :
إن للبين نعمة لا تؤدى * ويداً في تماضر بيضاء
حجبوها حتى بدت لفراق * كان داءً لعاشق ودواء
أضحك البين يوم ذاك وأبكى * كل ذى صبوة وسرّ وساء
جعلنا الوداع فيه سلاماً * وجعلنا الفراق فيه لقاء
وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء :

لم أنس إذ ودعته والتقى * ذا البدن الناعم والناحل
كأما جسمي على جسمه * غصنان ذاغض وذا ذابل
يارب ما أطيب ضمي له * إلى لولا أنه راحل
وقد ألم الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات :
أفى كل يوم لفته ثم عبرة * على رسم دار أو مطى موقف

وركب على الأكوار يثنى رقابهم
 لداعى الصبا عهد قديم ومأف^(١)
 فمن واجد قد ألزم القلب كفة
 ومن طرب يعلمو اليقاع ويشرف
 ومُسْتَعْبِر قد أتبع الدمع زفرة * تكاد لها عوج الضلوع تنقف
 قضى ما قضى من أنه الشوق وانثنى
 بدار الجوى والقلب يهفو ويرجف
 ولم نغن حتى زایل البعد بيننا
 وحتى رمانا الأزم المتطرف^(٢)
 كأن الليالى كن آلين حلقة
 بأن لا يرى فيهن شمل مؤلف
 أيا وقفة التوديع هل فيك راجع
 إشارة ذاك البنان المطرف
 وهل مطعمى ذاك الغزال بلفتة
 وإن ثور الركب العجال وأوجفوا^(٣)
 وهذه الأبيات وصف سابع المرور بمنازل الأحياب ،
 ولكن فيها تصويراً لانتهاج الحسنى عند الوداع ، وإمتاع العين
 باللفتة وإشارة البنان ، وليست هذه المتعة بالشئ القليل !

(١) الاكوار جمع كور بالضم وهو الرجل (٢) لم نغن : لم نقيم . والازم المتطرف هو الدهر .

(٣) أوجفوا : أسرعوا وثور الركب توائبه فى الرحيل

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع،
والآن نذكر أفانين من شعرهم في الدمع بعد الفراق . فمن ذلك قول
دعبل في راحلين ما يدري أيلقاهم وهو حيّ ، أم ينتظرهم في عالم البقاء
ألم يأن للسفر الذين تحملوا * إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبّرة * نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها * وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كماترى * لكل أناس جذبة وريع
ويذكر صاحب « مواسم الأدب » أن المأمون كان يُعجب
بهذه الأبيات ، وكذلك كان المؤلفون « يسجلون » إعجاب الملوك
بما يقول الشعراء ، كأن الشعر « تقود » لا يتداولها الناس إلا إن
حملت شارات الملوك !! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن
إقبال المأمون على الشعر الجيد وتشجيعه للشعراء المجيدين ، كان مما
رفع الأدب ونهض بالأدباء . وهناك ظاهرة أخرى لا عجب
المأمون بهذه القطعة الوجدانية : هي إقبال كرام النفوس على مناهل
الوفاء ، وإن أسبغت عليها نعمة العلم والجاه . ولنا أن تقول : إن في
عجز العلم والملك عن قتل الحب في صدور الملوك والعلماء لدليلاً
على أن نعم الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة ، القاهرة ،

نعمة الجمال !! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء ، يقول الطغرائي :
 إني لا أذكركم وقد بلغ الظما * مني فأشرق بالزلال البارد
 وأقول ليت أحبتي عاينتهم * قبل المات ولو بيوم واحد
 وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باكٍ
 حزين . كقوله :

الدمعُ مُدٌّ بَعْدُ الخليط قريبُ * والشوق يدعوا الزفير يحيبُ
 إن لم تكن كبدى غداة وداعكم * ذابت فاعلم أنها ستدوبُ
 داءٌ طلبت له الأُساة فلم يكن * إلا التعلل بالدموع طيبُ
 ما أقت فان دمعى غالبُ * لعواذلى وتجدى مغلوبُ
 ومن الشعراء من ينفد دمعهُ ، فيوصى بالبكاء عنه ، كما قال الشريف
 أيها الراحُ المغدُّ تحملُ * حاجةً للمقيم المشتاق^(١)
 إقرعنى السلام أهل المصلَّى * فبلاغ السلام بعض التلاقى
 وإذا ما مررت بأخيف فاشهد * أن قلبى إليه بالاشواق
 وإذا ما سُئِلت عني فقل نضوُ هوى ما أظنه اليوم باقى
 صناع قلبى فانشده لى بين جمع * ومنى عند بعض تلك الحداق
 وابك عني فطالما كنت من قبهِ * لى أعيرُ الدموع للعشاق
 وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل :
 أيها الراكب الميمم أَرْضِ * إقر من بعضى السلام لبعضى

إن جسمي كما علمت بأرض * وفؤادي ومالكيه بأرض
 قدّر البين بيننا فافترقنا * وطوى البين عن جفوني غمضى
 قد قضى الله بيننا بافتراق * فعمسى باجتماعنا سوف يقضى
 ومن الشعراء من يبكي في القرب والبعد ، كما قال بعض الظرفاء
 وما في الأرض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلوا المذاق
 تراه باكيًا في كل حال * مخافة فرقة أو لاشتياق
 فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم * ويبكي إن دنوا خوف الفراق
 فتسخن عينه عند التناهي * وتسخن عينه عند التلاق
 وليس لنا إلا أن نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل
 لعبد الملك بن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر : وأولها مر
 وآخرها سكر ؟ فقال صدقت يا أمير المؤمنين ! ولكن بين
 السكر والمرارة لحظة دونها ملكك الطويل العريض !
 وبين دموع التلاق ودموع الفراق ، لحظة دونها حياة الأبرار
 في جنات النعيم !!

ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق .
 تقول الشريف

هل عهدنا بعد التفرق راجع * أو غصننا بعد التسلب مورك^(١)
 شوق أقامو أنت غير مقيمة * والشوق بالكلف المعنى أعلق

(١) التسلب : سقوط الأوراق

ما كنت أحظى في الدنو فكيف بي
واليوم نحن مغربٌ ومشرق
وفي البيت الأخير حسرة تذيب لفائف القلوب
وقد أجاد الأَرْجاني في وصف اليأس بعد الفراق ، حين قال :
رَحَلُوا : أمام الركب نشر عبيهم
ووراءهم نفَس المشوق الصادي
فكَأَنَّ هذا من وراء ركابهم * حادٍ لها وكأن ذلك هادي
لله موقف ساعة يوم النوى

بمَنى وأقمار الحدوج بَوَادٍ (١)
لما تبعت وللمشيّع غايةً * أظعنهم وقد امتلكن قيادي
أتبعتهم عيني وقلبي واقفاً * فوق الثنية والمطى غوادٍ
كيف السبيل الى التلاقى بعد ما * ضرب الغيور عليه بالأسداد
والحي قد ركزوا الرماح بمنزلٍ * فيه الظباء ربائبُ الآسادِ
وعد المنى بهم فقلت لصاحبي * كم دون ذلك من عدى وعوادِ
عهدي بهم وهم بوجرة جيرة

سقيت عهودهم بصوب عهاد (٢)
فاليوم من نفَس النسيم اذا سرى * نبغى شفاء علائل الاكباد

(١) الحدوج جمع حديج وهو مركب للنساء كالحففة (٢) وجرة : مربب اللوحش بين مكة والبصرة
والعهاد : الامطار تعهد المكان وتعاوده حيناً بعد حين

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها أيدي
الفراق حين نفرت عنها الظباء ، كسبط ابن التعايزي حين يقول:
ياموقفاً بالبان لم تثمر لنا * غير الصبابة والأسمى شجراته
هل نُفُرتْ لا نُفُرتْ غزلاً نه

أو صَوَّحتْ لا صَوَّحتْ بآناته^(١)

عهدي به يلوى الديون قضائته * وتصيد ألياب الرجال مهائته
فاليوم لا جيرانه جيرانه * قدماً ولا فتياته فتياته
ياحادي الأظعان في آثاركم * قلب تقطعه جوى حسراته
ولقد يرى ثبَّتَ الحصة فاله

أُمسّت تذوب على البعاد حصاته^(٢)

شكوى الصبابة

نظرت مقال الشعراء في الشكوى فاذا هم مختلفون: فمنهم من
يشكو الى من يعلم السر والنجوى ، ومن يقدر على تصريف
الخواطر ، وتقليب القلوب

الآن لداود الحديد بقدره * مليك على تيسير قلبك قادر
وهؤلاء أصدق الناس حباً وأحسنهم إيماناً . وسيدهم
أبو صخر الهذلي حين يقول:

(١) صوحت: ذبكت وببست (٢) الحصة: العقل والرأى ، وهو حصى كفى : وافر المقل

بيد الذي شغف الفؤاد بكم * تفريج ما ألقى من الهم^(١)
فانه جعل الهوى قدراً ، وجعل الأمر في تيسير قلب من يهوى
وتذليله لاذى خلق الحب ، وأودع الذل فيه . ولم أجدف في هذا المعنى
أوجع من قول قيس بن ذريح

إلى الله أشكو فقد لبني كما شكا * إلى الله بعد الوالدين يتيم^١
يتيم^٢ جفاه الأقربون فدمعه * غزير^٣ وعهد الوالدين قديم^٤
وإذا كان محالاً أن يجد المرء بعد أبويه من يعوله ، ويحذب
عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديراً أن يفوز به لو عاش
أبواه ، فكذلك لا يجد قيس من بين النساء من تهره برّ لبني . وهذا
وجه الحسن في هذين البيتين ، اللذين يفيضان ناراً وحرقة
وقال ابن المعتز :

إلى الله أشكو الشوق لا إن لقيتها
يقل^١ ولا إن بنت يخلقه الدهر^٢

مقيم^٣ على الأحشاء قد قطعت به
فساعته يوم ولياته دهر^٤

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ،
وخلود وجده . وإنما يشكو المحب قسوة المهجر ، ومرارة الصدود
وقال معين الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوه :

(١) شغف الفؤاد : شغفه وتيممه

أشكو الى الله من نارين واحدة * في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين سُقم قد أحلّ دمي

من الجفون وسقم حلّ في جسدي
وهذا شعر منتقد . فانه اذا صبح أن يشكو الحب الى الله
سقمه ووجده ، أملاً في الراحة من بلاء الحب فما الذي يريده بشكوى
السقم في جفن محبوبه والنار في خديه ؟ وقد أجاد أو قارب في قوله
ومن نمو مین دمی حين اذكره

يذيع سرى وواش منه بالرصد

ومن ضعيفين صبرى حين يهجرني

ووده ويراہ الناس طوع یدی

فانه لا بأس من شكوى الواشى والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو الى المعاهد والرسوم . وهو نوع من

الوله ، وصنف من الصباية ، تقرُّ به عين المحب ، وتطيب به
نفس المشوق . كقول ابن المعتز

أياسدرة الوادى على المشرع العذب

سقاك حياً حتى الثرى ميت الجذب

كذبت الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى

إليك وإب طال الطريق على صبحي

أصانع أطراف الدموع ومقلتي * موقرة بالدمع غرباً على غرب

وهل هي إلا حاجة قضيت لنا * ولوم تحمّلناه في طاعة الحب
تبدّلت شيباً بالشباب فان تطار * شياطين لذاتي يقعن على قرب
ومنها من يشكو إلى المسعد والرفيق . وهو أصل هذا الباب .
ومنه هذا البيت السائر :

ولا يد من شكوى إلى ذي مروة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ويعجبني في هذا المعنى قول البها زهير :

أين من يرحمني أشكو له * انما الشكوى إلى من يرحم
أنا من قلبي ومنها آيس * لم يكن من مقلتيها يسلم
أيها السائل عن وجدى بها * إنه أعظم مما ترعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى * أنت يارب بحالى أعلم
طال ما ألقاه من نار الجوى * وحديثى لك يامن يفهم
عشق الناس ومثلى لم يكن * فاعلموا أنى فيهم علم
سطّرت قبلى أحاديث الهوى * وبمسك من حديثى تحتم
وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الدوق ، وخفة
الروح . ولعلك لا تجد أظرف من قوله :

أين من يرحمني أشكو له * انما الشكوى إلى من يرحم
فانه خير ما قيل في معناه . . . ومن الغرمين من يشكو
إلى حبيبه وهو أوجب لرحمته ، وأدعى إلى انصافه . ومنه قول

الطغرائى .

لعمرك ما يرجى شفائى والهوى * له بين جسمى والعظام ديبٌ
أجلك أن أشكو إليك وأنطوى * على كمدى إن الهوى لعجيب
وآمل برءاً من هوى خامر الحشا * وكيف بداءٍ لا يراه طيب
نصيبك من قلبى كما قد عهدته * ومالى بحمد الله منك نصيب
وما أدعى إلا اكتفاءً بنظرة * اليك ودعوى العاشقين ضروب
وما بحث بالسر الذى كان بيننا * ولكنما لحظ الحب مريب
وقوله : « نصيبك من قلبى كما قد عهدته » مأخوذ من قول
ابن الأحنف :

اليك أشكو ربٍّ ما حلَّ بى * من صدِّ هذا التائه المعجب
صبُّ بعصيانى ولو قال لى * لا تشرب البارد لم أشرب
ان قال لم يفعل وان سيل لم * يبذل وان عوتب لم يعتب
وقوله : « وما أدعى إلا اكتفاءً بنظرة » مأخوذ من قول
الشريف :

عشت وما بى يعلم الله حاجةً

سوى نظرى والعاشقون ضروب

بما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه .. فى الشكوى إلى

الحبيب — قول بعض الأعراب :

شكوت فقلت كل هذا تبرماً * بحبى أراح الله قلبك من حبي

فلما كتمت الحب قالت لشدّ ما
صبرت وما هذا بفعل شجى القلب
وأذنو فتقصيني فأبعد طالبا * رضاها فتعتدّ التباعد من ذنبى
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها
وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها
أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربى
وهذا شعر الطبع والسليقة، والموفقون الى مثله قليل
وقد أجاد فى هذا المعنى من شعراء العصر حافظ بك ابراهيم
حين قال :

كم تحت أذيال الظلام متيم * دأى الفؤاد وليله لا يعلم
ما أنت فى دنياك أول عاشق * راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتنى ياليل فى شرخ الصبا * كم فيك ساعات تشيب وتهرم
لأنت تقصرلى ولا أنا مقصر * أتعبتنى وتعبت، هل من يحكم
لله موقفنا وقد ناجيتها * بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم
قالت من الشاكي تسائل سربها * عنى ومن هذا الذى يتظلم
فأجبتها وعجن كيف تجاهلت * هو ذلك المتوجع المتألم
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له
لولا عيونك حجة لا تفحم

أَسَامَتِ نَفْسِي لِلْهَوَى وَأَظْهَرَهَا * مِمَّا يَجْشِمُهَا الْهَوَى لَا تَسْلَمُ
وَأَتَيْتُ يَحْدُونِي الرَّجَاءَ وَمَنْ أَتَى

مُتَحَرِّمًا بِفَنَائِكُمْ لَا يُحَرِّمُ
أَشْكُو لَذَاتِ الْخِلَالِ مَا صَنَعْتَ بِنَا * تِلْكَ الْعَيُونَ وَمَا جَنَادُ الْبَعْصَمِ
لَا السَّهْمُ يَرْفُقُ بِالْجَرِيحِ وَلَا الْهَوَى

يَبْقَى عَلَيْهِ وَلَا الصَّبَابَةُ تَرْحَمُ
لَوْ تَنْظُرِينَ إِلَيْهِ فِي جَوْفِ الدَّجَى

مُتَمَلِّمًا مِنْ هَوْلٍ مَا يَتَجَشَّمُ
يَعْمَشُ إِلَى كِنْفِ الْفَرَّاشِ مُحَازِرًا * وَجَلًّا يُوْخِرُ رِجْلَهُ وَيَقْدُمُ
يَرَى الْفَرَّاشَ بِنَازِرِيهِ وَيَنْثَى

جَزَعًا وَيَقْدُمُ بَعْدَ ذَاكَ وَيَحْجَمُ
فَسْكَانُهُ وَالْيَأْسُ يَنْسِفُ نَفْسَهُ * لِلْقَتْلِ فَوْقَ فَرَّاشِهِ يَتَقَدَّمُ
رُشِقَتْ بِهِ فِي كُلِّ جَنْبٍ مُدِيَّةٌ * وَأَنْسَابُ فِيهِ بِكُلِّ رُكْنٍ أَرْقَمُ
فَسْكَانُهُ فِي هَوْلِهِ وَسَعِيرِهِ * وَادٍ قَدْ اطْلَعَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ
هَذَا وَحَقِّكَ بَعْضُ مَا كَابَدْتُهُ

مَنْ نَازِرِيكَ وَمَا كَتَمْتَكَ أَعْظَمُ
قَالَتْ أَهَذَا أَنْتَ وَيَحْكُ فَاتْنِدِ !

حَتَامَ تَنْجِدُ فِي الْغَرَامِ وَتُثَمِّمُ
إِنَّا سَمِعْنَا عَنْكَ مَا قَدَرْنَا * وَأُطَالَ فَيْكَ وَفِي هَوَاكَ الْأَوْثَمُ

أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت
في هجرها وجنت على وأجرموا

حتى إذا يئس الطيب وجاءها
أنى تلفت تندمت وتندموا

وأنت تعود مريضها لابل أتت

منى تشيع راحلاً لو تعلم

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق ، وقد
طال عليه الليل ، وهجر جفنيه المنام . وهي غابة في حسن القصص ،

وسحر البيان

ولنذكر الشكوى الى ساق الراح في قول بعض الشعراء :

أيها الساق اليك المشتكى * قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته * جذب الزق اليه وأتكا

وسقاني أربعاً في أربع

مالعيني عشت بالنظر * أنكرت بعدك ضوء القمر

• وإذا ما شئت فسمع خبري

عشت عيناي من طول البكا

وبكى بعضى على بعضى معي

غصن بان مال من حيث التوى
 مات من يهواه من فرط الجوى
 خفيق الأحشاء موهون القوى
 كلما فكر في البين بكى
 ونجى يبكى لما لم يقع !
 ليس لى صبر ولا لى جلد * يالقوى عذكوا واجتهدوا
 أنكروا شكواى مما أجد * مثل حالى حقه أن يشتكى
 كمد اليأس وذلل الطمع
 كبده حرى ودمع يكف * أصرف الدمع فلا ينصرف
 أيها المعرض عما أصف * قد نما حبي بقلبي وزكا
 لا تقل في الحب إنى مدعى
 وفى هذه الموشحة شكوى أليمة تهم بثلها النفس الشجية ،
 من حين الى حين !
 وتعجبنى شكوى ابن الرومى فى قوله :
 ظبي يصيد ولا يصاد محاذر * نبل الهوى وحبائل الإيناس
 غر شمس لمن أحسن بريية
 أعجب بجامع غرة وشماس (١)
 يسبى القلوب بمقلة مكحولة * بفتور غنج لا فتور نعاس

(١) الشمس فى الأصل ان يمنع الفرس ظهره

يَا لَرَجَالٍ أَلَا مَعِينٍ لَا يُدِّ

صَبَّ الْفُؤَادَ عَلَى ضَعِيفٍ قَاسٍ^(١)

أَيُضِيمُنِي خَنْثُ الشَّمَائِلِ لَوْ نَضَا

عَنْهُ غِلَاتِهِ حَسَاهُ الْحَاسِي ؟

وَمَنْ الْعَجَائِبُ أَنْ تَحُلْ ظِلَامَةٌ

بَقِيَ أَنَاسٍ مِنْ فِتْنَةِ أَنَاسٍ

وَمِنْ الْمَعْدِّيِّينَ مَنْ يَبْثُ شَكْوَاهُ مِنْ دَهْرِهِ وَإِخْوَانِهِ إِلَى

صَدِيقٍ أَقْصَمْتَهُ فِي بَرِّهِ اللَّيَالِي . وَمِنْ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ مَنْ قَارَبَ

الِإِجَادَةَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، كَصَاحِبِ الْبِدَائِعِ حِينَ يَقُولُ^(٢) :

أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي * يَا سَيِّدِي بِرِّ الصَّدِيقِ

وَتَرَكْتَنِي فِي فِتْنَةٍ * مَا فَيَهُمْ بِرِّي رَفِيقُ

لَمْ أَلْقَ بَعْدَكَ مِنْهُمْ * إِلَّا الْجَفَاءَ أَوْ الْعُقُوقَ

حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَبْتَ * مِنْهُمْ عَلَى عَهْدٍ وَثِيقُ

وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَبْصُرُوا * فِي خُلُقِي الْحَرَّ الصَّدُوقُ

فَنَسُوا هَوَايَ وَلَمْ يَفْقَ * مِنْ وَدْعِ قَلْبِي الْمَشُوقُ

وَنَسُوا طَرِيفَ حَدِيثِنَا * عِنْدَ الصُّبُوحِ أَوْ الْغُبُوقِ

* *

(١) أَيْدٍ : قُوَى . مِنْ الْإِيْدِ بِسُكُونِ الْيَاءِ وَهُوَ الْقُوَّةُ

(٢) أَرْسَلْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ لِلصَّدِيقِ الْعَزِيزِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ حَسَنِ

ليت الهوى ماقادني * يوماً الى ذاك الطريق
أوليتني لم أنخدع * جهلاً بهاتيك البروق
بل ليتني بعد الذي * عانيت من صبحي أفيق

*
*

مولاي لو أبصرتني * لفرغت من دمي الطليق
وشجاك جسمي ناحلاً * وكأنه الطيف الطروق
أشكو إليك وإنما * يشكوا لمضم إلى الشفيق
فأرحم فديتك مهجة * أودى بها الحزن العميق
حزن يقطع في الحشا * فكانه غدرُ الصديق

*
*

يا ويح قلبي لم يزل * يهفو به الروح الخفوق
وتقوده الذكرى إلى * عهد الهوى الغض الرقيق
أيامَ نمرح في الصبا * في ذلك العيش الأنيق
أيامَ نُسقى في الهوى * والود كأساً من رحيق
تلك الليالي لم تدع * من بعدها حسناً يروق
كلاً ولا خلت لنا * إلا الزفير أو الشهيق

عند منازل الأحباب

كان أبو نؤاس يكره الشعر في بكاء الرسوم والأطلال ، وأدباء
هذا العصر يعدون هذه النزعة توديعاً للقديم ، وترحيباً بالجديد ،
وهذا حق إذا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاء الديار ،
وإن لم يكونوا بنار الفراق من المحرقين ! ولكن من العبث في
تحليل العواطف أن نجعل ما يجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم
المبعدين ، ومن الغبن للآداب العربية أن تغفل ما قيل في منازل
الأحباب من الشعر الباكى الحزين ! وهانحن أولاء نبسط القول
عن هذه الوقفة الأليمة ، وقفة الحب على ديار خلت غرفها من الظباء
الغرائر ، وعفت سرورها من النساء الحرائر ، بعد أن كانت
ساكنوها أمل الآمل ، وأمنية المتمنى ! فمن ذلك قول بعض
الأعراب وقد وقف (بالحنن) بفتح الحاء — وكان ملعب شبابه ،
ومنتدى هواه ، وصورة أيامه الخوالى :

ومستنجد (بالحنن) دمعاً كأنه * على الخدم مما ليس يرقاً حائر
إذا ديمة منه استقلت تهللت * أوائل أخرى مالهن أو آخر
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه * لما أهل من عينيه في الماء ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة

رمى الشوق في إنسانها فهو ساهر

وفي هذا المعنى يقول ابن الملوّح :

نظرت كأني من وراء زجاجة * إلى الدار من ماء الصبابة أنظرُ
فعينايَ طورا تفرقان من البكا * فأعشى وطورا تحسران فأبصرُ
ومما يغرى القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحترى :
وقفنا خيينا لأهلك بالوى * ربوع ديار دارسات المعالم
ذكرنا الهوى العذرىَّ فيها فأنسيتْ

عزاها مشوقات القلوب الهوائم
خلعنا بها عذر الدموع فأقبلت
تلوم وتلحى كل لاحٍ ولائم
لقد حكم البين المشتت باليلي
عليك وصرف الدهر أجورُ حاكم
لعلَّ الليالى يكتسين بشاشة

فيجمعن من شمل الهوى المتقادم
ونود لو تأمل القارىء ما في هذه الأبيات من الترتيب
والتنسيق : فقد وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل بروحه
بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضى ، ثم اشتعل الحزن فى قلبه اشتعالا ،
ففسى جمال الصبر وحسن العزاء ، فاندفع يبكى وينتحب ، ثم
أغرب فى البكاء والنحيب ، حتى خشع عاذلوه ، وخضع لأنموه !
ثم توجّع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالى ! ثم تمنى لو

ضحك الزمن بعد العبوس ، فاجتمع الشمل بعد الفراق !

وقال أبو فراس :

على ربع العامرية وقفة * ليملى على الشوق والدمع كاتب
فلا وأبى العشاق ما أنا عاشق

إذا هي لم تلعب بصبرى الملاعب
ومن مذهبي حب الديار وأهلها

وللناس فيما يعشقون مذاهب
ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهباً لأبى
فراس ، مع أن أياته هذه ليست شيئاً في جانب ما قيل في منازل
الأحباب ، ويكفى أن نذكر قول نيهان العبسي في الماء الذي كانت
تشرب منه محبوبته سليمي :

سأسرى الى الماء الذى شرّبت به

سليمي وإن ملّ السرى كلُّ واحد

والصق أحشائي ببرد ترابه * وإن كان مخلوطاً بسم الأسود^(١)
ويذكرني هذا بقول بعض الأعراب في (الوشل) وهو
ماء كان يطالع عنده وجوه الكواعب :

اقرأ على الوشل السلام وقل له * كلُّ المشارب مذهب جرت ذميم
سقياً لظلك بالعشى وبالضحى * ولبرد مائك والمياه حميم

(١) الاسود جمع اسود وهو الثعبان

لو كنت أملك منع مائك لم يذق
 مافي قلاتك ما حيت لئيم^(١)
 وللشريف الرضى فى بكاء الديار بدائع ، فمن ذلك قوله :
 توافر صبحي يوم ذى الأثل زفرة
 تذوب قلوب من لظاها وأضلع
 منازل لم تسلم عليهن مقلّة
 ولا جفّ بعد البين فيهن مدمع
 فدمع على بالى الديار مفرق * وقلب على أهل الديار موزع
 ألا ليت شعري كل دار مشته * ألا موطن يدنو بشمل ويجمع
 ومن جيد شعره فى هذا المعنى قوله من كلمة ثانية :
 وقفت على تلك الديار ووحشها * دوان ومن يحكين غير دوان
 فأنكرت العينان والقلب عارف
 قليلاً ولجاً بعد فى الهملان
 وهذا آخر ما يقال فى رسوم الديار ، فحسب أطلالها من
 البلى ، ورسومها من العفاء ، أن تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب
 الا قليلاً !! والأدباء ينكرون أن يتردد القلب فى معرفة دار
 كانت بالأمس جنة ونعيماً ، ويعجبون بقول طريح بن اسماعيل
 الثقفى :

(١) القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون فى الصخرة

تستخبر الدمن القفار ولم تكن * لترد أخباراً على مستخبر
فظلمت تحكم بين قلب عارف * مغنى أحبته وطرف منكر
ومن الشعراء من يرى الديار الخالية، وكأنها بأهلها مأهولة،
كأبي نواس حين يقول :

لَمَنْ دَمَنْ تزداد طيب نسيم
على طول ما أقوت وحسن رسوم^(١)

تجافى البلى عنهن حتى كأنما * لبسن على الإقواء ثوب نعيم
وكقول الأخطل :

لأسماء محتمل بناظرة البشر * قديم ولما يعفه سالف الدهر
يكاد من العرفان يضحك رسمه * وكمن ليالي للديار وكم شهر
وكقول ابن أحر العقيلي :

تراها على طول القواء جديدة * وعهد المغاني بالحلول قديم
والمعروف في هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المقيم
المحزون، كقول محمد بن وهب :

طللان طال عليهما الأمد * درسا فلا علم ولا قصد
لبسا البلى فكأنما وجدا * بعد الأعبة مثل ما أجد
وكقول مالك بن أسماء الفزاري :

بيناهم سكن جارهم * ذكروا الفراق فأصبحوا سفرا

(١) أقوت الدار خلت من أهلها وبلت

فظلت ذا وَلَهٍ يعاتبني * من لا يرى مثلي له أمرا
 بكت الديار لفقد ساكنها * أفعد قلبي أبتغي الصبرا ؟
 ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي :
 ولما وقفنا بالديار وعمدنا * مدامعُ نسيها لعم ونُثرُها
 شكونا إليها مالمينا من الضنى * فعرَّفنا كيف السقام دُثورُها
 وقد درست إلا أماره ذاكر * تلوح له بعد التمدى سطورُها
 خليلي قدعم الأسي وتقاسمت * فنونَ البلى عشاق ليلي ودورُها
 فلا دار إلا دمنةٌ ورسومها * ولا نفس إلا لوعةٌ وزفيرُها
 لعمر الليالى ما حدت قديمها * فيوحشنى ذهابها ومروها
 وقالوا عطاء الدهر يبلى جديدهُ * ومن لى بدنيا لا يزول سرورها
 ونود لو تأمل القارىء إبداع ابن سنان فى هذين البيتين
 خليلي قدعم الأسي وتقاسمت * فنونَ البلى عشاق ليلي ودورها
 فلا دار إلا دمنة ورسومها * ولا نفس إلا لوعة وزفيرها
 وحسب العاشق من موجب الأسي ، وداعى الحزن ، أن يرى
 منازل أحبابه هامدات باليات !
 تعفوا المنازل إن ناوا * عنها وتغبر البلادُ
 والحى أولى بالبلى * شوقا إذا بلى الجماد
 وهل تأملت كيف شكا إلى الديار مالمقى من الضنى ، وكيف
 عرف مابه من السقم لما تبين دُثورها ، وتعرف عفاءها ؛ وياليت

شعري هل شكت اليه ما تجد من بُعد سكانها ، وَيَنْ مَلَاكَهَا ! أما
والهوى إنها لتشكو في صمتها الرهيب : اذ كانت تحزن بغير قلب ،
وتبكي بغير دمع !!

كفى حَزَنًا لَهَا ! الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا
ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الأدب ، في بكاء الرسوم
الهوامد والأطلال الدوارس ، مع الإفصاح عن الأسى والبث ،
والشجى والحزن ، قول ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها
مالتي الحب بعدم من الضنى والنحول :

وقفت أدارى الوجد خوف مدامع

تبديح من السر المنع ما أحمى

أغالب بالشك اليقين صباية

وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد ،
فقد عرف الديار بقلبه ، لما ضمنت منه الضلوع لأهلها النازحين ،
وأنكرها بطرفه ، لما لقيت من الدثور والعفاء ، فهو يريد أن
يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة اليقين ، ولكنه غلب على
أمره فقال :

فلما أبى إلا البكاء لى الأسى * بكيت فما أبقيت للرسم من رسم
كأنى بأجزاء النقيبة مسلم * إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جرم

يرحمه الله !! فهل رأى ثائراً أظلم من الوجد ، وحاكماً أجور
من الصبابة !! ثم أخذ يقارن بين بليته وبلية الديار ، فقال :
لقد وجدت وجدى الديار بأهلها * ولولم تجد وجدى لما سقمت سقمتى
عليهنَّ وسمَّ للفراق وإنما * علىَّ له ما ليس النار من وسم
وهذا من الإبداع فى وصف الديار الخالية ، وهل تجد
المنزل بعد أهله إلا باكياً حزيناً ؟ أو ليست وحشة المنزل الخالى
ذلةً باديةً يطالع بها الرائح والغادى ، عساه يعرف شيئاً عن سكانه
الراحلين ، وملاكه الغائبين ؟ إن السكان للمنازل كالأرواح
للأجسام ، فإذا ارتحلوا آنحماهم ، وحان دُورها ، وحل دمارها !!
وقد رأى الشاعر بعد ذلك أن البين جائر فى قسمة الضنى بينه وبين
المنزل الخالى فقال :

وكم قسّم البين الضنى بين منزل

وبينى ولكن الهوى جائر القسم

منازل أدراس شجاني نحو لها * فهلا شجها نأحل القلب والجسم
وهذه استغاثة بالطلل البالى ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين .
وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعاً عند مغافى الأحباب
فمن ذلك قوله :

يا عمرؤ ما وقفة فى رسم منزلة * أثار شوقك فيها نحو آثار

أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به
وما اعترافك الا دمعك الجارى
لو كنت ناسى عهد من تقدمه
نسيت فيها لباناتى وأوطارى
أيام يفتك فيها غير مرتقب

ظبي الكناس بليت الغابة الضارى
لا أرسل اللحظ الا كان موقعه * على شمس منيرات وأقمار
ما أطيب العيش لو أنى وفدت به * على زمانٍ ودهرٍ غير غدار
وهذا شعر يخالط النفس ، ويلابس الفؤاد . ومثله فى اللوعة
قوله من كلمة ثانية :

أجذك ما تنفك بالغور ناشداً * فؤاداً بنجد ؟ يا قلبك من نجد !
وانى لتصمىنى سهام ادكاركم * وان كان رامى الشوق منى على بعد
تمادى غرام ليس يجرى الى مدى * وفرط سقام لا يقيم على حد
وما أنس لا أنس الحمى وأهلة * تفضل ومن حق الأهلة أن تهدي
زماناً إخال الجهل فيه من النهى * وجبا أعد الغى فيه من الرشيد
غنين وما نوّلن نيلا سوى الجوى

وبنّ وما زوّدن زاداً سوى الوجد
خليلى ما أحلى الحياة لوانها * لطاعمها لم تخلط الصاب بالشهد
لقد حالت الأيام عن حال عهدا * ومن لى بأيام تدوم على العهد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة :
 وبالجزع حتى كُما عن ذكرهم * أمات الهوى منى فؤادى وأحياءُ
 تمنيتهم بالرفقتين ودارهم * بوادى الغضا يا بُعد ما أمتناه
 سقى الوابل الربيعي حائل ربهم * وراو حه ماشاء رَوْحٌ وغاداهُ
 وجرَّ عليه ذيله كل خاطرٍ * اذا ما مشى في عاقل الترب حلاه
 وما كنت لولا أن دمعى من دمٍ * لأحمل منّا للسحاب بسقياه
 ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الأرجاني :
 وقفت بأطلال الديار مساماً * وعهدى وملء الوادين قبابُ
 فأبرق عذالى ملاماً وأرعدوا * وأمطرت أجفانى فتمَّ سحابُ
 به غنيت أرض الحمى عن مصبِّح * يقول سقى دار الرباب ربابُ^(١)
 وهو خيال يبدو كأنه طريف ، ولكنه من الأخيالة الجوفاء
 وفي هذا المعنى يقول ابن التعاويذى :

سقى دارا الحبيب وإن تناءت * مُلثٌ مثل أجفانى هطول^(٢)
 ولا برحت تسحب للغواذى * وطوراً للصبا فيها ذبولُ
 نجفنى والغمام لها غديرٌ * وقلبي والنسيم بها عليلُ
 وعنفى على العبرات صبحي * عشية قوَّض الحى الحلول
 وقالوا استبق للأحباب دمعا * فقد شَرِقت بأدمعك الطلولُ
 معاذ الحب أن ألفى حمولاً * وقد سارت بمن أهوى الحولُ

وعارٌ أنتَ تَرمَ ليومَ بينَ * جِمالهمُ ولى صبرٌ جميلٌ
ومن الشعراء من يجعل الحنين إلى الوطن كنايةً عن الحنين
إلى ليالى الشباب التى قضّاها بمرأى من كواكب السواطع ، ونجومه
اللوامع . وقد نوّه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن
الرومى جاء إلى على بن عبد الكريم النصيبى وأنشده هذه القطعة
البديعة :

ولى وطنٌ آليت أن لا أبيعهُ * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرتُ به شرخ الشباب منعماً * بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحببَ أوطان الرجال إليهمُ * ما ربّ قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم * عهد الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفتَه النفس حتى كأنه * لها جسد إن بان غودر هالكا
ثم قال : أنصفنى وقل الحق أيهما أحسن ؟ قولى فى الوطن أم
قول الاعرابى :

أحب بلاد الله ما بين منيع * إلى وسامى لا يصوب سحابها
بلادُها نيطت على تمانى * وأول أرض مسّ جسمى ترابها
فقال له : بل قولك أحسن ، لأنّه ذكر الوطن ومحبته ، وأنت
ذكرت العلة التى أوجبت ذلك . وقد يشعر القارىء بالحاجة إلى
معرفة المخاطب فى قول ابن الرومى :

عمرتُ به شرخ الشباب منعماً * بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا

وخلاصة الحديث أن القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن هي جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها ، فمافيهما من التحريض قوله :

وإني وإن أضحي مُدلاً بماله * لا مَلَّ أن أضحي مُدلاً بمالك
فإن لم تصبني من يمينك نعمة * فلا تخطئهُ نعمة من شمالك
فكم لقي العافون بدءاً وعودة * نوالك والعادون غمر نكالك
وقال ابن الرومي من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد :

بلدٌ صحبت به الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيتَه * وعليه أغصان الشباب تميد
والأدباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء على اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويدكرون قول ابن الرومي من كلمة ثانية :

لا تلح من يبكي شبيبته * إلا إذا لم يبكيها بدم
عيبُ الشبيبة غول سكرتها * ومدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها * إلا أوان الشيب والهزم
كالشمس لا تبدو فضيلتها * حتى تُغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يسر به * وجدانه إلا مع العدم
والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون أنه تبع
(٦) مدامع العشاق

في وصف الوطن بشار بن برد حين يقول :

متى تعرف الدار التي بان أهلها * بسعدى فان العهد منك قريب
تذكرك الأهواء إذ أنت يافع * لديها فغناها إليك حبيب
ولعلنا لانبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا
بكاء لما انقطع بعده من دواعي الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض
العقل رزء ، وبعض الوقار بلاء ، ولسكن أكثر الناس لا يفقهون !
ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هرون الرشيد الى
خراسان فلستدعاه ليلة لينشده شيئاً من الشعر ، فأنشده هذه
الآيات :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسان
مضى الذي كنت أرجوه وآمله * أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط * سكان دجلة من سكان جيحاننا
فقال له : لقد اشتقت يا عباس ! فأجابه : نعم يا أمير المؤمنين !
فأذن له بالرجوع . . .

وقال ابن ميادة مخاطب الوليد بن يزيد :

الآليت شعري هل آيتن ليلة * بحرّة ليلي حيث ربني أهلي
بلاد بها نيّطت على تماثي * وقطّمن عني حين أدركني عجلي
فان كنت عن تلك المواطن مانعي * فأقتر على الرزق واجمع بها شمل
وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان .

وما أدري أكان شوق ابن ميادة الى بلاده رفقا بالأهل والعشيرة،
أم كان براً بمن فيها من فائنات الحدود، وساحرات العيون،
وقاسيات القلوب؟ لا يعلم ذلك الا الذي يقول:

ومن بينات الحب أن كان أهلها * أحبَّ إلى قلبي وعينيَّ من أهلي
وقال مالك بن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل:
سقى الله اليمامة من بلاد * نواجها كأرواح الغواني^(١)
وجوَّ أزاهرٍ للريح فيه * نسيم لا يروُّع التربَّ واني
به سُمِّت الشباب إلى مشيب * يقبَّح عندنا حسن الزمان
وقال بعض الاعراب في توديع نجد، ومالقي بها من نضارة
العيش، وطيب الحياة:

أقول لصاحبي والعيس تهوى * بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد * ورَّيا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحلَّ الحى نجداً * وأنت على زمانك غير زار^(٢)
شهور ينقضين وما شعرنا * بأنصافٍ لهن ولا سرار
وهذا حنين يذل له عصي الدمع . ويشبهه قول ابن المعتز في
دار كانت ملعب صباه:

لامثلَ منزلة الدويرة منزلٌ * يادارُ جادكُ وابلٌ وسقاكُ

(١) النوافج بالجيم جمع نالفة وهي الريح تبدأ بشدة (٢) غير زار: غير عاتب

بؤساً لدهرٍ غيرتك صروفه * لم يمحُ من قلبي الهوى ومحاك
لم يحلُ للعينين بعدك منظره * ذم المنازل كلهن سواك
أى المعاهد منك أندب طيبه * ممسك بالآصال أم مغدالك

أم برد ظلك ذى الغصون وذى الجنى

أم أرضك الميثاء أم رِيالك

وكأنما سُعطت مجامر عنبر * أوُفتَ فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهر * وكان ماء الورد دمع ندالك
وكأنما أيدى الربيع ضحية * نشرت ثياب الوشى فوق ربالك
وكان درعا مفرغاً من فضة * ماء الغدير جرت عليه صباك

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف .

وقد كان الشعراء يتخذون الأديار موطناً لعبث الصبا ولعب
الشباب ، ولكثير منهم حنين موجه إلى سكانها من ظرفاء
الرهبان ، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث ، ونكتفي
الآن بنفثات العشاق في التغنى بمنازل الشراب . فمن ذلك قول محمد
ابن عاصم المصرى فى دبر القصير ، وكان ملعباً للشعراء المصريين :
إن دير القصير هاج اذكارى * هوَ أيامنا الحسانِ القصارِ
وزماناً مضى حميداً سريعاً * وشباباً مثل الرداء المear
ولو ان الديار تشكو اشتياقاً * لشكت جفوتى وبعد مزارى
ولكادت تسير نحوى لما قد * كنت فيها سیرت من أشعارى

وكأنى إذ زرتَه بعد هجرٍ * لم يكن من منازلٍ وديارى
 إذ صعودى على الجيادِ إليه * والمحدارى فى المعتقات الجوارى
 بصقورٍ الى الدماءِ صوادٍ * وكلابٍ على الوحوشِ ضوارى
 منزلاً لست محصياً ما لقلبي * ولنفسى فيه من الأوطار
 كم شربنا على التصاوير فيه * بصغارٍ محشوةٍ وكبار
 صورة فى مصوّرٍ فيه ظلت * فتنة للقلوب والأبصار
 أطربتنا بغيرِ شِدوٍ فأغنت * عن مِمَاعِ العيدانِ والمِزمار
 لا وحسن العينين والشفة المِسياءِ منها وخدها الجِلنار^(١)
 لا تخلفُ عن مرادى دهرًا * هى منه ولو نأى بى مزارى
 وفى دير القصير هذا يقول كُشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه

جَنَاتِ حِلَوَانٍ إِلَى النَّخَلَاتِ

منازل كانت لى بهنٍّ مآربٍ

وكنٍّ مواخيرى ومنترهاتى

إذا جئتها كان الجياد مراكبى

ومنصرفى فى السفن منحدرات

ومن الأديار التى خلدها الشعراء « دير قنّى » بالقرب من

بغداد ، وقد أبدع فى وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى

(١) اللُمياء : السمراء : والجلنار زهر الرمان ، تشبّهه الحدود ، وهى كلمة فارسية معربة

من ملاعب الشباب ، ولم يبق غير ذكره في قول ابن جمهور :
 يا منزل اللهو بدير قُني * قلبي الى تلك الربى قد حننا
 سقياً لأيامك لما كننا * نمتار منك لذة وحسنا
 أيام لا أنعم عيشاً منّا * إذا انتشينا وصحونا عدنا
 إذا فني دن بزلنا دنّا * حتى يظن أننا جننا
 ومسعد في كل ما أردنا * يحكي لنا الغصن الرطيب اللدنا
 أحسن خلق الله إذ تحنّا * وجسّ زير عوده وغنى
 بالله يا قسيس ياباقنا ^(١) * متى رأيت الرشأ الأغنا
 متى رأيت فتتي بحجّي * آه إذا ما ماس أو تشي
 أسأت إذ أحسنت فينا الظنا !

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر
 آخر كان ملعب هواه ، كما قال السري الرفاء يمدح الموصل
 ويذم العراق :

لما الله العراق وساكنيه * فما للحر بينهم قرار
 وجاد الموصل المبيض غيث * يجود وللبرق به انسفار
 كما انهلت مدامع مستهام * تلهب منه في الاحشاء نار
 فني أيامه حسن التصابي * وفي أفيائه خلع العذار
 ليالى كان لي في كل يوم * الى الحانات حج واعمار

(١) قد يكون أصل الكلمة يا أبا قنا ثم حذفت الهمزة تخفيفاً والمراد بهسا كن دير قني

فمن ذكر القيامة بي صدود * وعن ساح المساجد بي تقار
 ولى خدان همهما المعالى * وشأنهما السكينة والوقار
 وساقٍ تضحك الدنيا اليه * اذا ضحكت بكفيه العقار
 يطوف بها وقد حملت حباباً * كما حمل السقيط الجلائر
 كأن الشرب يذهبون ناراً * لها لهب وليس لها شرار
 رأى الدهر اجتماع الشمل منا * فبدده ولدهر الخيار
 إلي هنا وقف القارىء على نماذج فى بكاء الديار الخالية ،
 والحنين إلى الوطن النائي ، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب ،
 فلندكر شكوى العشاق من المنزل القريب المأهول ، حين يصبح
 أهله كالسكواكب قربة الضوء ، بعيدة المنال ، وحين يصبح
 تمنع الحبيب أقصى من النوى ، وأمر من الفراق . وأبدع الشعر
 فى ذلك قول راشد بن إسحق السكوفى :

ومستوحش لم يمس فى دار غربة * ولكنه ممن يحب غريب
 طواه الهوى واستشعر الوصل غيره

فشطت نواه والمزار قريب
 سلام على الدار التي لا أزورها * وإن حلها شخص إلى حبيب
 وإن حجبت عن ناظرى ستورها
 هوى تحسن الدنيا به وتطيب

هوَى تضحك الذات عند حضوره

ويسخن طرف اللهو حين يغيبُ

تثني به الأعطاف حتى كأنه

إذا اهتزَّ من تحت الثياب قضيبُ

ألم ترصمتي حين يجري حديثه

وقد كنت أدعى باسمه فأجيبُ

رضيت بسعى الدهر بيني وبينه

وإن لم يكن للعين فيه نصيبُ

أحاذر إن واصلته أن ينالني * وإياه سهم للفراق مصيبُ

أرى دون من أهوى عيوناً ترينني

ولا شك أني عندهن مريبُ

أداري جليسي بالتجدد في الهوى

ولى حين أخلو زفرةً ونحيبُ

وأخبر عنه بالذي لا أحبه

فيضحك سني والفؤاد كئيبُ

مخافة أن تُغري بنا ألسن العدا * فيطعم فينا كاشح فيعيبُ

كأنَّ مجال الطرف في كل ناظر * على حركات العاشقين رقيبُ

أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى

ويصبين عقل المرء وهو لبيبُ

وكم قد أذل الحب من متمنع
فأضحى وثوب العز منه سائب
وإن خضوع النفس في طلب الهوى
لأمرٌ إذا فكرت فيه عجب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراعة القيسي أنه
كان في مجلس العتيبي مع عبد الصمد بن المزدل ، وأنهم تذاكروا
ما أبدع المولدون من الشعر الرقيق ، فقال عبد الصمد أنا في ذلك
أشعر الناس ، فقال أبو شراعة أشعر منك الذي يقول :

ومستوحش لم يمس في دار غربة
ولسكنه ممن يحب غريب

الى آخر القصيدة . وأن عبد الصمد حين سمعها لم ينطق
بحرف ! وعندى أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف
مشاعره وصفاً منظماً يصح أن يكون « صورة شعرية » بل نراه
جمع بين أشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل . ألا تراه يذكر
في أول القصيدة أنه قريب ، ولكنه في قربه غريب ، لأن انساناً
غيره يتمتع بذلك الحبيب ؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر
الوصل طائعاً لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق ؟ وهذا
بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة ، لأن الذي يتصور أن

محبوبه قد يطوّق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته
اتقاءً لعيون الوشاة !!

ينقص هذه القصيدة إذن ما أسميه « الصورة الشعرية »
ولا يمنع هذا أن تكون في جملة جميلة لما تحويه من الأبيات
الختارة . ولئن صح أن العتي صادق على أن صاحبها أشعر الناس
فانا نشك في أذواق الأدباء الأقدمين ورتاب في حاستهم الفنية .
وأحب أن يفهم بعض الناس معنى « الحاسة الفنية » فان كثيراً
من أدعياء الأدب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون ، فضلاً عن
أن يفقهوا ما تنثر على بساط الدهر من ثمرات العقول :

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يُسمع أو يرى أو يلمس أو
يشم أو يذاق ، ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا
الادراك !! ومحال أن يجدوا طعماً لقول الشاعر :

أسمع في قلبي ديب المنى * وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أن تكون الخواطر ، وأين تكون القلوب !!
من أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين
يقرأ آثار الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد في اختياره على
الأذواق العامة لعلماء البيان ، فقد غفل الدهر عن كثير من
المتصدرين فظنوا أنهم على شيء ، وأن الأدب لحياتهم مدين !!

وقد يمر العاشق ببیت من یهوی ثم لا یملك التحية ، لأن
الوشاقله بالمرصاد . فمن ذلك قول السرى الرفاء :

مررنا بالعقيق فكم عقيق * تفرق فی محاجرنا فذا
ومن منغى جعلنا الشوق فيه * سؤالا والدموع له جوابا
وفى الكيل التى غابت شمس * اذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لمن أعباء التصابي * ولم أحمل من السلوان عابا
ولو بعدت قبالك قاب قوس * من الواشين حيت القبابا
الى هنا عرف القارىء ألوان العواطف عند منازل الأحياء ،
فقد رأى نفثات المحبين عند الديار الخالية وشهد بكاءهم على الوطن
النأى ، وحنينهم الى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفرائهم عند
المنزل يدنو وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الظباء . ويجمع شتيت
هذه المعانى قول بعض الأعراب :

بكلّ تداوينا فلم يُشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع
اذا كان من تهواه ليس بنى عهد

وربما عدنا الى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث
عن آراء الشعراء فى أفنان الجمال .

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان : فهو يخشى أن تفضحه
الدموع ! وأشهر الشعراء في إخفاء الحب العباس بن الأحنف ،
وسنيسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان . ونكتفي
الآن بشعره عن قهره بالدموع : وقد رأيت يتوجع حيناً من
عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ، فيقول :

هبوني أغضُّ إذا ما بدت * وأملك طرفي فلا أنظرُ
فكيف استتاري إذا ما الدموع * ع نطقن فبحن بما أضمرُ
أمتي تخاف انتشار الحديث * وحظي في صونه أوفرُ
ولولم يكن في بقيا عليك * نظرت لنفسي كما تمظرُ
ويغضب حيناً على دمع عينيه فيقول :

لاجزى الله دمع عيني خيراً * وجزى الله كل خير لسانی
نمّ دمعی فلیس یکتّم شیئاً * ورأيت اللسان ذا کتمان
کنتم مثل الکتاب أخفاه طي * فاستدلّوا علیه بالعنوان

ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمى قلبه بالعداوة ، فيقول :
قلبي الى ماضرتني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي

ومن الشعراء من يبأس من كتم الهوى حين تهمر الدموع
كما يقول البحتري :

علاقة حب كنت أكتُم بها * إلى أن أذاعتها الدموع الهوامعُ

إذا العين راحت وهي عينٌ على الجوى

فليس بسرٍ ما تُسر الأضالعُ

وقد أفصح الأَرَجاني عن غاية ذلك : وهي نصر الوشاة ،

بقوله :

ولى نفسٌ إذا ما امتدَّ شوقاً * أطار القلب من حرق شظايا

ودمعٌ ينصر الواشين ظلاماً * ويُظهر من سرائرِ الخبايا

وأكرم من هؤلاء جميعاً الشريف الرضى حين يقول :

أيسمح جفنى بالدموع وأغتدى * ضنيناً بها أنى إذن للثيمُ

ولو بخلتُ عيني أذن لعتبتها * فكيف ودمع الناظرين كريم

وقد نظر أبو نواس الى قول بشَّار بن بُرد :

يُروِّعهُ السرار بكل شيء * مخافة أن يكونَ به السرارُ

ثم حاكه بهذه الأبيات في نيمية الدمع :

قد تسترتُ بالسكوت وبالإطراقُ جهدي فنمتِ العينانِ

تركنتى الدموعُ نصبَ المشيرينَ وأحدثتُ بكل مكانٍ

ما أرى خالين للسر إلا * قلت ما يخلوان إلا بشائى

وهي صورة شعرية ، تمثل العاشق المروِّع أصدق تمثيل

ومن المحبين من تم عليه دموعه الغزار ، وأنفاسه الحرار ،
كالبحترى حين يقول :

إن الخطوب طَوَّيْنِي ونَشَرْنِي

عَبَثَ الوليد بجانب القرطاس

ماشبتُ من طولِ السنين وإِنَّمَا * طول الملامَةِ فيكَ شَيْبَ راسِي
نَمَّتْ على ما في ضميري أَدْمَعِي * وتَتَابَعُ الصُّعْدَاءُ من أنفاسِي

ومن رائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مِهْيَار :

طَرَحْتُ بِجَمْعِ نَظْرَةٍ سَاءَ كَسِبَهَا

وَتَبَعْتُ شَرًّا لِلْعَيُونِ الْمَطَارِحُ

فَإِنْ سَتَرْتُ تِلْكَ الثَّلَاثُ عَلَى مَنِي

هَوَايَ فَيَوْمَ النَّفْرِ لَأَشْكُ فَاِسْمَحْ

بِكَيْتٍ وَلَامِ الْعَاذِلَاتِ فَلِمَ تَفْضُ

عَلَى رُقِيَةِ الْعَذْلِ الدَّمُوعُ السَّوَافِحُ

وأحب أن يتأمل القارئ قوله « نظرت بجمع نظرة ساء

كسبها » ليعرف كيف يسوء كسب العيون ، حين تجنى على القلوب

سلطان الحب

سألنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي ^(١) عن الحب :
 اختياري هو أم اضطراري ؟ وهل الحب مضطر أم مختار ؟ وقد
 اختلف الناس من قبل في هذه المسألة ، وأوضحها ابن أبي حجلة
 في كتاب « ديوان الصبابة » وأنا نقل هنا نبذة من ذلك الكتاب
 الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري ، لانه
 يمثل لنا رأى علماء ذلك العصر في مثل هذه الشؤون . قال ابن أبي
 حجلة في سداجة غريبة ما نصه :

« هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره ، وأسفر كالصبح أمره .
 إذ للناس فيه كلام من الطرفين ، وتبخر من الصفيين . فقائل بأنه
 اضطراري ، وقائل بأنه اختياري . ولكل من القولين وجهٌ مليح ،
 وقد رجح ، ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع ، ونتكلم في
 طوله وعرضه بالباع والذراع (١١) فن ذلك ما قاله القاضي أبو
 عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل
 حال ، مغفور لهم في جميع الأقوال والأفعال ، إذالعشق إنما دعائم
 على غير اختيار ، بل أعتراهم على جبر واضطرار . والمرء إنما يلام
 على ما يستطيع من الأمور ، لافي المقضى عليه والمقدور . وقد جاء
 في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الحامل كانت ترى

(١) هو اليوم الدكتور محمد غلاب

يوسف عليه السلام فتضع حملها . فكيف تراها وضعته ؟ أباختيار
منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا . بل باضطرار ، وفقد اقتدار .
وهذا مما لا يشك فيه ذؤلب ، ولا يختلج خلافه في قلب »

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال : لو رزقني الله دعوة
مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرابية .
ونقل عن أبي محمد بن حزم أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أmeer
المؤمنين إني رأيت امرأة فعشقتها . فقال عمر : ذلك مما لا يملك .
قال « وما أحسن قول بعض بني عُذرة وقد قال له بعض العرب :
ما لا أحدكم يموت عشقا في هوى امرأة يألها ؟ إنما ذلك ضعف
نفس ، ورقة ، وخَوَرٌ ، تجدونه فيكم يا بني عُذرة . فقال : أما والله
لو رأيتم الحواجب الزُّجج ، فوق النواظر الدُّعج ، تحتها المباسم
الفُجج ، لا تأخذتموها اللات والعزى ! »

ثم قال بعد كلام طويل « إن العشق يختلف باختلاف بني آدم
وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ،
وقساوة القلب ، ونفور الطباع ، وغير ذلك . فمنهم من إذا رأى
الصورة الحسنه مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش . ومنهم
من إذا رأى المليح سقط من قامته ، ولم يعرف نعله من عمامته »
- العاقبة عندهم يا شيخ محمد ! - ثم قال « فهذا وأمثاله عشقه اضطرابي
والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس »

والذى أراه أن الحب مضطر غير مختار ، وماذ كرت هذه
التفاصيل الا ترويحاً للنفس . أما الشعر في سلطان الحب فكثير .
فمن الشعراء من يجعله سحراً ، كالطغرائى حين يقول :

إن لم يكن سحراً هواءك فانه * والسحر قدأ من أديم واحد
مازلت أزهد في مودة راغب * حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرفه * لم يسع فيه وخاب سعى الجاهد
هذا هو الداء الذى ضاقت به * حيل الطيب وطال يأس العائد
ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد ، كقول مهيبار :
وعنفى سعد على فرط ما أرى * فقلت أتعنيف ولم تك مسعدى
وما ذاك إلا أن عجلت بنظرة * قتلت بها نفسى ولم أتعمد
ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كاقضاء المحتوم
لامرد له . كقول المتنبي :

أيدرى الربع أى دم أراقا * وأى قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبداً قلوب * تلاقى فى جسوم ماتلاقى
فليت هوى الأحبة كان عدلاً * فحمل كل قلب ما أطاقا
ومنهم من يجعله قضاءً من الله . كقول عمرو بن ربيعة الرقاشى :
تضيق جفون العين عن عبراتها * فتسفعها بعد التجدد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرقت * حزازة حر فى الجوانح والصدر
ألا ليقل من شاء ما شاء إنما * يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

قضى الله حب المالكية فاصطبر * عليه فقد تجرى الأمور على قدر
ويدخل في هذا الباب خلود الحب . فن الشعراء من يجعل

سببه خلود المحاسن في الحبيب ، كقول ابن الرومي :
هل الملالة إلا منقضى وطر * من مئمة يطبي من غيرها وطر
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له
فأين يرغب عنك السمع والبصر

وكما قال ابن عنين :

خبروها بأنه ما تصدى * لسأ عنها ولو مات صدأ
واسألوها في زورة من خيال * إن تكن لم تجد من الهجر بدا
ظبية تحجل الغزالة وجهاً * وبهاء وتفضح الغصن قدأ
وكما قال أبو الأسود الدؤلى :

أبى القلب إلا أم عمرو وحبها * عجوزاً ومن يحجب عجوزاً يفند
كبرد اليماني قد تقادم عهده * ورقعته ماشئت في العين واليد
وهو رأى منتقد : فكل زهر الى ذبول ، وكل جمر الى
نمود ، وكل حسن الى فناء ، ولا خلود للحب اذا كان داعيه الحسن
الفانى ، والجمال الزائل

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه ،

كقول صردر :

ولقد عرضت على السلو جوانحى الـحـرى فلم يرهـنـ دار مقام

كيف السلو وليس يسلك مسمعى * إلا حنين أو بكاء حمام
وكما قال ابن الزيات :

لم يزدنى العذل إلا ولعاً * ضرني أكثر مما نفعا
ذهبت بالقلب عين نظرت * ليها كانت وإياه معا
كل يوم لى منها آفة * تركتني للهوى متبعها
وكما قال ابن التعاويذى :

يلوم عليك خال من غرامى * رويدك أين سمعى والملام ؟
سلو مثل عطفك لا يرجى * وصبر مثل وصلك لا يرام
فكيف أطيع عذالى وعندى * هموم قد سهرت لها وناموا ؟
وهذا أيضاً منتقداً ، فان أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب
إذا نفدت دواعيه !!

ومنهم من يجعل السبب فى خلود الحب تغلغل الوجد فى
الأحشاء . كما قال الأبيوردى :

أرى كل حب غير حبك زائلاً * وكل فؤاد غير قلبى ساليا
إذا استخبر الواشون عما أسرهُ * حمدت سلوى أودممت التصايبا
أيزهل قلب أنت سر ضميره * فلا كان يوماً عنك ياعلوا ساليا
وكما قال الغزى :

يا خليلي لو ملكت فؤادى * جاز أن يملك الصواب عنانى
ظالمى من أراد إنصاف نفسه * من هواها وأمرى من نهانى

قد تورطت في تعسف شوقي * حيث لا يعرف السلو مكانى
وكما قال الطغرأى :

خليلى هل من مسعدٍ أو معالجٍ * فؤاداً به داء من الحب ناكسٌ
وهل ترجوان البرء مما أكنه * فانى وبیت الله منه لا يسُ
هوَى لا يُدیل القرب منه ولا النوى

ولا هو من طول التقادم دارسٌ
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه

ولا تهتدى يوماً اليه الهواجسُ
إذا قلت هذا يوم أسلو تراجمتُ

عقاييل من أسقامه ووساوس

وأرجو أن لا يغفل القارئ عما فى هذا الشعر من فنون الجمال
وهناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتةً للطبع ،
ونزولاً عند حكم الخليفة ، وهو أجمل المذاهب . ومنه قول
ابن التعاويذى :

من بات ذا قلب سليمٍ من جوَى فأننا السليمُ (١)

مالى إذا رمت السلو * تلوّم القلب المليم (٢)

وإذا كتمت الحب با * حَ بسرهِ دمعٌ نغومُ

عينى وقلبي فى الهوى * عونٌ على فن ألومُ ؟

(١) السليم هو الملدوغ (٢) المليم : الجانى

وأظهر منه قول المتنبي :

إلامَ طماعيةُ العاذلِ * ولا رأى في الحب للعاقلِ
يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقلِ
وهبت السلوَّ لمن لا مَنى * وبت من الشوق في شاغلِ

ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهب إليه في هذا
الحديث . ولكنى أرى الحب الصادق حليف الخلود . وقد
أوضحت هذه المسألة في كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره »
فليرجع إليه من شاء



غرام النساء بالنساء

سألتني حضرة محمد شبيب عبد الناصر بدويوط « عما قالته
الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شيء
من ذلك » بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المسزكلين
بالمسزريب ، وما جنت يداهما في سبيل هذا الحب الغريب !!
وأسف كثيراً أيها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في
هذا الكتاب : فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل
الوقار ، ويكفي أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب
الأدب جاءت فيه هذه العبارة « هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال ! »
وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع !! وقد جاء
في كلام رسول الله النهي عن « السحاق » كما جاء في القرآن النهي
عن الزنا !! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول !!
والمطلع على آداب الفرنسيين يجد في اعترافات النساء عجائب
وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين !! والآداب العربية مملوءة
بأمثال هذه الأعاجيب . والناس هم الناس في كل قطر وفي كل
جيل ، فلا تصدق ما تسمع من أن الاسراف في المجانة بدعة
ابتدعها نساء برلين !! وعندى أن آفة المصالحين في الشرق هي
جهاهم بدقائق الحياة الانسانية ، وإغفالهم الركن الأساسي

للاصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء وإقدام كثير
منهم على الأمر بما لا ياتمر به والنهي عما لا ينتهي عنه ، ومن
البلية أن يكون المصلحون منافقين !!

ألم نصف الآداب العربية بالاسراف في وصف النساء ؟
لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ، ولكنها في رأي من
الحسنات ، إذ كان الواجب على كل مصلح أن يقوِّ ما بين الرجل
والمرأة من الميول الطبيعية ، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة ،
وحب الرجال للغلمان !!

اقرأوا هذا وتأملوه قبل أن تصدّ عوا رءوسنا بالدعوة الى
الفضيلة من حيث لا تعلمون !!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء « مدامع العشاق » إلى أن شعر
النساء في الحب قليل : فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق
المرأة ، وكان الرجل منهم يذوب خجلاً إذا قالت إحدى قريباته
بيتاً واحداً في غلام جميل ، وقد ثار طويس المغنى لنفسه من عبد
الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته فارعة بنت ثابت
في عبد الرحمن بن الحارث المخزومي

ياخيلى نابى سُهْدَى * لم تم عيني ولم تكـ
فشرابى ما أسيغ وما * أشتكى ما بى إلى أحد

كيف تلحوني على رجلٍ * أنسٍ تلتذُّه كبدى
 مثل ضوء البدر طلعتُهُ * ليس بالزُّميلة النكيدِ
 نظرت عيني فلا نظرت * بعده عيني إلى أحدٍ
 وحديث عليّة بنت المهدي معروف ، فقد حرّم عليها
 أخوها هارون الرشيد أن تشبّب بعلامها طلّ ، فكان من نتيجة
 ذلك أن تشببت بجارتها زينب وقالت فيها :
 وجد الفؤاد بزينا * وجداً شديداً مُتعباً
 وهو شعر سخيف ، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان
 مما تسيغه النفوس في ذلك العهد . وليس معنى ذلك أننا ننكر أن
 زينب هنا كناية عن طلّ ، ولكن معناه أن تشبيب عليّة بزينا
 كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم نر في الكتب
 الأدبية من أنكر على عليّة هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على
 نساء الألمان ! ! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في « قبيحة »
 جارية المتوكل :

سلافة كالقمر الباهر
 في قدح كالكوكب الزاهر
 يديرها خشفٌ كبدر الدجى
 فوق قضيب أهيفٍ ناضر^(١)

(١) الخشف بثلاث الخاء ولد الفظية

ولامرية في أن العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من
التشبيب ، ولهم في ذلك عذر مقبول ، فان الغيرة لم توجد ، ولن
توجد ، في مثل النفوس العربية ، والعرب بطبيعتهم عمالقة
يكرهون الشريك ، أو شبه الشريك ، ويأبون أن يسمعوا حديث
المرأة عن هواها المشبوب ، بل يغارون من تحدث الرجل عن
هواه ، حتى ليقول شاعرهم

لم ألق ذا شجنٍ يبوح بحبه

إلا حسبتك ذلك المحبوا

حذراً عليك وإنتى بك واثق

أن لا ينال سوى منك نصيبا

واذا عزّ على المرأة أن تقول شعراً في الرجل ، فانه يعزّ
عليها من باب أولى أن تقول شعراً في أختها المرأة ، فضلا عن بعد
ذلك من الحاجة الطبيعية ، فان « هذه الشهوة » تعدّ فضولاً في
باب الشهوات !!

والحق أننا حرّ منا خيراً كثيراً حين حرّ منا شعر النساء ،

انظر الى قول (فضل) في حبيب حرّمها طيب الرقاد :

إنّ من يملك رِقً * مالك رِقّ الرقابِ

لم يكن يا أحسن العا * لم هذا في حسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية :

كن لى شفيعاً اليـكا * إن خفَّ ذاك عليك
وأعفى من سؤالى * سواك مافى يديكا
يامن أعزُّ وأهوى * مالى أهون لديكا

إننا نشتهى أن تتكلم المرأة ! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب
الجميل ! ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق ، وأن حديثها فجور ،
فياليت شعرى متى يفقهون !

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تُودى برشده حين
تحرمه اليقظة من الاستمتاع بالطيف ، كالذي يقول :
وزارني طيف من أهوى على حذرٍ
من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحاً
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتهت وآمالى تكذبني
نيل النى فاستحالت غبطتى أسفا
ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف والسبب في
زيارة الخيال ، كقول أبي تمام .
زار الخيال لهالاً بل أزاركه

فكرٌ إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنصته لما نصبت له * وفي آخر الليل أشرا كما من الحلم
وقوله من كلمة ثانية :

استزارته فكرتى في المنام * فأتانا في خفية واكتنام
يا لها ليلة تنزهت الأر * واح فيها سرا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب * غيراً نأفى دعوة الأحلام

وكتقول عبد الصمد بن المعذل :

وَصَلَ النُّومَ بَيْنَنَا بَعْدَ هَجْرٍ * فَاجْتَمَعْنَا وَنَحْنُ مُفْتَرِقَانِ
غَيْرَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ خَافَتْ رَقِيبًا * فَطَوَتْ سِرَهَا عَنِ الْأَبْدَانِ
مَنْظَرٌ كَانَ لَذَّةَ الْقَلْبِ إِلَّا * أَنَّهُ مَنْظَرٌ بَغِيرِ عِيَانِ
فَالْعَلَّةُ عِنْدَ أَبِي تَمَامٍ فِي طُرُوقِ الْخِيَالِ إِنَّمَا هِيَ احْتِيَالُ فِكْرِهِ
وَنَصْبِهِ أَشْرَاكَ مِنَ الْحُلْمِ . والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل
هو النوم ، مع إبداعه في طيِّ الأرواح سرها عن الأبدان ، خوفاً
من الرقباء ؟ !

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف :
وهي أن الحبيب سطع نوره وعم ، حتى شمل النائمين ، وتجلي
لأعينهم ، على بعدهم منه ، ونأيهم عنه . وله في هذه الفكرة
البديعة هاته الأبيات الحسان :

يَا حَبِيبًا طَيْفَكَ مِنْ قَادِمٍ * يَا أَحْسَنَ الْعَالَمِ فِي الْعَالَمِ
طَيْفٌ تَجَلَّى نُورُهُ سَاطِعًا * حَتَّى رَأَتْهُ مَقَالَةَ النَّاسِمِ
يَا غَائِبًا يَحْكُمُ فِي مَهْجَتِي * عَلَى طَالَتْ غَيْبَةُ الْحَاكِمِ
عَارٌّ عَلَى حَسَنِكَ أَنْ يَشْتَكِيَ * حَظٌّ مِنْهُ أَنَّهُ ظَالِمِي

والبحتري على شهرته بالخيال ، لم يكن ممن يُعْنَوْنَ بِذِكْرِ
السبب في قدومه ، والعلة في طروقه ، وإنما يحمّد في وصف انعطافه ،
وانصرافه ، كقوله :

سقى الغيثُ أجراً عهدتُ بجوِّها
غزالاً تراعيهِ الجاذرُ أغيداً
إذا ما الكرى أهدى إلى خياله
شفي قربه التبريحُ أو تقع الصدى
إذا انتزعتهُ من يديَّ انتباهةً
عددتُ حبيباً راح مني أو غدا
فلم أرَ مثليتنا ولا مثل شأتنا
نُعذَّبُ أيقاظاً وننعمُ هُجداً

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله :

ألمتُ بنا بعد الهدوء فساحت * بوصل متى نطلبه في الجدِّ تمنع
وولتْ كأنَّ البين يخرج شخصها * أو أن تولتْ من حشاي وأضلعي
وهو غاية في الابانة عن اللهفة ، والافصاح عن الحسرة !!
ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول
بشار :

ولقد تعرّض لي خيالكُم * في القرط والخال والقلبِ
فشربت غير مباشر حرجاً * برضاب أشنب باردٍ عذبِ
وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى :

بتنا يتناولنا المدام بكفه
من ليس يخطر أن نراه بباله

تُجَنِّي الكواكب من قلائد جيدهِ
وَتُنَالُ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خَلْعِ خَالِهِ

وَقَدْ نَصَّ الْبَحْتَرَى عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ النِّعَمِ الْمُبَاحِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا نَلْتَقَى إِلَّا عَلَى حُلْمٍ هَاجِدٍ
يُحِلُّ لَنَا جَدُّوَاكَ وَهِيَ حَرَامٌ
إِذَا مَا تَبَادَلْنَا النِّفَائِسَ خَلَّتْنَا

مِنْ الْجَدِّ أَيْقَظًا وَنَحْنُ نِيَامُ

وَأَلَّمَ بِهِ فِي قَوْلِهِ :

بِنَفْسِي خِيَالًا مِنْ أَثِيلَةٍ كَلِمَا
تَأَوَّهْتُ مِنْ وَجْدِي تَعَرَّضُ يُطْمَعُ

تَرَى مَقَاتِي مَا لَا تَرَى مِنْ لِقَائِهِ
وَتَسْمَعُ أُذُنِي رَجْعَ مَا لَيْسَ تَسْمَعُ

خيال البحترى

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اشتهر
البحترى بالخيال حتى قالوا (خيال البحترى) وضربوا به الأمثال .
وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع الى ترديده لزيارة الطيف
فى غير ضعف ولا فضول : فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضمن
المحبوب ، والقرب وقد شطت ديار الحبايب ، ليعث الهوى من
جديد ، كقوله :

وقفنا فلا الأطلالُ ردتْ إجابةً

ولا العذلُ أجدى فى المشوق المخاطب

تمادت عقايلُ الهوى وتطاولت

لجاجةً معسوبٍ عليه وعاب

إذا قلتُ قضيتُ الصبابة ردها

خيالٌ ملمٌ من حبيبٍ بجانب

يجود وقد ضمن الألى شفى به

ويدنو وقد شطت ديار الحبايب

وتارة يذكر أن الطيف ألم به فى الظلام فلم يجد مكاناً يأوى

إليه ، لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله :

تلك البخيلة ما وصلى بمنصرفٍ

عنها ولا صدّها عني بمصدودٍ

ألمَ بي طيفها وَهنا فَأَعوزهُ

عندى وجود كرى بالدمع مطرود
وأحب لو تأمل القارىء وصفه لحبيته بالبخل ، وعفا الله عن
هؤلاء البغلاء ، ومما امتاز به البحترى شكواه هجر الخيال ، وقد
أكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة
عجيبة : فقد ذكروا أنه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه اليه فيشتريه ،
حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال ، وقد أوضح شكواه
هجر الخيال في هذه الأبيات الحسان :

أنسيمُ هل للدهر وعدُّ صادق

فيما يؤمِّلهُ الحبُّ الوامقُ

مالى فقدتك فى المنام ولم يزل

عونَ المشوق إذا جفاهُ الشائقُ

أُمنيتَ أنت من الزيارة رِقبةً

منهم فهل منعُ الخيالُ الطارقُ

اليوم جازَ بي الهوى مقدارهُ

فى أهله وعلمت أنى عاشقُ

ثم ردَّ هذا المعنى فى داليتَه الجميلة ، التى يقول فيها :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصدِ

أظنُّ نسيما قارف الهجرَ من بعدى

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه
 فيا عجباً للدهر فقداً على فقد
 بنفسى حبيب^ه نقلوه عن اسمه
 فبات غريباً فى رجاء وفى سعد
 فيا حائلاً عن ذلك الاسم لا تحل
 وإن جهد الأعداء عن ذلك العهد
 أبا الفضل فى تسع وتسعين نعمة
 غنى لك عن ظبى بساحتنا فرد
 أتأخذهُ منى وقد أخذ الجوى
 مأخذهُ مما أسر وما أبدى
 ونخطو اليه صبورى وصباتى
 ولم يخطه بئى ولم يعده وجدى

ونحب أن لا يتعقبنا حضرة (البدوى المثلث) فيطالبننا بتحقيق
 بيع البحتري لغلامه نسيم ، ليعرف أكان ذلك عن حاجة أم كان
 طمعاً فى المال ، فقد تردّد فى ذلك المؤرخون !! أليس هو الذى لمح
 إلينا حين ذكرنا أن عليّة بنت المهدي كنت عن طل
 بزئيب ، ولقت نظرنا الى أنها انما كنت بزئيب عن رشا ؟ رويدك
 أيها الصديق ، فليس فى هذه المجاهل يقين ، وحسبك أن تعلم أن
 ذلك سر من أسرار القصور ، وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث « شربوا نخب مصر » وشربوا نخب فرنسا « كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول عليّة في غلامها رشاً :

اشربْ على وجه الغزال * الأُهيفَ الحلو الدَّلَالُ
اشربْ عليه وقلْ له * يا غُلُّ أَلْبَابِ الرجالِ
وانظر قول اسحق في غلامه زياد :

أدْرِها على بُعد الحبيب فربما * شربنا على بُعد الأُحبة والفجع
فما بلغتني الكأس إلا شربها
وإلا سقيت الأرض كأساً من الدمع

وقال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مُدَمَّةً

سكرونا بها من قبل أن يخلق الكرمُ

فأى التعبيرين أجمل ؟ أقولُ العرب : شربت على وجهه ، وعلى

بعده ، وعلى ذكره ؟ أم قولنا شربت نخبه ؟ أجيبوا أيها المتكلفون !!

ونعود فنذكر تشبث البحترى بالطيف عند الصباح في

قوله :

وليلةً هوَّ منا على العيس أرسلتْ

بطيف خيالٍ يشبه الحق باطلهُ

فلولا بياضُ الصبح طال تشبثي * بعطفي غزال بتُّ وهناً أغازلهُ

وكم من يدٍ لليلِ عندى حميدة * وللصبح من خطبٍ تدمغواؤه
أتذكر أيها القارئ أن لسانك انعقد ، وقد رأيت دُمية
من دُمى الجمال ، فلم تزد على أن قلت : هذه فتاة حسناء ؟ الأمر
هنا كذلك ، فاعذرنى إن لم أزد على أن أقول : هذا شعر جميل !
ويظرفُ البحترى كثيراً حين يجهل هجر الطيف نوعاً من
العتاب . انظر قوله :

تناءت دارُ علوةٍ بعد قرب * فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وجددَ طيفها عتباً علينا * فما يعتادُنا إلا لِماما
وربتَ ليلةٍ قد بتُ أسقى * بعينها وكفيها المداما
قطعنا الليلَ لثماً واعتناقاً * وأفنيناهُ ضمًا والتزاما
وقد تعجب لتشبيهه الزائر النحيل بالطيف الطروق . انظر
قوله :

وزورُ أتاني طارقاً فحسبته * خيالا أتى من آخر الليل يطرقُ
أقسم فيه الظنَّ طوراً مكذَّباً * به أنه حقٌّ وطوراً أصدقُ
أخافُ وأرجو بطل ظنى وصدقه * فله ظنى حين أرجو وأفرقُ
وقد ضمنا وشك التلاقى ولقنا * عناقُ على اعتاقنا ثم ضيقُ
فلم نَرَ إلا مخبراً عن صباية * بشكوى وإلا عبرة تترقبُ
فأحسن بنا والدمع بالدمع واشجع
تمازجهُ واخذ بالخذ ملصقُ

ومن قُبُلٍ قَبِيلٍ قَبْلَ التَّشَاكِ وَبَعْدَهُ

نَكَادُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ نَشْرَقُ

فَلَوْ فَهَمَ النَّاسُ التَّلَاقِيَّ وَحَسَنَهُ * لَحَبِيبٍ مِنْ أَجْلِ التَّلَاقِيَّ التَّفَرُّقِ

وَقَدْ يَأْسَى الْبَحْتَرَى وَيَشْجَى حِينَ لَا تَبْقَى لَهُ الْيَالَى غَيْرَ الذِّكْرِ

وَالْخِيَالِ ، تَأْمَلْ قَوْلَهُ :

حَبِيبٌ نَأَى إِلَّا تَعَرَّضَ ذِكْرُهُ

لَهُ أَوْ مَلِمٌ طَائِفٌ مِنْ خِيَالِهِ

أَأُمنَعُ فِي هَجْرَانِهِ مِنْ صِبَابَةٍ

وَقَدْ كُنْتُ صَبِيحًا مَغْرَمًا فِي وَصَالِهِ

وَيَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ مِنْ لَيْسَ وَجْدُهُ

كُوْجْدِي وَلَا إِعْلَانِ حَالِي كَحَالِهِ

فَإِنْ أَفْقَدَ الْعَيْشَ الَّذِي فَاتَ بِاللَّوَى

فَقَدِمًا فَقَدْتُ الظِّلَّ عِنْدَ انْتِقَالِهِ

وَلَقَدْ أَذْكَرْتُنِي قَرَأْتُ مِنْ دَسَنِينَ رَوَايَةَ (رَافَائِيلَ) وَهِيَ بَدْعَةٌ

فِي الْآدَابِ الْفَرَنْسَوِيَّةِ فَأَقْسَمْتُ لَا زُورَنَّ إِنِ اسْتَطَعْتُ قَبْرَ

لَا مَارْتِينَ . وَالْيَوْمَ أَقْسَمُ إِنِ اسْتَطَعْتُ لَا زُورَنَّ قَبْرَ الْبَحْتَرَى !

أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ فِي طَيْفِ الْخِيَالِ ؟ :

أَتَرَى حَبِي لَسَعْدَى قَاتِلِي * وَإِذَا مَا أَفْرَطَ الْحُبُّ قَتَلَ

خَطَرْتُ فِي النَّوْمِ مِنْهَا خَطَرَةً * خَطَرَةَ الْبَدْرِ بِدَاثِمِ الْأَضْمَحَلِّ

أَيَّ زَوْجٍ لَوْ قَصِدًا أُسْرَى * وَمَلِمَ مِنْكَ لَوْ حَقًّا فَعَل
يُتْرَاعَى وَالْكَرَى فِي مَقَلَّتِي * فَاذَا فَارَقَهَا النُّومُ بَطَلَ
وَلَتَقَى الدِّينَ السُّرُوحِي قَصِيدَةً بَدِيعَةً خَتَمَهَا بَيْتَيْنِ فِي الْخِيَالِ ،
وَقَدْ زَارَهُ فَمَا حَقَّقَهُ لِفَرْطِ سُرُورِهِ بِهِ ، ثُمَّ وَلَّى عَنْهُ فَمَا دَرَى كَيْفَ
يُدْرِكُهُ ، وَلَا عَرَفَ كَيْفَ يَلْبِغُهُ . قَالَ :

أَنْعَمُ بِوَصْلِكَ لِي فِيهِذَا وَقْتُهُ * يَكْفِي مِنْ الْمَهْجَرَانِ مَا قَدْ ذُقْتُهُ
أَنْفَقْتُ عَمْرِي فِي هَوَاكَ وَلَيْتَنِي
أَعْطَى وَصُولًا بِالَّذِي أَنْفَقْتُهُ
يَا مَنْ شَغَلْتُ بِحُبِّهِ عَنْ غَيْرِهِ
وَسَاوَتْ كُلَّ النَّاسِ حِينَ عَشَقْتُهُ
كَمْ جَالَ فِي مِيدَانِ حُبِّكَ فَارِسٌ
بِالْصَّدَقِ فَيْكَ إِلَى رِضَاكَ سَبَقْتُهُ
أَنْتَ الَّذِي جَمَعَ الْحَاسِنَ وَجْهَهُ
لَكِنْ عَلَيْهِ تَصْبِرِي فِرْقَتُهُ
قَالَ الْوَشَاءُ قَدْ ادَّعَى بِكَ نَسَبَةً
فَسَرَرْتُ لِمَا قُلْتَ قَدْ صَدَقْتُهُ
بِأَلَلِهِ إِنْ سَأَلُوكَ عَنِّي قُلْ لَهُمْ
عَبْدِي وَمَلِكُ يَدِي وَمَا أَعْتَقْتُهُ

أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم
أدرى بذا وأنا الذى شوقتهُ
يا حسن طيف من خيالك زارنى
من فرحتى بقلبك ماحقتهُ

فضى وفى قلبى عليه حسرة * لو كان يمكنى الرقاد لحقتهُ
والشعراء يشكون غالباً ألا يمكث الطيف طويلاً . وقد شد
الطغرائى فذكر أن محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده ، وطول مكثه
لديه . وذلك قوله :

بعثت إلى تلومنى فى هجمة * أهدت إلى خيالها المذعورا
وتقول ما للطيف أبطأ بعد ما * كنا اشترطنا أن يقيم يسيراً
فأجبتها بالعذر وهو مبين * لو كان يُنصف لأتم معذورا
أطبقت أجفانى عليه وسُمتهُ

خوض الدموع فما استطاع عبورا
وهذا الخيال على طرفته منتقد . فان الطيف لا يدخل العين
حتى يضطر إلى عبور الدمع ، وهدى الله قوماً يحسبون هذا
الشعر من وثبات الخيال !

قالوا وأول من طرد الطيف طرفة بن العبد فى قوله :
فقل لخيال العاصرية ينقلب
إليها فإنى واصل حبل من وصل

وتبعه جرير فقال :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا

وَقْتُ الزِّيَارَةِ فَارْجِعْ بِسَلَامٍ

وهذا حدس وتخمين ، فانه ليس الى توقيت النوازع القلبية

من سبيل

ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هاني

الأندلسي :

أَلَا طَرَقْتَنَا وَالنَّجُومُ رَكَوْذُ * وَفِي الْحَيَّ أَيقَاطٌ وَنَحْنُ هُجُودُ

وقد أعجل الفجر الملمع خطوها * وفي أخريات الليل منه عمود

سرت عاطلاً غضبي من الدر وحده

فلم يدر نحرٌ ما دهاهُ وجيد

فما برحتُ إلّا ومن سلك أدمعى * قلائد في لباتها وعقود

ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا * وأنا بلبينا والزمان جديد

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله

لزيرة الخيال . انظر قول علي الأيادي :

أما إنه لولا الخيال المراجع

وعاص يري في النوم وهو مطاوع

لأشفق واستحيا من النوم واله

يُرى بعد روغات النوى وهو هاجع

وأود لو تأمل القارئ قوله : (وعاص برى في النوم وهو
مطأوع) فطالما قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون !!
وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله :
واني لأستغشى وما بي نعسة * لعلّ خيالاً منك يلقى خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعاني
أحدثت عنك النفس في السر خاليا
تقطع أنفاسي بذكرك أنفساً * يرذن فما يرجعن إلا صواديا
وأوضح منه قول قيس بن ذريح
واني لأهوى النوم في غير نعسة
لعل لقاء في المنام يكون
تخبرني الأحلام أني أراكم * فياليت أحلام المنام يقين
والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوى بين العشاق جميعاً . فهي
عند بعضهم لوعة وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة
تقضى بها الضرورة حين يقول :
وماذا يفيدك طيف الخيا * ل والهجر حظك ممن تحب
غناء قليل * ولكنتي * تمنيته بقنوع الحب
ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال ، كأن يزوره الطيف
وهو سجين

كقول جعفر بن عتبة

عجبت لسراها وأني تخلصت * إلى باب السجن دوني مغلق
ألمت خيت ثم قامت فودعت * فلما تولت كادت النفس تهرق

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم

لشيء ولا أني من الموت أفرق

ولا أن نفسي يزدهيها وعيدهم

ولا أني بالمشي في القيد أخرق

ولكن عرتني من هواك صباية

كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حمّل فعجب كيف زاره طيف حبيبته مع

أنها ضعيفة المشي مكسال ، وذلك قوله من قصيدة طويلة :

زارت ربيعة شعنا بعدما هجعوا

لدى نواحل في أرساغها الخدم

وقت للزور مرتعا فأرقني

فقلت أهى سرت أم عادني حلم

وكان عهدى بها والمشى يبهظها * من القريب ومنها النوم والسأم

وبالتكاليف تأتي بيت جارها * تمشي المؤينا وما تبدوها قدم

سود ذوائبها بيض ترائبها * دُرْم مرافقها في خلقها عهم

رويق إني وما حيج الحجييج له * وما أهل يجني نخلة الحرم

لم ينسني ذكركم مُدلم الألقم * عيش سلوت به عنكم ولا قدم

ولم تشاركك عندي بعد غانية * لا والذي أصبحت عندي له ذمم
ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعده
الشقة كقول ابن عنين :

سامحت كتبك في القطيعة عالمًا

أن الصحيفة أعوزت من حامل

وعذرت طيفك في الجفاء لأنه * يسرى فيصبح دوننا بمراحل
وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف :

لقد بخلت حتى بطيف خيالها * على وقالت رحمةً لنجبي
أخافُ على طيفي إذا جاء طارقًا * وسادك أن يلقاه طيف رقيب

طرف أدبية

وقد يكون من المستملح أن نذكر جملة من الطرف تتناسب مع طيف الخيال . فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن ابن سهل :

رأيت في النوم أني راكب فرساً * ولي وصيفٌ وفي كفي دنائيرُ
فقال قوم لهم فهمٌ ومعرفةٌ * رأيت خيراً وللأحلام تعبیرُ
رؤياك فسر غداً عند الأُمير تجدُ * في الحلم درا وفي النوم التباشير
فوقع في أسفل الكتاب « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل
الأحلام بعالمين » !!

ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده :

أغفيت عند الصبح نوم مسهدٍ * في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك رعتني بوليدة * رعبوبة حسن علي قيامها
وبيدرةٍ حملت إليّ وبغلة * دهاء مشرقةٍ يصلُ لجامها
فدعوت ربي أن يثيبك جنةً * عوضاً يصيبك بردُها وسلامها
فقال له : أبشر في كل شيء إلا البغلة فاني لأملك إلا شهباء
فقال : امرأتى طالق ان كنت رأيته إلا شهباء غير أني غلظت !
وتقل عن أبي العبر أنه كان عنده حمار فمات فراه في النوم
ينشد شعراً يقول فيه انه مات عاشقاً ، فسأله المتوكل ما الذي كان
من شأنه ؟ فقال : كان يا أمير المؤمنين أعقل من القضاة ، ليس له

هفوة ولازلة ! فاعتل على حين غفلة ، فمات ، فرأيت في النوم
فقلت له : ألم أتق لك الشعير ، وأبرد لك الماء ، فماسبب موتك ؟
فقال أتذكر إذ وقفت على باب الصيدلاني ؟ قلت نعم ، قال مرت
إذ ذاك أتان فافتتنت بها ومت ! فقلت وهل قلت شيئاً في ذلك ؟
فقال نعم وأنشد :

هام قلبي بأتان * عند باب الصيدلاني
تيمتي يوم رحنا * بثناياها الحسانِ
وبخذ ذى دلال * مثل خد الشيقران
فبها مت ولو عشت إذا طال هواني

فقال له يا أبا معاذ . وما الشيقران ؟ فقال أنا مشغول بما أنا
فيه ! وهذا كلام تعرفه الحمير ! فإذا رأيتم حماراً ، أو من كان أولاً
حماراً ، فاسألوه ! فضحك المتوكل حتى استلق على قفاه ، ثم أمر
له بعشرة آلاف درهم ، جزاء بما أبدع في هذا الخيال

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء ، وليس فيهم
من لم يُرزأ باليأس والقنوط .

وقد تأملت ماقل الشعراء في اليأس ، فرأيت منهم من يترك
لأجله العتاب ، كقول ابن الأحنف :

سكوتى بلاء لا أطيق احتماله * وقلبي ألوف للهوى غير نازع
وأقسم ماتركى عتابك عن قلى * ولكن لعامى أنه غير نافع
وأنى اذا لم ألزم الصبر طائعاً * فلا بد منه مكرهاً غير طائع
اذا أنت لم يعطفك إلا شفاعته * فلا خير فى ود يكون بشافع
وقد عزى نفسه ابن الأحنف حين يئس بقوله :

لعمرى لقد جلبت نظرتى * اليك على بلاء طويلا
فياويح من كلفت نفسه * بمن لا يطيق اليه السبيلا
هى الشمس مسكنها فى السماء * فعز القواد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود * ولن تستطيع إليك النزولا
وإنى لأتمنى أن يرحمنى الله من عذابي ، بتريد هذا البيت
الجميل :

فياويح من كلفت نفسه * بمن لا يطيق اليه السبيلا
ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع . كما قال صردر

لا أمدح اليأس ولكنه * أروح للنفس من المطمع
 ياليت أنى قبل وقر الهوى * أذنت للعذل على مسمعى
 أين بدور من بنى دارم * تبخل أن تسفر فى مطمع
 لا فى سرار الشهر تبدو لنا * ولا ليلالى العشر والأربع
 أودعتهم قلبى وما خلتهم * يستحسنون الغدر بالمودع
 لو زارنى طيفهم * مادرى * من الضنى أنى فى مضجعى
 ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه ، يئأسه وقتنوطه . ولم
 أجد فى هذا المعنى أبدع من قول الطغرائى :

من مبلغ الحى شطت دارهم ورضوا
 بالجار جاراً وما أَرْضَى بهم عَوْضاً
 قد طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم
 عن الرِّضَاع تقضى والشباب مضى
 إن الزمان الذى كانت بشاشته

للقلب والعين ملهى بان فاتقرضنا
 فان نسيت فيأس لم يدع طمعاً
 وان ذكرت فغرق ساكن نبضنا
 حكمت فى مهجتي من ليس ينصفنى
 ولست أبلغ من تحكيمه غرضنا

سَيِّانٍ عِنْدِي وَأَمْرِي صَارَ فِي يَدِهِ

قَضَى عَلَىَّ بِجُورٍ أُمِّ إِلَى قَضَى

وليس بعد اليأس إلا الرجاء ، وإن عجب لذلك بعض الناس
فمن المحبين من يلهج بالأمل ترويحاً لنفسه ، وترفيهاً لقلبه ، كالذي
يقول :

أَعْلَمُ بِالْمَنَى قَلْبِي لِمَلِي * أَرْوَحُ بِالْأَمَانِي أَلْهَمَ عَنِي
وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكَ لَا يَرْجِي * وَلَكِنْ لَا أَقْلَّ مِنَ التَّمَنَى
وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الرَّجَاءَ نَصِيبَ الْمُبْعَدِ الْحَزِينِ . كَمَا قَالَ يَاقُوتُ :
لِلَّهِ أَيَّامٌ تَقْضَتْ بِكُمْ * مَا كَانَ أَحْلَاهَا وَأَهْنَاهَا
مَرَّتْ فَلَمْ يَبْقَ لَنَا بَعْدَهَا * شَيْءٌ سِوَى أَنْ تَتَمَنَاهَا
وَيَكَادُ الْأَمَلُ يَصْرُخُ فِي قَوْلِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ

أَدْهَرًا تَوَلَّى هَلْ نَعِيمُكَ مُقْبِلٌ * وَهَلْ رَاجِعٌ مِنْ عَيْشِنَا مَا نُوْثِلُ ؟
أَدْهَرًا تَوَلَّى هَلْ لَنَا مِنْكَ عَوْدَةٌ * لَعَلَّكَ يُعْدِي آخِرًا مِنْكَ أَوَّلُ ؟
وَأَوْجَعَ الشَّعْرَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ ابْنِ زُرَيْقٍ :

لَا صَبْرَنَّ لِدَهْرٍ لَا يَتَغْنَى * بِهِ وَلَا بِي فِي حَالٍ يَتَمَعُهُ
عَلَمًا أَنَّ اصْطِبَارِي مُعَقَّبٌ فَرَجًا

فَأَضْيَقُ الْأَمْرَ لَوْ فَكَّرْتُ أَوْسَعُهُ

عَلَّ اللَّيَالِي الَّتِي أَضْنَتْ بِفِرْقَتِنَا * جَسْمِي سَتَجْمَعُنِي يَوْمًا وَتَجْمَعُهُ

ولو سُئِلت عن رأيي في اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلي
هذه الدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة
« يارب ! إني ما جئدت نعمتك يوم رزقتني بهم ، ولا جهلت
حكمتك يوم أقصيتهم عني ، وهأنذا أنتظر فضلك وطولك ، في ردهم
إليَّ ، وعطفهم عليَّ . فلو لا الثقة برحمتك ، والايمان باحسانك ،
لذهبت النفس عليهم حسرات ، وقُطِّع القلب في آثارهم قطعاً »



العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، بادى الخضوع ، نزولا عند
حكم الهوى ، وإيماناً بعودة الحبيب ، كقول القائل :
يا غاية القصد وأقصى المنى * وخير مرعى مقلة الناظر
إن كان لى ذنبٌ ولا ذنبَ لى * فما له غيرك من غافر
أعوذ بالود الذى بيننا * أن يفسد الاول بالآخر
وحسبك من موجب العطف ، ودواعى الرحمة ، أن يتوسل
المحب بسالف حبه ، وماضى عهده ، وأن يجعل الامر فى غفر ذنبه
لحبيبه الودود

وقال ابن التعاوىدى :

يا أبنة القوم كيف ضاعت عهدى

بينكم والوفاء فى العرب دينٌ

كيف أسامت فيك قالى إلى الأشـ

جان لولا أن الغرام جنون

أترينى على النوى مضمرًا عـ

ك سألواً أبى إذن خلئون

أنا من قد علمت عهدى على النأ

ى وثيق وحبل ودى متينٌ

ولا يكون العتاب باباً للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة ،
كقول ابن زيدون :

ياقراً أطلعه المغربُ * قد ضاق بي في حبك المذهبُ
أزمتني الذنب الذي جئتهُ * إلى فاصفح أيها المذنب
وكقول الآخر :

إذا مرضتم أتيناكم نعوذكم * وتذنبون فنأتىكم فنعتذرُ
فأما قول البحتري :

قد كان منى الوجد غبّ تذكره

اذ كان منك الصدغ تناسي

تجرى دموعي حيث دمعك جامدٌ

ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحتري

نفسه في كلمة ثانية :

إني وإن لم أبح بوجدي * أُسرُ فيك الذي أُسرُ

يا ظالماً لي بغير جرم * إليك من ظلمك المفرُ

أنت نعيمى وأنت يؤسى * وقد يسوء الذي يسرُ

وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعاً :

أيا قر التمام أعنت ظالماً * على تطاول الليل التمام

أما وفتور لحظك يوم أبقى * تقلبه فتوراً في عظامي

لقد كلفتني كلفاً أعنى * به وشغلني عما أمامي
أعيذك أن يرأق دم حرام * بذاك الدل في شهر حرام
ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال ، وأتمنى لو
تأمل القارئ هذا البيت الجميل
ياظالمًا لي بغير جرم * اليك من ظلمك المفر
فانه خير من قول ابن زيدون :

ألزمتني الذنب الذي جئته * إلى فاصفح أيها المذنب
وهل رأى القارئ ، أروح للنفس ، وأمتع للقلب ، من هذا القسم :
أما وقتور لحظك يوم أبقى * تقلبه فتوراً في عظامي
وهل رأى حيرة للحب أشقى من حيرة الذي يقول :

لقد كلفتني كلفاً أعنى * به وشغلتنى عما أمامي
ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون ما نعلم
من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يجنون على أنفسهم ، وعلى
قرائهم اذ يحرمونهم من التطلع الى جنة الادب ، وقطفوها الدانية !
ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت :

اني وان لم أبح بوجدى * أسر فيك الذي أسر
ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبوك من المسرفين ،
وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى الى اللغة المتبذلة المهلهلة
عجزاً عن الكتابة باللغة التي رحبت بشمرات العقول في جميع

الأهم الإسلامية ، وكانت لغة العالم زمنًا غير قليل
ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن في الأدب لاحد له
ولا تعريف ، بل هناك حقائق أدبية يتركز عليها الجمال ، في
الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه أن العرب
يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن ، إيدانًا بالتفخيم
والتهويل ، كلفظة «ما» في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ماغشيهم)
للدلالة على أن ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه
التمثيل . ومنها قول البحترى :

برح بي حبك المعنى * وغرنى منك ما يغر
إذ كانت دواعي الحب ، وأسباب العشق ، مما يقصر عن إدراكه
المحب المفتون ، والعاشق المأسور ١١

ومن ذلك لفظة «الذي» في هذا البيت المختار :
انى وان لم أبح بوجدى * أسر فيك الذى أسر
إيدانًا بأن ما يجنه من اللوعة ، وما يكره من الشوق ، أجل من
أن يحيط به الوصف ، أو يناله البيان : ١

ومن العشاق من يضيف الى ذلة العتاب ، ذلة الاقرار
بالذنب ، كقول الشريف :

أيا شا كيا منى بذب جنيته * فديتك من شاك اى حبيب
لئن راب منى ما يريب فانى * على عدواء الداء غير مريب

وأنى لأرعى منك والود بيننا * هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهبلى ذنباً واحداً كنت قلته * فمأزلة من حازم بمجيب
فيأحسن حال الود ما دمت مذنباً * أتوب وما دامت تعدّ ذنوبي
والبيت الأخير يذكرنا بقول بشار :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه
ومن بديع الشعر فى وصف العتاب، وما فيه من ذلة العاشق ،
وعزة المعشوق ، قول الشريف

ومقبل كفى وددت لو أنه * أوما الى شفتى بالتقبيل
جاذبته طرف العتاب وبيننا * كبر الملول وذلة الممارل
ولحظت عقد نطاقه فكأتما * عقد الجمال بقرطق محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه * أعطاف غصن البانة المطلول
من لى به والدار غير بعيدة * من داره والمال غير قليل
وقوله

ومقبل كفى وددت لو أنه * أوما الى شفتى بالتقبيل
يذكرنا بقول الصاحب بن عباد :

أهوى لتقبيل يدي * فقلت لا ! بل شفتى
وحيرة أمثال الشريف الرضى والصاحب بن عباد فى أمثال
هذه المواقع حيرة رهيبة ، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن
الحب كالموت لا يمصم منه البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد

يتقرب بعض الناس الى مثل الشريف الرضى بتقبيل يمينه ، فيود
هذا لو قبل شفتيه ، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالعظمة ،
وقضى عليه بتقديس الجمال !! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه :
حين يذهب بوقار العلم ، وجلال الجاه ، وغرور المال ، ثم يسوى
بين الأقدار ، ريثما ينسى العالم علمه ، والوجيه جاهه ، والغنى ماله ،
حتى إذا أنست تلك النفوس العاتية الى هذه المساواة ، عاد فميز
أهل الحسن ، ورفع أرباب الجمال ، وصير المحبين أذلة ، بالرغم من
أنف العلم والجاه والمال !! ويقول العرب : الهوى إله معبود ،
وإنهم لصادقون . غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الإله ليس
برحم ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار !! ولولا الرحمة بضعفاء
اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان ، ولينت
للقارئ رأى الفلاسفة فى ملكة الجمال ، ولكن الدين فى
كثير من القلوب كالسكرى فى عين الخائف المذعور : يودى به
مر الطيف وهبوب النسيم ، والذين يختلفون فى النظرة البريئة
أحرام هى أم حلال ، لا يعقلون كيف يكون الهوى إلهاً ، وكيف
يكون له ملائكة مقربون ، من الشعور ، والعيون ، والحدود ،
والشغور ، والنحور ، والصدور . وهم أن عقلوا هذه الألوهية ، فلن
يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب أنبياء مرسلون ،
بل كل محب عندهم ماجن خليع ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !!

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله
 جاذبته طرف العتاب وبيننا * كبر الملول وذلة الملول
 والمراد بكبر الملول عزة المعشوق ، الذي تحذته عن هجره وصدده ،
 فكأنما تسمعه هجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتململ ، ويود لو
 أرحته من حديث الحب : إذ كان الحسن يسد أذن الجميل ، فلا
 يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب ، وما أبدع الغزل في قوله :
 جذلان ينفض من فروج قميصه * أعطاف غصن البانة الملول
 ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك ابراهيم يذكر
 الشريف الرضى إلا ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب !
 ولعل أبرع ما قيل في التطلع الى الاستمتاع بالجمال ، قوله في هذا
 البيت المختار :

من لى به والدار غير بعيدة * من داره والمال غير قليل
 ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف
 الرضى على جاهه كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال !
 فدع ذكر سمدى إن فيك تقيّة

ألا انما ينبغي لها من يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على
 السكاف بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض
 الأعراب :

أحباً على حبٍّ وأنت بخيلةٌ * وقد زعموا أن لا يحبُّ بخيلٌ
بلى والذي حج الملبون بيته * ويشفى الهوى بالنيل وهو قليل
وإن بنا لو تعلمين لغلة * اليك كما بالحائمات غليل
وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقه ،
ويحب من أجل ذلك أعداءه الظالمين ، كقول أبي الشيص الخزاعي
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي

متأخر عنه ولا متقدمٌ
أجد الملامة في هواك لذينة * حباً لذكرك فليمنى اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً * ما من يهون عليك ممن أكرم
ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر مالم ي في سبيل الحب
من البلايا ، كقول ابن الدمينه

وأنت التي كلفتني دج الشرى * وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التي قطعت قلبي حرازة * وفرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قومي فكلهم

بعيد الرضا داني الصدود كظيم
وقد أحابته محبوبته أمانة فذكرت مالم ت في سبيل حبه
من سفاهة الوشاة ، وشماته اللآمين ، حيث تقول :
وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني * وأشمت بي من كان فيك يلوم

وأبرزتني للناس ثم تركتني * لهم غرضاً أرمى وأنت سليمٌ
فلو أن قولاً يكلم الجسم قد بدا * بجسمي من قول الوشاة كلوم
وقد ضعف ابن الدمينه عن مجاراتها في قسوة العتاب ، فبعث
إليها الأبيات الآتية ، يسألها الصفح والغفران :

وإذا عتبت عليّ بت كائنِي * بالليل مختلس الرقاد سليمٌ
ولقد أردت الصبر عنك فعافني * علق بقلبي من هواك قديم
يبقى على حدث الزمان وريبه * وعلى جفائك إنه لكريمٌ
ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكر أحابيه بأن الحياة
قصيرة ، لا تتسع للصد ، ولا تحمل الهجر ، كقول الطغرأئي :
ويأرفقة مرّت بجرعاء مالك * تؤم الحى أنضأوها والمطالبا
نشدتكم بالله الا نشدتم * بها شعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لحي نازلين بقربها * أقلموا بها واستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي * صروف الليالي إن في الدهر كافيا
وأصل هذا المعنى لاياس بن القائف إذ يقول :

ذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها * فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر مادتما معاً * كفى باللمات فرقة وتنايا
وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية

ابقوله في النهي عن العتاب :

أقل عتابك فالبقاء قليل * والدهر يعدل تارة ويميل

لم أبك من زمن ذممت صروفه * إلا بكيت عليه حين يزول
 ولكل نائبة ألت مدة * ولكل حال أقبلت تحوّل
 والمنتمون إلى الإخاء جماعة * إن حَضُّوا أفئام التحصيل
 فلئن سبقت لتبكين بحسرة * وليكثرنَّ علىَّ منك عويل
 ولتفجعنَّ بمخلص لك وامق * حبل الوفاء بحبله موصول
 ولئن سبقت ولاسبقت ليمضين * من لا يشا كاه لدى خليل
 وليذهبنَّ بهاء كل مروءة * وليفقدنَّ جالها المأهول
 وأراك تكلف بالعتاب وودنا * باقٍ عليه من الوفاء دليل
 ولعل أيام الحياة قصيرة * فعلام يكتر عتبنا ويطول
 على أن الرفق الذي أُم بالطغرائي فجعله يرجو أحابيه أن
 لا يسبقوا صروف الليالي ، لم يمنعه من أن يصرخ شاكياً في نفس
 القصيدة ، فيرمي أحابيه بالخيانة والنسيان ، وذلك قوله :
 أفى الحق أني قد قضيت ديونكم * وأن ديوني باقيات كما هيا
 فوالأسف ، حتام أرمي مضيعاً * وآمن خوَّانا وأذكر ناسيا
 وما زال أحابي يسيئون عسرتي * ويحفوني حتى عذرت الأعدايا
 والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام :
 أحابيه لم تفعلون بقلبه * ما ليس يفعله به أعداؤه
 وقد بسط الأرجاني هذا المعنى فقال :
 أحابينا كم تجرحون بهجركم * فؤاداً يبيت الليل بالهم مكمداً

إذا رمتم قتلى وأنتم أحبة * فاذا الذى أخشى إذا كنتم عدا
 سأضمر فى الاحشاء منكم تحرقاً * وأظهر للواشين عنكم تجلدا
 وأمنع عيني اليوم أن تكثر البكا * لتسلم لى حتى أراكم بها غدا
 ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير
 أحبابهم بقصر الحياة أبو صخر الهدلى فى هذه الأبيات الموجهة
 بيد الذى شعف الفؤاد بكم * تفرج ما ألقى من الهم
 قد كان صرماً فى المات لنا * فعجلت قبل الموت بالصرم
 ولما بقيت لبيقين جوى * بين الجوانح مضرع جسمي
 فتعلمى أن قد كلفت بكم * ثم افعلى ماشئت عن علم
 وما ذكرت هذه المعانى المحزنة إلا لتغيت بهذا البيت الذى
 لا أراه إلا زفرة تتصعد ، أو عبرة تتدفق :

وأرى الأيام لا تدنى الذى * أرتجى منك وتدنى أجلى ١١
 ومن الشعر الممتع فى وصف الحيرة ، يرمى بها الحب العميد ،
 قول الشريف يعاتب حبيباً أغراه بالحب ، ثم أصلاه الصدود :
 يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى
 ألم الجوى من قلبى المصدوع

أأسأت بالمشاق حين ملكته * وجزيت فرط نزاعه بنزوع
 هيهات لا تتكلفن لى الهوى * فضح التطبيع شيمة المطبوع
 كم قد نصبت لك الحبائل طامعاً * فنجوت بعد تعرض لوقوع

وتركتني ظمان أشرب غلتي * أسفاً على ذاك الهمى المنوع
 قلبي وطرفي منك هذا في همى * قيظٍ وهذا في رياض ربيع
 كم ليلة جرعتُهُ في طولها * غمص الملام ومؤلم التفرع
 أبكى ويبسم والدجى ما بيننا * حتى أضاء بشعره ودموعى
 تقلى أنامله التراب تعللاً * وأناملى فى سنى المقروع
 قرأ اذا استخجلته بعتابه * لبس الغروب ولم يعد لطلوع
 لو حيث يُستمع السرار وقفتما * لعجبتما من عزه وخضوعى
 أبغى هواه بشافع من غيره * شر الهوى مانلته بشفيع
 أهون عليك اذا امتلأت من الكرى

أنى أبيت بليلة الملسوع

قد كنت أجزيك الصدود بمثله * لو أن قلبك كان بين ضلوعى
 وقد ارتبت فى بيتين وردا فى خلال هذه القصيدة ، وبينهما
 وبين موضوعها يون شاسع ، وهما قوله :

ما كان الا قبلة التسليم أر * دفها الفراق بضمة التوديع
 كمدى قديم فى هوائك وانما * تاريخ وصالك كان منذ أسبوع
 فان هذا الوصل الحديث خامق بمحو ذلك العتب القديم ،
 والتنافر بين هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على
 الأقل من مقابلتها بهذا البيت الجميل :

أهون عليك اذا امتلأت من السكرى

انى أبيت بليلة الملسوع

فانه يدل على أن الحبيب غير بعيد ، وانه فى قربه نافر شرود ،
مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية :

أبيت والليل مبثوث حباله * والوجد يقنص منى كل مجلود
شوقاً اليك وإشفاقاً عليك ولى * دمعان مابين محلول ومعتود
ايس الغريب الذى تنأى الديار به * ان الغريب قريب غير مودود
وانما أوردنا هذه الملاحظة ليتنبه القارىء الى أن فى الدواوين
أشياء كثيرة نسبت زوراً الى الشعراء ، وربما عدنا الى تحقيق ذلك
فى مبحث خاص . والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه فى
العتاب ، وقل منهم من لا يحفظ هذا البيت المختار :

لو حيث يستمع السرار وقفما * لعجبتما من عزه وخصوعى
والعز والخضوع فى هذا البيت يذكرنا بالعز والذل فى قول

عمارة اليمنى فى المجون :

ونافر الأعطاف عاملته * باللطف حتى سكن النافر
ولم أزل أمسح أعطافه * ورأيه فى قصتى حائر
حتى غدا من خجل مطرقاً * وكل إعراض له آخر
عجبت من ذلى ومن عزه * فى موقف عاذله عاذر
فى ليلة ساهرها نائم * فما له سمع ولا ناظر

مددت فيها الفخ لما خلا * بجو إلى أن وقع الطائر
فبت من فرط اغتباطي به * أظن أني غائب حاضر
وأن التعاويذى يجيد الشعر فى العتاب ، وهو صاحب هذه
الآيات المختارة :

خذ فى أفانين الصدود فان لى * قلباً على العلات لا يتقلب
أتظنى أضمرت بعدك سلوة
هيهات عطفك من سلوى أقرب
قد كنت تنصفنى المودة راكباً
فى الحب من أخطاره ما أركب
فاليوم أقنع أن يمر بمضجعى * فى النوم طيف خيالك المتأوب
وهو أيضاً صاحب هذه القطعة التى تمثل الوجد الدفين :

يا نازحاً ليس يدنو * وعائباً ليس يرضى
يا واجداً وديونى * فى حبه ليس تقضى
أمرت عينى ففاضت * ومضجعى فأقضا
أرقد هنيئاً فانى * ماذقت بعدك غمضاً

ومن الظلم للعواطف أن لا تفصل مذهب العباس بن
الآنحرف فى العتاب ، فان شعره آية الآيات فى الشكوى من
من الهجر ، والتوجع من الصدود ، وهو مع هذا يعد أيام الهجر
أحسن أيامه ، ويقول :

وأحسن أيام الهوى يومك الذى * تروّع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن فى الحب سخطٌ ولا رضاءً

فأين حلاوات الرسائل والكتب

ولكن هذا أمل بهيد ، فليس كل عتب تدور فيه رسائل
الحب ، وصحف الهوى ، وكذلك رزى ابن الأحنف بمن ينبذ
كتبه ، ويمزق رسائله ، وفى هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية .
وصالك مظلم فيه التباس * وعندك لو أردت له شهاب
وقد حملت من حبيبك مالمو

تقسّم بين أهل الأرض شابوا
أفئق من عتابك فى أناس * شهدت الحظ من قلبى وغابوا
يظن الناس بى وبهم وأتم * لكم صفو المودة واللباب
وكنت إذا كتبت إليك أشكو

ظلمت وقلت ليس له جواب
فعمشت أقوت نفسى بالأمانى * أقول لكل جامحة إياب
وصرت إذا انتهى منى كتاب * إليك لتعطى نبذ الكتاب
وإن الود ليس يكاد يبق * إذا كثر التجنى والعتاب
خفضت لمن يلوذ بكم جناحى * وتلقونى كأنكم غضاب
وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من
تهوى ، وهو صاحب هذا البيت الحزين .

ويقنعني ممن أحب كتابه * ويمنعني ، إنه لبخيل !
وكثيراً ما يميل ابن الأحنف الى الصفح الجميل ، اذ يرى
العتاب لا يعطف القلوب ، إن لم تضر الحنان . وقد أفصح عن
ذلك في هذه الأبيات :

أنكر الناس ساطع المسك من دج
للة قد أوسع المشارع طيبا
فهمو يعجبون منه وما يدرون أن قد حلت منه قريبا
قاسمى هذا البلاء وإلا فاجعلنى من التعزى نصيبا
ان بعض العتاب يدعو الى العتب ويؤذى به الحب الحبيب
واذا ما القلوب لم تضر العطـف فلن يعطف العتاب القلوبا
وما أجمل العزة فى قوله :

خففت لمن يلوذ بكم جناحى * وتلقونى كأنكم غضاب
وقوله :

خففت طرفى لأدنى من يلوذ بكم
حتى احتقرت وما مثلى بمحتقر
وأى كريم لم يلق مثل هذه الذلة فى سبيل الصباية ؟ ومتى
عرف الهوى قيمة العزة فى نفوس الأعراء ، فعصمها عن مداراة
قوم يحيطون بالجمال ، إحاطة الأشواك بالورود ؟

وقد نرى ابن الأحنف يأساً من نفع العتاب ، فنقرأ له هذه
الآيات في التبرم بالسكوت :

سكوتى بلاءٌ لا طيق احتماله * وقلبي ألوفٌ للهوى غير نازع
فأقسم ما تركى عتابك عن قلبي * ولكن لعلمي أنه غير نافع
وأنى إذا لم ألزم الصبر طائعاً * فلا بد منه مكرهاً غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعته * فلا خير في ودِّ يكون بشافع
وربما رأيناه زاهداً في العتاب ، لأن محبوبته لاتصد صد
العائب ، بل صد الملول ، وذلك قوله :

لو كنت عاتبةً لسكن لوعتي
أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لى حيلة
صد الملول خلاف صد العائب

ماضر من قطع الرجاء ببخله * لو كان علاني بوعدٍ كاذب
على أن ابن الأحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب بل
رأيناه يعجب بنصره في الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس
سعيداً من يقول :

ياربَّ جاريةٍ أسبلتُ عبرتها * من رقةٍ ولغيرى قلبها قلبي
كم من كواعب ما أبصرن خطي

إلا تمنين أن يأكلن قرطاسي

عتاب البها زهير

وكان البها زهير ، أحد وزراء مصر في أيامها الخوالى ، من
أرق الشعراء في العتاب ، حتى لتحسب شعره نجوى بين الحب
والحبيب ، أورنين الحلى عند عناق الحسان ، أو خفوق الأمل
في قلب اليائس المحزون . انظر الى اعتذاره عن محبوبه ، ورضاه
عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل :

مولای من سکر الدلا * ل عبثت والسكران عابت
ونكثت عهداً في الهوى * ما خلت أنك فيه ناكث
لك لا أشك قضية * أنا سائل عنها وباحت
وقد يكثر في شعر البها زهير وصف الدلال وما له من النشوة
والسكر ، فنراه في موطن آخر يقول :

أضنى الفؤاد فمن يريحه * وحمى الرقاد فمن يبيحه
ونضا من الأجفان سيهـ فاقلماً يبقى جريحه
نشوان من خمر الدلا * ل غبوقه وبها صبوحه
والذى يعنيننا الآن شرح مواقفه في العتاب ، لانها تمثل الروح
المصرية ، وما لها من السماحة المصحوبة بالشمم والإباء . فحيناً ينفي
ما ذاع من سلوه ، حتى هجره أحبابه ، فيقول :

ياهاجرين وحقكم * هو تتم ما لا يهون

قلتُم فلانٌ قد سلا * ما كان ذاك ولا يكونُ
 وحياتكم وهى التى * مامثلها عندى يمينُ
 ماخنت عهدكم كما * زعم الوشاة ولا أخونُ
 يامن يظن بأنى * قد خنته غيرى الخئونُ
 لو صح ودك صح ظنك بى وبان لك اليقينُ
 يا قلب بعض الناس كم * تقسو علىَّ وكم ألينُ
 يا ويلته لمن يخا * طب أولمن يشكو الخزين
 قد ذلَّ من كان المعين له هو الدمع المعينُ

وحينا يمزج العتاب بالشكوى فيقول :

يا أعز الناس عندى * كيف خنت اليوم عهدى
 سوف أشكوك بعدى * فعسى شكواى تجدى
 أين مولاي يرانى * ودموعى فوق خدى
 أقطع الليل أقامى * ما أقامى فيه وحدى
 ليتنى عندك يامولا * ي أوليتك عندى
 ثم يترفق فى شكواه وأمانيه ، فيقول :

من لى بقلب أشتريه * من القلوب القاسية
 انى لأطلب حاجة * ليست عليك بخافية
 أنعم علىَّ ^{بإني لطائف} بقبلة * هبة وإلا عارية
 وأعيدها لك لاعدمت بعينها وكما هية

واذا أردت زيادة * خذها ونفسى راضية
فمسى يحود لنا الزما * ن بخلوة في زاوية
أو ليتنى ألقاك وحدك في طريق خالية
وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب ، ولكن
البهازهير كما قلنا مصرى الروح : فهو في رفته غضوب . ألم تر اليه
وقد تبدل من يهوى ، فرماه بهذه الصاعقة

يا من تبدل في الهوى * يهنيك صاحبك الجديد
إن كان أعجبك الصدو * د كذاك أعجبني الصدود
واعلم بأنى لأرى * د إذا رأيتك لا تريد
وأنا القريب فان تغـ * سير صاحبي فأنا البعيد
وقد أوضح هذا المعنى ووفاه في الكلمة الآتية :

سأعرض عمن راح غنى معرضاً * وأعلن سلوانى له وأشيعه
وأحجب طرفى عنه فهو رسوله * وأحجب قلبى عنه فهو شفيعه
وكيف ترى عيني لمن لا يرى لها * ويحفظ قلبى في الهوى من يضيعه
وأقسمت لا تجرى دموعى على امرئ

إذا كان لا تجرى على دموعه
فلو خان طرفى ماحوته جفونه * ولو خان قلبى ماحوته ضلوعه
وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية :

هو حظى قد عرفته * لم يحل عما عهدته

فاذا قصر من أهـوا * هـ في الحب عذرتـه
غير أنى لى فى الحـ * ب طريق قد سلكته
لو أراد البعد عنى * نور عيني ما تبعته
لأن قلبي وهو قلبي * لو تجنى ما صحبته
كل شىء من حبيبي * ما خلا الغدر احتملته
أنا فى الحب غيور * ذاك خلقى لاعدمته
أبصر الموت إذا أب * صر غيـرى من عشقته



فوح الحمام

لقد ألمنا إمامة قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع ،
واليوم تفصل مذاهب الشعراء في هذا الباب : فمنهم من يحن الى
الحمام الشادية ، ويتمنى لو عدن إليه ، فاذا عدن أسلمنه الى البكاء ،
كما قال المجنون :

ألا يا حمامات اللوى عدن عوداً * فاني الى أصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتنني * وكدت بأشجانى لهن أبين
فلم تر عيني مثلهن بواكيا * بكين ولم تذرف لهن عيون
ومن الشعراء من يذكر أن الحمام الباكية تبعث الهوى في
قلب الخلى ، فكيف بالشجي ، وأن أنغامها ليست دموعاً ولكنها
أمضى من الدموع ، كما قال أبو تمام :

بعث الهوى في قلب من ليس هائماً
فقل في فؤاد رعه وهو هائم
لها نغم ليست دموعاً فان علت

مضت حيث لا تمضي الدموع السواجم
ومنهم من يستريح الى نوح الحمام ، ويراد تداوياً من الداء بنفس
الداء ، كقول ابن عبد ربه :

فكيف ولي قلب اذا هبت الصبا * أهاب بشوق في الضلوع دفين

ويحتاج منه كلما كان ساكناً * دعاء حمام لم تبت بكون
وان ارتياحي من بكاء حمامة * كذى شجن داويته بشجون
كأن حمام الأيك لما نجأوبت * حزين بكى من رحمة حزين
ويسمون الحمامة « مطوقة » لطوقها الخضب الجميل ، كما قال
ابن عبد ربه :

ونائح في غصون الأيك أرقى * وما عنيت بشيء ظلّ يعنيه
مطوقٌ بخضاب ما زايله * حتى تزييله إحدى تراقيه
قد بات يشكو بشجوما دريت به * وبت أشكو بشجور ليس يدرية
ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية ، فيذكر
أنها تبكي بلا دمع ، وأن إلفها منها قريب ، كما قال أبو محم الشيباني
من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ،
وطالت غربته :

وأرقى بالرى نوح حمامة * فنحت وذوالشجوالغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمعة * ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما * ومن دون أفرأخي مهامه فيح
ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر * وغصنك ميساد فقيم تنوح
أفق لاتنح من غير شيء فاني * بكيت زماناً والفؤاد صحيح
ولو عافشطت غربة دارزينب * فهأنا أبكي والفؤاد جريح

ومما يجدر أن يكون « صورة شعرية » في وصف الحمامة
الباكية قول الطغرائي :

أيكية صدحت شجواً على فنن * فأشعلت ماخبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلهاً ولا جُعت

فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليقةً من إيسار الهم ناعمةً

أضحت تجدد وجد الوثق العاني
تشبّهت بي في وجدى وفي طربي * هيهات ما نحن في الحالين سيان
ما في حشاها ولا في جفنها أثر * من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
ياربة البانة الغناء تحضنها

خضراء تلتف أغصاناً بأغصان

إن كان نوحك إسعاداً لغرب * ناء عن الأهل ممنو بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طرب * وجداً بوجد وسلواناً بسلوان
أولافك صرك حتى أستعين بمن * يعنيه شأني ويأسو كلم أحزاني
ما أنت مني ولا يعنيك ما أخذت * مني الهموم ولا تدرين ما شأني
كلني إلى الغيم إسعادى فإن له * دمعاً كدمعي وإرنا كإرنا
وهذه القصيدة من أبدع ما قال الشعراء في الحاتم الشاديات .

وهي أنموذج للملاحاة التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ،
ويقرب منها قول ديك الجن :

حَامٌ وَرَقٌ فِي حَمِي وَرَقٌ خَضِرُ
 لَهَا مُقَلُّ تَجْرِي الدَّمُوعُ وَلَا تَجْرِي
 تَكَلَّمْنِ إِسْعَادَ الْغَرِيبَةِ أَنْ بَكَتْ
 وَإِنْ كُنْ لَا يَدْرِيْنَ كَيْفَ جَوَى الصَّدْرِ
 لَهَا حَرْقٌ لَوْ أَنَّ خَنْسَاءَ أَعْوَلَتْ
 بَهَنَ لَا دَتَّ حَقَّ صَخْرٍ إِلَى صَخْرٍ
 فَقُلْتُ لِنَفْسِي هَاهُنَا طَلَبُ الْأَسَى
 وَمَعْدَنَهُ إِنْ فَاتَنِي طَلَبُ الصَّبْرِ

وقد يحسن لفت النظر إلى الخرافة القديمة في نوح الحمام :
 فان العرب يذكرون أنه كان لهم ملك في عهد نوح يسمى (الهديل)
 فمن يبكيه إلى الآن ؟ وهو المعنى بقول نصيب :
 لقد راعني البين نوح حمامة * على غصن بانٍ جاوبتها حمامُ
 هواتفُ أما من بكين فعهده * قديمٌ وأما شجوهنَّ فدائمُ
 ومن ذكر الهديل حميد بن ثور في هذه الأبيات الحسان :
 إذا نادى قرينته حمام * جرى لصباقي دمعُ سفوح
 يرجع بالدعاء على غصون * هتوف بالضحى غرد فصيح
 هنا لهديله مني إذا ما * تغرد ساجعاً قلب قريح
 فقلت حمامة تدعو حماماً * وكل الحب نزاع طموح
 قال أبو بكر بن دريد : خرجنا من نهمان في سفر لنا ، فنزلنا

في أصل نخلة ، فنظرت فإذا فاختمان تزقوان في فرعها ، فقلت :

أقول لورقاوين في فرع نخلة

وقد طفل الإيماء أو جنح العصر

وقد بسطت هاتي لتلك جناحها * ومال على هاتيك من هذه النحر

ليهنكما أن لم تُراعا بفرقة

وما دب في تشتيت شملكما الدهر

فلم أر مثلي قطع الشوق قلبه * على أنه يحكي قساوته الصخر

ومن جيد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية

قول ابن سنان الخفاجي :

أتظن الورق في الأيك تغني * أنها تضمر حزناً مثل حزني

لا أراك الله نجداً بعدها * أيها الحادي بها إن لم تجبني

هل تباريني إلى بث الجوى * في ديار الحى نشوى ذات غصن

هَب لها سبق ولكن زادنا * أننا نبكى عليها وتغنى

يا زمان آخيف هل من عودة * يسمح الدهر بها من بعد ضن

أرضينا بثنيات اللوى * عن زرود يالها صفقة غبن

وقد ينكر الشاعر على الحمامة أن تشكو الفراق ، وهي كثيرة

الألاف ، وحالية بالطوق والخضاب ، كقول ابن سنان الخفاجي

وهاتف في البان تملى غرامها * علينا وتسلو من صبايتها صحفا

عجبت لها تشكو الفراق جهالة * وقد جاوبت من كل ناحية إلها

ويشجى قلوب العاشقين حنينها * وما فهموا مما تغنت به حرفاً
ولو صدقت فيما تقول من الأسى * لما لبست طوقاً ولا خضبت كفا
ولكن الأرجاني يصفها بصدق اللوعة ، فيذكر أنها مزقت
أثواب الحداد ، وأن صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع
الأطواق ، وأنها نزت دمعها وأفتته بطول البكاء ، وذلك في قوله :

وما شجاني وقد ودعوا * بكاء الحمام على ساقها
تنوح على بعد ألافها * وتظهر مكنون أشواقها
لبسن حدادا ومزقته * فلم تدخر غير أزياقها
وضاقت صدوراً بأنفاسها * ففضت مجامع أطواقها
وقد نزت في الهوى دمعها * فلم يبق ماءً بآماقها

ولم يكثر الشعراء من الحديث عن غناء الكروان . ويظهر أنهم
لم يتمتعوا بأغانيه الجميلة على ضفاف النيل في سنتريس ، والدهر
كله فداء للحظة واحدة من الأصائل ، أو العشيات ، أو الأسيار ،
في مغاني سنتريس

ويعجبنى في وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد :
يا محيي الليل البهيم تهجداً * والطير آوية الى الأوكان
يحدوا الكواكب وهو أخفى موضعاً * من نابغ في غمرة النسيان
قل يا شبيهه النابغين اذا دعوا * والجهل يضرب حولهم الجران
كم صيحة لك في الظلام كأنها * دقات صدر المدججة حان

خفاقة النغمات تطفر في الدجى * فوق النسائم طفرة النشوان
 هن اللغات ولالغات سوى التي * رفعت بهن عقيرة الوجدان
 إن لم تقيدها الحروف فانها * كالوحي ناطقة بكل لسان
 أغنى الكلام عن المقاطع والأغنى * بث الحزين وفرحة الجذلان
 إني لأسمع منك إذ ناديتني * معنى يقصر عنه كل بيان
 أصغى إليك اذا هتفت وفي يدي * سفر يغرد صامت الأوزان
 شعر الطيور ولأرياء يشوبه * يذرى بيدع قصائد الانسان
 ياساليا يشكو ويصدق وحده * علم سمر كراحة السلوان
 ومن خير ماوصفت به الحمامة من ناحية الخلقة الجميلة ، قول
 بعض الأعراب

وقبلى أبكى كل من كان ذا هوى

هتوف البواكى والديار البلاقع

وهن على الأطلال من كل جانب * نوائح ماتخضل منها المدامع (١)
 مزبجة الأعناق غر ظهورها * مخطمة بالدر خضر روائع (٢)
 ترى طورا بين الخوافي كأنها * حواشي برد زينتها الوشائع (٣)
 ومن قطع الياقوت صيغت عيونها * خواضب بالحناء منها الاصابع

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهى العيون (٢) مزبجة : من الزبرج وهو الزخرف والزينة.
 ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو متقار الطائر (٣) الوشائع جمع وشيعة وهى الطرائق فى الثوب

ويعجبنى خطاب عبد البر بن فرسان الغسانی لطائر مغرّد ضم
أفراخه اليه :

أعِدْهُنَّ أَلْحَاناً عَلَى سَمْعٍ مَعْرَبٍ * يَطَارِحُ مِرْتاحاً عَلَى الْقُضْبِ مَعْجِماً
وَطَرٍ غَيْرِ مَقْصُوصِ الْجَنَاحِ مَرْفَهَا * مَسْوُوعٌ أَشْتَاتِ الْحُبُوبِ مِنْهَا
مُخَلِّى وَأَفْرَاخاً بَوَكْرِكَ نَوْمًا * أَلَا لَيْتَ أَفْرَاخِي مَعِيَ كُنْ نَوْمًا
وَأَقْدَ أَبْدَعِ الرِّصَافِي شَاعِرِ الْأَنْدَلُسِ حِينَ تَغْنَى يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ
شِبَابِهِ وَقَدْ خَلَا فِيهِ بَيْنَ يَهُوَى فِي رَوْضَةٍ لَمْ يَشَارِكْهُمْ فِي سَكْنِهَا غَيْرِ
الْهُدَيْلِ ، وَأَيَّاتِهِ الْآتِيَةِ غَايَةِ مِنْ غَايَاتِ الْحَسَنِ فِي وَصْفِ الشَّمْسِ
وَهِيَ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ .

وعَشَى رَائِقٌ مَنْظَرُهُ * قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ
وَكُنَّ الشَّمْسُ فِي أَثْنَائِهِ * أَلْصَقَتْ بِالْأَرْضِ خَدًّا لِلنُّزُولِ
وَالصَّبَا تَرَفَعَ أَذْيَالُ الرُّبَا * وَحُمَا الْجَوُّ كَالسَيْفِ الصَّقِيلِ
حَبِذَا مَنَزَلْنَا ، مُتَبَقًّا * حَيْثُ لَا يَطْرُقُنَا غَيْرُ الْهُدَيْلِ
طَائِرٍ شَادٍ وَغَصْنٌ مُتَشَنٍّ * وَالْدَجَى تَشْرَبُ صَهْبَاءَ الْأَصِيلِ
وَمِمَّا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ مِنْهُ قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي حَفْصٍ الْقُرْطُبِيِّ
هُوَ نَظْرُ وَالْوَاظِلِهَا مَوَا * وَتَشْرَبُ لَبَّ شَارِبِهَا الْمَدَامُ
يَخَافُ النَّاسَ مَقَاتِلَهَا سِوَاهَا * أَيْذَعُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحَسَامُ
سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بَاكٍ * وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْغَمَامُ
وَأَذْكُرُ قَدْ هَافًا نَوْحَ وَجْدًا * عَلَى الْأَعْصَانِ يَنْتَدِبُ الْحَمَامُ
وَأَعْقَبَ بَيْنَهَا فِي الصَّدْرِ غَمًا * إِذَا غَرَبَتْ ذَكَاهُ أُنَى الظَّلَامُ

التقرب بالدموع

خير ما تقرب به المحب الى حبيبته دمع مسفوح ، وقلب مجروح
 ووجد مشبوب ، وصبر مغلوب ١١ والتقرب بالدمع نوع من
 الاستعطاف تغزى به قلوب الحسان ، ومن طريقه قول الابيوردي
 أشكو الهوى لترقى يا أئمة لي * فطالما رفق المشكو بالشاكي
 يشقى ببعضى بعضى فى هوالكفا * العين باكية والقلب يهواك
 وهذا المعنى غير معروف عند العرب . فهم يرون بكاء العين
 من فضل حزن الفؤاد ، حتى ليقولون : نعمت العين ، وشقى
 القلب . ولكن الابيوردي عكس المعنى ، فجعل نعيم القلب فى
 الهوى ، وعذاب العين فى البكاء ، ثم قال :
 إن يحك ثغرك دمعى حين أسفجه * فأننى جدت للمحكي بالحاكي
 ما كنت أحسب أن الدر مسكنه

يكون جيدك أو عيني أو فاك

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف :

أهون بما حملتنيه من الضنى * لو أن طيفك كان من عوادى
 ولقما زار الخيال بمقلة * روعاء نافرة بغير رقاد
 ما تلتقى الأجفان منها ساعة * وإذا آلتقت فلغض دمع باد
 لا يبعدن قلبى الذى خلفته * وقفاً على الإتهام والإيجاد

إن الذي غمر الرقاد وساده * لم يدرك كيف نبا على وسادى
ولقد بعثت من الدموع اليكم * بركائب ومن الزفير بجادى
لولا هواك لما ذلت وانما * عزى يعيرنى بذل فؤادى
وهكذا يجمع الشريف الرضى بين العزة القرشية، والدلة
العذرية: فهو عزيز ذليل !! وللبحترى حوار لطيف فى هذا
الباب، فمن ذلك قوله:

صلى مغرمًا قد وَاثَرَ الشوقُ دمعهُ

سجّامًا على الخلدَيْنِ بعد سجّام

فليس الذى حلّته بمحلال * وليس الذى حرّمته بحرام
وقد ردد هذا المعنى فى موطن آخر فقال:
أُلامُ على هوائك وليس عدلاً * إذا أحببت مثلك أن ألاما
فقد حرّمت من وصلى حلالاً * وقد حللت من هجرى حراما
ولا يسعنى وقد أسرف البحترى فى ذكر الحرام والحلال،
إلا الرجاء فى أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب !! وقد
رق شعر العباس ابن الأحنف حين يقول:

أما أستوجب عيني فديتك نظرة

إليك وقد أبكيتها حججاً عشرا

لعمري لئن أقررت عيني بنظرة

إليك لقد عذبتها بالبكا دهرا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية :

جرى السيل فاستبكاني السيل اذ جرى

وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه * يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أجاباً دونكم فاذا انتهى

اليكم تلقى طيبكم فيطيب
أياسا كني أكناف دجلة كلم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

وقد تلطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله :

يا موحش العين التي * أنست بطول بكائها

غادرت بين جوانحي * نفساً تموت بدائها

تشتاق عيني أن ترا * ك وأنت في سودائها

فإذا بخلت بنظرة * سمحت بجمّة مائها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء

وقلتُ شهودي في هواك كثيرة

وأصدقها قلبي ودمعي مسفوح

فقال شهودي ليس يقبل قولها * فدمعك مقدوف وقلبك مجروح

وهو كلام قديمئن له الفقهاء والمحدثون ، لطول ما يبحثون في

القذف والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء !!

وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد ، ومن شعراء العصر من
أجاد هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول :

يا أهل أسيوط لا زلتُم بعافية * وإن تمرَّدَ في وجدى بكم دائي
أسلمتوني لدهرى بعد ما بليت

من قسوة الصّدِّ والتَّبريح أحشائي
فلو أتت ظبيّةُ الحمراء غازیة * قلبي لما وجدته غير أشلاء^(١)
يا وئح نفسي ، أتنسوني وأذكركم
مُقرَّحَ الجفون في صبح وإمساء

*
*

إن الذين بأمر الحب قد ملكوا
لم يتقوا الحب في ضرّى وإيذائى
لم يُدِننى الشوق يوماً من منازلهم
إلاّ تولّوا مع الأيام إقصائى
كم رُحْتُ أُحمل آمالى لحیهم * وعدتُ أُحمل آلامى وأرزائى
يالوعة القلب لا شكواى نافعة

ولا بكأى بشافٍ مسّ ضرّائى
أبيت أُنذب عهداً مرّاً طيّبه * كَلِجَة البرق في أعطاف ظلماء

(١) الحمراء حتى جيل من أحياء أسيوط

وأرسل الزفرة الحراء لائحة * كوقدة الجمر في آجام قصباء

* *

يا من يعزُّ علينا أن نجازيهم * صدأ بصدٍ وإغضاء بإغضاء
لو ترحمون وصلتم شيئاً كلفاً * ألقى جفاكم عليه ألف بأساء



ثورة الوجد

نذكر هنا طرفاً من الشعر الموجه ، الذي يمثل ثورة الوجد ،
ولوعة الأسي ، فمن ذلك قول أبي تمام :

سقيمٌ لا يموتُ ولا يفيقُ * قد اقرحَ جفنهُ الدمعُ الطليقُ
شديدُ الحزنِ يحزنُ من يراهُ * أسيرُ الصبرِ ناظرهُ أريقُ
صَجميعُ صبايةٍ وحليفُ شوقٍ * تحمّلُ قلبه ما لا يُطيقُ
يَظَلُّ كأنه مما احتواه * يُسعرُ في جوانبه الحريقُ

وأي حال أدعى للرحمة ، وأوجب للإشفاق ، من حال هذا
الحب السقيم ، الذي لا يموت ولا يفيق . والذي يحزن من يراه :
لصبره الأسير ، وناظره الأريق ، والذي حالف في ضعفه الشوق
وضائع الصباية ، حتى لكانت به تسعر النار في ضلوعه ؟
ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خلانته :
لم يسترح من له عينٌ موروقةٌ

وكيف يعرف طعم الراحة الأرق ؟
محمدٌ وعلىٌ فتتا كبدي * إذا ذكرتهما والعيس تنطلقُ
خلان حل بقلبي من فراقهما

ما كنت أحذر منه قبل نَفْثِ
قلبٌ رقيقٌ تلظت في جوانبه * نار الصباية حتى كاد يحترقُ

وَدِدْتُ لَوْ تَمَّ لِي حَبْسِي بِقَرْبِهِمَا * مَا كُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ يَتَّفَقُ
وَمَا يَمْتَلِ ثَوْرَةُ الْوَجْدِ فِي الصَّدْرِ ، مَعَ الْغَيْظِ مِمَّا جَنَّتْ يَدُ
الْيَالَى ، قَوْلَ الْمُتَنَبِّى :

أَكِيدُ أَلْنَا يَابِينَ وَاصِلَتْ وَصَلْنَا * فَلَا دَارَ نَا تَدْنُو وَلَا عَيْشَنَا يَصْفُو
أَرْدَدُوْنِي ، لَوْ قَضَى الْوَيْلُ حَاجَةً * وَأَكْثَرُ لَهْفِي ، لَوْ شَفَا غَلَّةَ لَهْفٍ
ضَنَى فِي الْهَوَى كَالسَّمِ فِي الشَّهْدِ كَامِنًا

لَدَدْتُ بِهِ جَهْلًا وَفِي اللَّذَّةِ الْخُتْفُ
وَكَانَ الْأَيُّورْدَى يَمْتَلِ وَجْدَهُ بَوَجْدِ الظُّبْيَةِ تَتْرَكَ وَلَدَهَا فِي
طَلَبِ الْكَلَامِ ثُمَّ تَعُودُ سَرِيعَةً إِلَى لِقَائِهِ فَتَجِدُهُ مَاتَ ! وَإِلَيْكَ مِنْ
شَعْرِهِ هَذِهِ اللَّوْلُؤَةُ الْفَتَانَةُ :

وَمَا أَثْمُ سَاحِجِي الطَّرْفِ مَالٌ بِهِ السَّكْرَى
عَلَى عَذَابَاتِ الْجُزَعِ تَحْسِبُهُ قَلْبًا
تُرَاعَى بِأَحَدِي مُقْلَتِيهَا كِنَاسَهَا * وَتَرْمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظْرًا غَرَبًا
فَلَا حَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٍ * كَأَنَّ الرِّبْعَ الطَّلُقَ الْبَسَهُ عَصْبًا
فَمَالَتْ إِلَيْهِ وَالْحَرِيصُ إِذَا غَدَتْ * بِهِ سُورَةُ الْأَطْلَاعِ لَمْ يَحْمَدِ الْعُقْبَى
وَأَنَسَهَا الْمَرْعَى الْخَصِيبَ فَصَادَفَتْ

مَدَى الْعَيْنِ فِي أَرْجَائِهِ بِلَدٍّ خَصْبًا
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ أَلْبَابَةَ رَاجِعَتْ * طَلَاهَا فَأَقْتَهَ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبًا
أَتَيْجَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ * يَخْوُضُ إِلَى أَوَطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبًا

فولت على دُعْرِ وبالنفس ما بها

من الكرب لا لُقِيَتْ في حادث كربا

بأوجد منى يوم عَجَّت ركبها * لبين فلم تترك لذى صَبَوَ ليا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة،

وانما نسبناها إلى الأبيوردي لأنه يرددها في شعره، فمن ذلك

قوله في كلمة ثانية:

وما مُغْزَلٌ تعطوا الأراك يَهْزُهُ * نسيمٌ تناجيه الحماثل وان (١)

وترجى بروقيها أغنَّ كأنه

من الضعف يطوى الأرض بالرسفان (٢)

فمال إلى الظل الأراكى دُونها * وكانا به من قبل يرتديان

وُصِبَتْ عليه الطُّلس وهي سواغبٌ

تجوبُ إليه البيد بالفسلان (٣)

فعادت إليه أمه وفؤادها * هفّا كجنّاح الصقر في الخفّقان

وظلّت على الجرعاء ولهى كئيبةً

وقد سال واديه بأحمرقان

(١) المغزل: أم الغزال. الحماثل جمع نخيلة وهي: ألفاف الشجر

(٢) الرسفان: المشى في القيد (٣) الطُّلس: الذئب. والسواغب: الجياح. والفسلان

مشى الذئب إذا أسرع

تسوف الترى طوراً ويعبث تارة

بها أولق من شدة الوهمان ^(١)
بأوجد متى يوم سرت إلى الحمى

وقد نزلت سمرأه سفع أبان ^(٢)

ونحب أن نلفت القارىء إلى ما في أمثال هذه الصور الشعرية
من الكلف بتصوير الطبيعة، وما فيها من حياة الحيوان، فقد
أغرم شعراء الغرب بهذا الأسلوب، فزاد شعرهم جمالا إلى جمال.
ولولا الرغبة في الإيجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دي ميسية)
تماثل شعر الأبيوردى في هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس
في كل قطر، وفي كل جيل، والتباين قليل في الميول، وفي تذوق
ألوان الحياة، وإن عظم الفرق حيناً في التعبير عن نزعات النفوس
وشهوات العقول

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونة الوزير ابن زيدون،
وقد رأينا أن نثبتها هنا كاملة — كما فعل المقرئ صاحب نفيع
الطيب — لأنها ذكرت مفرقة في أكثر المؤلفات.

أضحى التناهى بديلاً من تدانينا * وناب عن طيب لقيانا تحافينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم * حزننا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي قد كان يضحكننا * انسا بقربهم قد عاد يبكينا

(١) تسوف: تشم. الأولق: الجنون (٢) أبان: جبل شرق الحاجر

غِيظَ العدا من تساقينا الهوى فدَعَوْا
 بأن نغصَّ فقال الدهرُ آميناً
 فاحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا * وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
 بالأمس كنا وما يخشى تفرُّقنا * فاليوم نحن وما يرْجى تلاقينا
 ياليت شعري ولم نُعتب أعاديكم
 هل نال حظاً من العُتبى أعاديننا (١)

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم * رأياً ولم نتقلد غيره ديناً
 كنا نرى اليأس تسليماً عوارضه * وقد يئسنا ، فما لليأس يغرينا
 بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا * شوقاً إليكم ولا جفت ما قينا
 نكاد حين تناجيكم ضمائرنا

يقضى علينا الأسى ، لولا تأسينا (٢)
 حالت لبعدهم أيماننا ففدت * سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا * ومورد اللوصاف من تصافينا
 وإذ هصرنا فنون الوصل دائية * قطوفها جئننا منه ما شينا
 ليسق عهدكم عهد السرور فما * كنتم لأرواحنا إلا رباحينا
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا * إذ طالما غير النأى المحيينا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلا * منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

(١) أعتبه : أرضاه . والعُتبى : الترضية . (٢) التأسى : التعزى

ياسارى البرق غادِ القصر فاسق بهِ

من كان صرف الهوى والود يسقيننا
واسأل هنالك هل عني تذكرنا * إلفاً تذكره أمسى يعنيننا ^(١)
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا * من لو على البعد حيا كان يحييننا
رييب ملك كأن الله أنشأه * مسكاً وقد أنشأ الله الورى طيننا
أوصاغه ورقاً محضاً وتوجه * من ناصع التبر إبداعاً وتحسيننا ^(٢)
إذا تأود آدته رفاهية

توم العقود وأدمته البرى ليننا ^(٣)
كانت له الشمس ظراً في أكلته * بل ماتجلى لها إلا أحيينا
كأنما نبئت في صحن وجنته
زهر الكواكب تعويداً وتزيينا
ماضراً أن لم نكسأ كفاءه شرفاً

وفي المودة كاف من تكافينا ^(٤)
ياروضة طالما أجنّت أوأظننا * ورداً جلاه الصبا غضا وتسرينا
ويا حياة تملأنا بزهرتها * منى ضروباً ولذات أفانينا ^(٥)
ويا نعيماً خطرنا من نصارته * وشى نعيمى سحبتنا ذيله حيننا

(١) عناء : أشقاء (٢) الورق ككتف : الفضة . (٣) تأود : تنق . آدته : أنقلته .
البرى : الخلائيل (٤) التكافى التكافؤ والتماثل (٥) تملأنا : تمتعنا

لسنانسميك إجلالاً وتكرمة * فقدرك المعتلى عن ذاك يُغنيننا
إذا انقردت وما شوركت في صفة
فحسبنا الوصف ايضاحاً وتبييناً

ياجنة الخلد أبداننا بسلكها * والكوفر العذب زقوماً وغسلينا
كأننا لم نبث والوصل ثلثنا

والسعد قد غص من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظالماء يكتمنا * حتى يكاد لسان الصبح يُفشيننا
لاغرّو في أن ذكرنا الحزن حين نهت
عنه النهي وتركنا الصبر ناسينا
إنّا قرأنا الأسي يوم النوى سوراً

مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أمّا هواك فلم نعد بمشربه

شرباً وإن كان يُروينا فيظميننا (١)

لم نجف ألقى جمال أنت كوكبه * سالين عنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنّبناك عن كذب

لكن عدّتنا على كره عوادينا (٢)

(١) الشرب بكسر الشين كالمشرب وهو المرد (٢) عن كذب : عن قرب

نأسى عليك إذا حُتَّت مشعشة * فينا الشمول وغننا مُغنيننا
لا أكوُس الراح تبدى من شمائلنا

سِما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
دوى على العهد مادما محافظة * فالحر من دان لانصافاً كما ديننا
فما استعضنا خليلاً عنك يحبسنا

ولا استفدنا حبيباً عنك يُغنيننا
ولو صبا نحونا من أفق مَطْلَمِهِ

بدر الدجى لم يكن حاشاكِ يصيبنا
أولى وفاء وإن لم تبدلى صلة * فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
وفي الجواب شفاء لو شَفَعَتْ به

بيض الأيادى التى ما زلت تولينا

وقد أغرم الشعراء بتخميس هذه القصيدة ، وتسديسها ،
وتشطيرها ، وكذلك شغلت الأذهان زمناً غير قليل . وقد
أرسل ابن زيدون هذه القصيدة الى معشوقته ولادة ، وهى سيدة
اندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الأمويين ، وقد كانت فى جمالها
شاعرة مجيدة ، ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون :
تَرَقَّبْ إِذَا جَنَّ الظَّلامُ زيارقى * فانى رأيتُ الليلَ أكتُمُ للسرِّ
وبى منك ما لو كان بالفجر لم يَلَحْ * وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يَسِرْ
ولابن زيدون فى ولادة مقطعات حسن ، كقوله :

واهاً لمطفك والزمان كأنما * صُغِتْ نضارتهُ يبرد صباك
والليل مهما طال قَصْر طوله * هَاتِي، وقد غفل الرقيب، وهالك
أَمَّا مَنَى نَفْسِي فَأَنْتَ جَمِيعُهَا * يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاك
يُدْنِي مِثْلَكَ حِينَ شَطَبَهُ النَّوَى * وَهُمْ أَكَادُ بِهِ أَقْبَلَ فَالِك
ومن موجه الشعر قوله :

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ مَا لَوْ شِئْتُ لَمْ يَضَع * سِرٌّ إِذَا ذَاعَتْ الْأَسْرَارُ لَمْ يَذْعِر
يَابِئاً حَظَّهُ مِنِّي وَلَوْ بُذِئْتُ * لِي الْحَيَاةُ بِحَظِّي فِيهِ لَمْ أَبْع
ولم يدقنا الاستاذ أنيس ميخائيل ولع غريب بأنشاد قول

ابن زيدون

أَنِي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا * وَالْأَفْقُ طَلَقَ وَوَجْهُ الرُّوضِ قَدْرًا قَا
وَلِلنَّسِيمِ اعْتِسَالٌ فِي أَصَائِلِهِ * كَأَنَّمَا رَقَّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَا قَا
وَالنَّهْرُ عَنْ مَائِهِ الْفَضَى مَبْتَسِمٌ * كَمَا حَلَّتْ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَا قَا
يَوْمٌ كَأَيَّامِ لَذَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ * بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سَرَّاقَا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ * جَالِ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالِ أَعْنَاقَا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرْقَى * بَكَتْ لِمَا بَنَى جَالِ الدَّمْعِ رَقْرَا قَا
وَرَدُّ تَأَلَّقَ فِي ضَاخِي مَنَابِتُهُ * فَازْدَادَ مِنْهُ الضَّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَا قَا
سَرَى يَنَافِخُهُ نَيْلُوفَرٌ عَيْقُ * وَسَنَانُ نَبِيٍّ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَا قَا
كُلُّ يَهِيْجٍ لَنَا ذَكَرِي تَشْوِقُنَا * إِلَيْكَ لَمْ يَعْذُ عَنْهَا الصَّدْرَانُ ضَنَا قَا
لَوْ كَانَ وَفَى الْمَنَى فِي جَمْعِنَا بِكُمْ * لَكَانَ مِنَ الْأَيَّامِ أَخْلَا قَا

لا سكن الله قلبا عن ذكركم * فلم يطر بجناح الشوق خفاقة
لوشاء حمل نسيم الريح حين هفا * وافاكم بفتى أضناه ما لاق
كان التجارى بمحض الود مذ زمن

ميدان انس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم * سلوتم وبقينا نحن عشاقا
وانى لفتون بهذا الشطر الحزين :

سلوتم وبقينا نحن عشاقا
فانه يمثل الحب ، وقد سلا أحبابه ، وبقي وحده يعانى آلام
الوجد ، وأهوال الصدود



الأرق والسهاد

شكا الشعراء قديماً وحديثاً طول الليل بعد الفراق ، وعند
 المهجر والصدود . فمنهم من يستنجد بحبوه ، ويستعديه على وحشة
 الليل ، ومضاضة الأرق ، كقول الأبيوردى :

أُمَيْمَ إِن خَفَيْتْ عَلَيْكَ صَبَابَتِي * فَسَلَى ظِلَامُ اللَّيْلِ كَيْفَ أَكُونُ
 واستخبرى غنى النجوم فقد رأت * سَهْرِي وَأَرْوَقَةُ الْغِيَاهِبِ جَوْنُ
 وَلئن أَدَلْتُ مَصُونٌ دَمْعِي فِي الْهَوَى * فَعَلَى الْبِكَاءِ يُعَوَّلُ الْحَزُونُ
 وهذه الابيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد ،
 وعبثه بكرائم النفوس . ومنهم من يستعين من حوله ويرجوهم
 أن يحدثوه عن النهار ، أو يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسى
 النهار ، وأوصاف النهار ، كما قال ابن الأحنف :

أَيُّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي أَعِينُوا * نِي عَلَى اللَّيْلِ حَسْبَةً وَائْتَجَارَا
 حَدِّثُونِي عَنِ النَّهَارِ قَلِيلاً * أَوْ صَفَوْهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا
 وابن الإحنف يجيد شكوى الليل الطويل ، والسهاد المملول
 فمن ذلك قوله .

نَامَ مِنْ أَهْدَى لِي الْأَرْقَا * مُسْتَرِيحًا سَامِنِي قَلْقَا ✓
 لَوْ يَبِيتُ النَّاسُ كُلُّهُمْ * بِسُهُادِي يَبْغِضُ الْحَدَقَا
 أَنَا لَمْ أَرْزُقْ مَوَدَّتِكُمْ * إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا

كان لى قلب أعيش به * فاصطلى بالحب فاحترقا
وتوجعنى شكواه فى قوله :

أنا لم أرزق مودتكم * إنما للعبد ما رزقا
فقد تكلف النفس بفتنة من فتن الحسن فى هذا الوجود ،
ثم لا تجد إليها السبيل ، على أن هذا الحسن قد يكون زمامه بيد
من لا يشعر بروعة الجمال

ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل ، فيظعن بذلك الكرى
عن جفونه ، كالبحترى حين يقول :

أمولعةً بالبين ربَّ تفرَّق * جرحت به قلبا بحبك مولعا
ولى لوعة تستغرق الهجر والنوى * جميعاً وحب ينقد الدمع أجمعا
على أن قلبى قد تصدع شمله * فنونا لشمل البيض حين تصدعا
ظعا ئن أظعن الكرى عن جفوننا * وعوضنا منه سهاداً وأدماً
نوين النوى ثم استجبن لهاتف * من البين نادى بالفراق فأسمعا
وحاوان كتمان الترحل بالدجى * فتمَّ بهن المسك حين تضوَّعا
وقد يفزع الحب الى تحكيم العدل والحق ، حين تطول
لياليه ، كقول ابن الرومى

أيا شمسَ النهار سناً وعزا * يقصر عنهما نظرٌ ولمس
أحل أن تنامى عن سهادى * ولى مذبان عنى النوم خمس
أميز كل شئ من أمورى * سوى أمرى لديك ففيه لبس

غرسست هوى فرييه بحفظ * فليس يرب بالتضييع غرس
ومن الشعراء من يفتن في وصف الليل فيذكر أن نجومه
أقسمت لا تزول كقول أحدكم:

ألا هل على الليل الطويل معين * اذا نزلت دار وحن حزين
أكابد هذا الليل حتى كأنما * على نجمه أن لا يغور يعين
ووالله ما فارقتم قاليا لكم * ولكن ما يقضى فسوف يكون
ومنهم من يزيد على ذلك شوقه الى تمزيق سرايل الليل ،
وظهور تباشير الصبح ، كقول حندج بن حندج :

في ليل صولٍ تنهى العرض والطول * كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى ان ظفرت به * وان بدت غرة منه وتحجبل
لساهر طال في صول تملأه * كأنه حية بالسَّوط مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخائله * والليل قدمزقت عنه السرايل
ليل تحير ما ينحط في جهة * كأنه فوق متن الارض مشكول
نجومه ركـد ليست برائلة * كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يدنى على شحط * من داره الحزن ممن داره صول
الله يطوى بساط الارض بينهما * حتى يرى الربع منه وهو مأهول
نعم وما أقدر الله أن يدنى على النوى من داره سنتريس ممن
داره أسبوط ا

لوددت إذ سكنوا هنالك دارهم * وعدتهم عنا أمور تشغل

أنا نطاع إذن فتنقل أرضنا * أو أن أرضهم لنا تنقل
وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال :
رب ليل كأنه الدهر طولا * قد تناهى فليس فيه مزيد
ذى نجوم كأنهم نجوم الشيب ليست نزول لكن تزيد
قال أبو بكر الوليد بن البراز : كان علي بن الجهم يستنشدني
كثيراً شعر خالد الكاتب فأنشده فيقول : ما صنع شيئاً . ثم
أنشدته يوماً قوله :

رقدت ولم ترث للساھر * وليل المحب بلا آخر
ولم تدر بعد ذهاب الرقا * ما صنع الدمع بالناظر
فقال : قاتله الله ! لقد أدمن الرمية حتى أصاب الغرة . وجمال
هذا الشعر يرجع الى شكوى المحب ما صنع الدمع بناظره بعد
جفوة النوم ، ومثله قول أبي العتاهية :

أمسى ببغداد ظي لست أذكره * إلا بكيت اذا ما ذكره خطرا
إن المحب اذا شطت منازلہ * عن الحبيب بكى أو حنّ أو ذكرا
يارب ليلٍ طويلٍ بت أرقبه * حتى أضاء عامود الصبح فانهجرا
ما كنت أحسب إلا مدعرتكم * أن المضاجع مما ينبت الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب على

عين الشجيّ إذا ما نومه نفرا
ومن المحبين من يخاطب الليل فيذكر في خطابه أن بعض

ما به كافٍ لحو الليل لو عَرَضَ له : كقول سعيد بن حميد :

يا ليل بل يا أَبَدُ * أنا نائمٌ عنك غَدُ

يا ليل لو تلقى الذى * ألقى بها أو تجدُ

قصر من طولك أو * ضعف منك الجلدُ

أشكو الى ظالمة * تشكو الذى لا تجدُ

وقف عليها ناظرى * وقف عليها السهدُ

وأودُّ لو تنبه القارىء إلى حسن هذا البيت :

أشكو إلى ظالمة * تشكو الذى لا تجدُ

وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال :

يقولون طال الليل والليل لم يطل

ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال :

لم يَطُلْ ليلي ولكن لم أنم * ونفى عنى السكرى طيف ألم

وإذا قلت لها جودى لنا * خرجت بالصمت عن لا ونعم

نفسى يا عبدة عنى واعلمى * أننى يا عبدة من لحم ودم

إن فى بُردى جسما ناحلا * لو توكأت عليه لانهدم

وقد ردّد هذا في كلمة ثانية فقال :

طال هذا الليل بل طال السهر * ولقد أرف ليلي بالقصر

لم يطل حتى جفانى شادن * ناعم الاطراف فتان النظر

لى فى قلبى منه لوعة * ملكت قلبى وسمعى والبصر
وكأنّ الهم شخص مائل * كما أبصره النوم نقر
على أن بشارا يتخطى هذا الحد ، فيجارى الشعراء ، ويحسب
أنّ ليس ليله نهار ، وذلك فى قوله :

أقول وليلى تزداد طولاً * أما لليل بعدهم نهار
جفت عيني عن التغميض حتى

كأنّ جفونها عنها قصار
وليس للبيت الثانى قيمة من الوجهة الأدبية ، لأن الغمض
لا يجفو العيون لقصر الجفون ، كما يقول . وإنما يجفوها لثورة
الوجد ، وهجمة الأشجان !
ويقول فى كلمة ثانية :

خليل مابال الدجى لا ترزح * وما لعمود الصبح لا يتوضح
أضل النهار المستنير طريقه ؟ * أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟
وطال على الليل حتى كأنه * بليلىن موصول فما يتزحزح
والبيت الأخير ذكرنى بقول صاحب البدائع :

وجن على الليل حتى حسبته * جفاء كريم أوجاء لثيم
وإن كان هذا فى الحديث عن ظلام الليل ، لا عن طوله
وتروقى البساطة فى قول سويد بن أبى كاهل
وإذا ما قلت ليل قد مضى * عطف الاول منه فرجع

يسحب الليل نجومًا ظلماً * فتواليها بطيئات التبّع
والخيال هنا خيال بادية . ولكنه في بداوته بديع .
وقول الآخر

سلوا مضجعي هل قرّ من بعدُ بعدكم
وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمان ونتم بيابل * فيالعيون ما وفّت لعيون
وهو يذكرني بقول بعض الأعراب :
لعمري لئن كنتم على النأى والغنى
بكم مثل ما بي إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم
ولا ساغ لي بين الجوانح ريق
إذا زفرات الحب صعّدن في الحشا
كررن فلم يعلم لهنّ طريق
ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق ، وذكرى ليل
الوصال ، قول عبد الرحمن بن هشام :

طال عمر الليل عندي * مذ تولعت بصدى
ياغزالاً نقض العهد ولم يوف بوعده
أنسيت العهد إذبتنا على مفرش ورد
واجتمعنا في وشاح * وانتظمتنا نظم عقد

ونجوم الليل تمحى * ذهباً في لاز ورِدِ
ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب، كقول
ابن زيدون :

يا ليلُ طُلِّ لا أشتهى * إلاَّ لعهدى قصرَكُ
لوبات عندي قمرى * مابتُ أرعى قمرَكُ

وليالى القمر فى سنتريس عذبة المذاق ، شهية الورود ، وما
أحسب المصريين عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر فى
ضواحي سنتريس ، ذات الظلال والأفنان

ليالى النيل والذاتُ ذاهبةٌ * وجدى عليكى أشجائى فأضناني
لو يرجع الدهر لى منكى واحدةً * فى سنتريس ويدنى بعضُ خلانى
إذن تبينَ دهرى كيف يرحمنى * من ظلم همى ومن عدوانِ أحزانى
وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق فى الليل الطويل . فمن
ذلك قول شوقى :

بدأ الطيف بالجميل وزارا * يارسول الرضا وقيت العثارا
خذ من الجفن والفؤاد سبيلا * وتيمم من السويداء دارا
أنت إن بت فى الجفون فأهلى * عادة النور ينزل الابصارا
زار والحرب بين جفنى ونومى * قد أعدت الدجى لها أوزارا
سألتنى عن النهار جفونى * رحم الله يا جفونى النهارا
قلنَ نَبكيه قلت هاتى دموعاً * قلنَ صبرا فقلت هاتى اضطبارا

يا ليليَّ لم أجِدكِ طويلاً * بعد ليلى ولم أجِدكِ قصاراً
 إن من يحمل الخطوب كِبَراً * لا يبالى بحملهنَّ صغاراً
 لم نَفَق منك يا زمان فنشكو * مَدْمَن الخمر ليس يشكو الخماراً
 وقال حافظ

سكن الظلامُ وبات قلبك يخفقُ * وسطاً على جنبيك همٌّ مُقْلِقُ
 حارَّ الفراش وحرَّت فيه فأنما * تحت الظلام معذبٌ ومُؤرِّقُ
 دَرَجَ الزمان وأنت مفقود المني * ومضى الشباب وأنت ساء مطرقُ
 وقال القاياتي :

جن الظلام فما يزاح * يا ويلتنا أين الصباح
 ليلٌ كأن نجومه * يطلعن في كبدى جراح
 يا من أتاح لي الآسى * بردُ الفؤاد متى يتاح
 قلب أساه لآعج * لولا تحجبه لفاح
 فما بال دمي يُستبأ * حو حاجتي ليست تباح
 وقال العقاد يخاطب الليل :

طويتَ أزمّةَ الأجساد منا * فدانت وانطوت عنك القلوبُ
 فما تدرى ألتسكن حين مالت * إلى تلك المضاجع أم تجوبُ
 وما تدرى أباتت في جحيم * أم الجنات مرتعها الخصبُ
 وما تدرى أيسمع في دجاها * هتاف للبلابل أم نعيبُ
 عقدت من الكرى وطناً رفيقاً * وكل مسهدٍ فيه غريبُ

تضييق به الوسائد والحشايا * وتلفظه المسالك والدروب
وحيد لا يقاربه بعيد * ولا يدرى بلوعته القريب
فيا وطن النيام بكل فج * أمن حرج بك السهد المريب
ويا سكن الأوبة والأعادي * أليس بساحليك لنا نصيب
ويا دار السلام بأى سيد * يصد الطرف مربعك الرحيب
لئن هجعت بساحتك المآقي * لما هجعت بساحتك الخطوب
كأن جموعهن سباع ليل * تبیت على فرائسها تلوب
فهل عند الظلام لنا حديث * يحاذر أن يلمّ به رقيب
أم أدخر الظلام لنا متاعاً * يضمن بامحه الحلم الكذوب
سهرنا يا ظلام فلم يصبنا * على طول المدى إلا الشحوب
وإلا حلقة فيها تلاقى * سواد القلب والطرف الكئيب
والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل ، وقد
يشجيك حين ينظر الى نفسه فيحسبها من اليأس أمست وهى
خراب ينبع على أطلالها اليوم . وانظر كيف يقول :
وناعبة صاحت وليال هجعة * فقال علام اليوم ينبع ناعيا
تقبحت من عمياء تقرأ فى الدجى

إذا اسود أسطار الخراب الخوافيا

فقلت على النفس التي سوف تغتدى

طلولا بأحناء الضلوع حوانيا

تجوسُ فاعى الحزن فى جنباتها * وياربما تؤوى الضاوع الأفاعيا
فلا تحسبنَّ اليومَ تنعى المغانيا * فقد تندب اليوم النفوس البواليا
وكم وحشةً للنفس يخشى اقتحامها * أخوغمراتٍ ليس يخشى الفيافيا

وما أجل قوله فى هذه القصيدة

ولما تقضى الليل إلا أقله

وحان التنائى جشتُ بالدمع باكيا

فأقبل يرعانى ويبكى وربما

بكى الطفل للباكى وإن كان لاهيا

وزحزحنى عنه بكف رفيقة * وأسبل أهداب الجفون السواحيا

يقول لقد ران السكرى وتفرقت

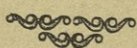
نجوم الدجى والديك أصبح داعيا

فقلت وكم من ليلةٍ إثر ليلةٍ

سهرتُ وقد أمسيتَ وحدك غافيا

فهب لوداعى من رقائك ليلةً * تمرُّ فانى قد وهبت حياتيا

وأسلمتُ كفى كفه فأعادها * وقلبي! فهلا أرجع القلب ثانيا



الطبيعة في أنفاس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعة ، حتى
لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم ، لا يشاركون فيها أحد من العالمين
ونريد أن نبين في هذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا
النهل ، ونعموا صدام بمائه العذب الفرات ، فإن الطبيعة ملك
لجميع العيون ، في جميع الأقطار . والشعور بها ، والجنوح إليها
من حاجات الفطرة ، التي تسوى بين مختلف الشعوب ، والتي تجمع
حولها شتى العواطف والأهواء

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكثروا من وصف السحاب :
إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، واذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة
لدوى الرعد ولمع البرق : على أن شعراء العرب لم يقصروا في هذا
الباب . ويكفي أن نذكر قول البحترى يصف سحابة :

ذات ارتجازٍ بحنين الرعدِ * مجرورةٌ الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع لغير وجدٍ * لها نسيمٌ كنسيم الوردِ
ورثةٌ مثل زئير الأسدِ * ولمع برقٌ كسيوف الهندِ
جاءت بهاريج الصبا من نجدٍ * فانتشرت مثل انتشار العقيدِ
فراحت الأرض بعيش رعدٍ * من وشى أنوار الرثي في بردِ
كأما غدرانها في الوهدِ * يلعبن من حبابها بالنردِ

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب الى الطبيعة
وإخلاصهم الى مواردها الشهية ، أنهم يقرنون الحنين الى معاهدهم
بالدعاء لها بالسقيا وتراوُح النسيمات . واليك قول الشريف :
أمعاهدَ الأحباب هل عودٌ الى

مغدَى نَبْلُ به الجوى ومَراح

يكفيك من أنفاسنا ودموعنا

أن تُمطرى من بعدنا وتراحي

فلربّ عيش فيك رقّ نسيمه * كلاء رقّ على جنوب بطاح
وتغزل كصبا لأصائل أيقظت * رياء خزامى باللوى وأقاح
كم فيك من صاحي الشمائل مُنتش

بالدّل أو مرضى العيون صبحاح

فسقى اللوى صوب الغمام ودرّ

وسقى النوازل فيه صوب الراح

وقد يقوى شعورهم « بشخصية » الطبيعة ، حتى ليخاطبون

الفلّك الدائر ويندرونه بالفناء ! انظر قول البحترى :

أناة أيها الفلّك المُدار * أنهب ما تصرف أم جبار
ستفنى مثلما مأتقنى وتبلى * كما تبلى فيدرك منك ثار
تناب النائبات اذا تناهت * ويدمر فى تصرفه الدمار

وما أهل المنازل غير ركبٍ * مطاياهم رواحٌ وابتكارٌ

وانظر قول أبي القاسم ابن هانيء :

تفنى النجوم الزُّهْرُ طالعةٌ * والنيران الشمسُ والقمرُ

ولئن تبدَّت في مطالعها * منظومةٌ فلسوف تَنْتَثِرُ

ولئن سعى الفلكُ المدار بها * فلسوف يُسلمها وينفطرُ

وانظر قول العتابي في وداع جارية له :

ما غناء الحذار والإشفاق * وشأيب دمعك المهرَّاقِ

ليس يقوى الفؤاد منك على الوجدِ ولا مقلتا طليح المآقي

غَدَرَات الأيام منتزعاتٌ * ما جنينا من طول هذا العناقِ

إن قضى الله أن يكون تلاقٍ * بعد ما ترأين كان تلاقِ

هوِّنِي ما عليك واقفِي حياءً * لست تبقين لي ولست بيباقِ

أينا قدَّمتْ صروف المنايا * فالذي أخرت سريع الحاقِ

غُرَّ من ظن أن تفوت المنايا * وعراها قلائد الأعناقِ

كم صفيين مُتَّعا باتفاقٍ * ثم صارا لغربةٍ وافتراقِ

قلت للفرقدين والليل مُلقٍ * سودَ أكنافه على الآفاقِ

ابقيا ما بقيتما سوف يُرمى * بين شخصيكما بسهم الفراقِ

وانما قلت «شخصية الطبيعة» لأدل القاريء على مبلغ ما سما اليه

العرب حين كلفوا بالنظر الى الوجود ... وانظر قول الحسن بن

وهب في وصف النار وقد نقرَّت منها إحدى الجوارى الحسان :

بأبي كرهت النارَ حتى أُبِدَّت * فعلمت ما معنأك في إبعادها
هي ضرةُ لك في التماع ضيائها * وهبوب نفحتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك في القلوب صنيعها

بسيالها وأراكها وعدادها

شَرَ كُنْكَ في كل الأمور بفعلها * وضيائها وصلاحها وفسادها
ولينظر القارئ نظرة خاصة الى قول علي بن شعيب :

انزعى الوشى فهو يسترُ حسناً * لم تحزه برقهن الثياب
ودعيني عسى أقبل ثغراً * لذَّ فيه اللعى وطاب الرضابُ
وعجيبٌ أن تهجريني ظالماً * وشفيعي الى صباك الشباب
فأنا نجده تخطى كل الأسوار الصناعية التي يُحيط بها الشعراء
أغراضهم ثم هجم على المعنى وأخذ بنواصيه ، حين قال « وشفيعي
الى صباك الشباب » ولم يقل : وشفيعي الى صباك حي وهيامي ،
ووجدى وغرامى ، وخشوعى وخضوعى ، الى آخر ما يقول
المتيمون .

وانظر قول محمد البطليوسى :

غصبوا الصباح فقسموه خدودا

واستنهبوا فُضْبَ الأراك قدودا

ورأوا حصا الياقوت دون محلم * فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حديق المها أجفانهم * فسبوا بهنّ ضراغماً وأسودا

لم يكفهم حمل الأُسنة والطُّبَا * حتى استعانوا أعينا ونهودا
وتضافروا بضفائر أبدت لنا * ضوء النهار بلبيلها معقودا
صاغوا الشغور من الأُقلحى بينها * ماء الحياء لو اغتدى مورودا
ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولا يغيب على أحد
ما فيه من سمو الخيال

وانظر كيف يكون كُون الختف في الجفون ، وكُون الموت
في السيوف ، في قول السرى الرفاء

بنفسي من أجود له بنفسى * ويبخل بالتحية والسلام
ويلقاني بغزةٍ مستظيل * وألقاهُ بذلةٍ مستهام
وحقيق كامنٌ في مُقلتيه * كُون الموت في حد الحسام
ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني
الوجدانية فكانما يريدون أن يشرخوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم
وهذا في ذاته ملحظ بديع : ولننظر في قول صرّدر :

يقول خليلي والضياء سوانح
أهذى التي تهوى ؟ فقلت نظيرها
لئن أشبهت أجيادها وعيونها

لقد خالفت أعجازها وصدورها
فيا عجباً منها يصد أنيسها * ويدنو على دُعر الينا نفورها
وما ذاك إلا أن غزلان عامرٍ * يثبّن بأن الزائر ينصقورها

ووالله ما أدرى غداة نظرنا * أتلک سهام أم كؤوس تديرها
فان كن من نبل فاین حفيها * وإن كن من خمر فاین سرورها
أيا صاحبي استأذنا لى خمرها

فقد أذنت لى فى الوصال خدورها

هباهما تجافت عن خليل يروعها * فهل أنا إلا كالخيل يزورها
وقد قلتما لى ليس فى الارص جنة

أما هذه فوق الركائب حورها

فلا تحسبا قلبى طليقا فانما

له الصدر سجن وهو فيه أسيرها

أراك الحمى قل لى بأى وسيلة * وصلت الى أن صادفتك ثغورها
وان فروع البان من أرض بيشة * حبيب الى ظلها وحرورها
ألذ من الورد الجنى عرارها * وأحلى من الشهد المصنى بريرها
على رساكم فى الحب إنا عصابة

إذا ظفرت فى الحب عفا ضميرها

ولسنا بصدد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق فى النظر
الى الطبيعة فان هذا باب طويل . وإنما نشير فقط الى أن الناس
سواء فى الاحساس بمظاهر الوجود . وإنما يختلفون فى طرائق
التعبير وأساليب البيان

مداراة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة . فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم . كقول ابن المعتز :
أرد الطرف من حذرٍ عليه * وأمنحه التجنب والصدودا
وأرصد غفلة الرقباء عنه * لتسرق مقلتي نظراً جديداً
وكقول السرى الرقاء :

ونواظرٍ وجد الحب فتورها * لما استقل الحى في أعضائه
ما كان هذا البين أول جمره * أذكت لهيب الشوق في أحشائه
لولا مساعدة الدموع ودفعها

خوف الفراق أتى على حوائه (١)

وأنا الفداء لمن مخيلة برقه * حظى وحظ سوى من أنوائه
قر إذا ما الوشى صين أذاله * كيما يصون بهاءه بدعائه (٢)
خفر الشمايل لو ملكك عناقه * يوم الوداع وهبته لحيائه
ضعفت معاهد خصره وعهوده * فكان عقد الخصر عقد وفائه
أدنو الى الرقباء لا من حبهم * وأصد عنه وليس من بغضائه
وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العميرى

أيا نخلتى مرّان هل لى اليكما * على غفلات الكاشحين سبيل

(١) الحوياء : النفس (٢) أذاله : أهانه

أُمنيكما نفسى إذا كنت خالياً * ونفعمكما إلا العناء قليل
ومالى شيءٌ منكما غير أنى * أُمْنى الصدى ظليكما فأطيل
ومن المتيمين من يرجو من حبه مقارعة الوشاة . كقول
أحمد الشعراء :

تبدل هذا السدر أهلاً وليتنى
أرى السدر بعدى كيف كان بدائله
وعهدى به عذبَ الجنى ناعم الذرى
تطيب وتندى بالعشى أصائله
فمالك من سدرٍ ونحن نخبه * إذا ماوشى الواشى بنا لا تجادله
كألو وشى بالسدر واش رددته * كئيباً ولم تصلحَ لدينا شمائله
وكقول كثير :

فيا عزَّ إن واشٍ وشى بىَ عنديكم
فلا تسكرميه أن تقولى له أهلاً
كألو وشى واشٍ بعزةً عندنا * لقلنا تزحزح لاقريباً ولا سهلاً
وقد يعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما ادَّعوا من سلوانه
كقول أبي حية النميرى :

وخبرك الواشون أن لن أحبكم * بلى وستور الله ذات المحارم
وإن دماً لو تعلمين جنيته * على الحى جانى مثله غير سالم
أصدُّ وما الصدى الذى تعلمينه * عزاء بنسا إلا ابتلاع العلاقم

حياء وثقيلاً أن تشيع نيمته * بنا وبكم ، أفٍ لأهل المنام
ومن المعذنين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده ، في حين
أن من يهواه ياتمر بأمر الوشاة ويسمع نصيح اللامئين
فمن ذلك قول الأبيوردى :

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى
وأقتل الحافظ الملاح كحليها
مريضة أرجاء الجفون وإنما
أصح عيون الغانيات عليها
فولت وقد أبت بقلبي علاقة * تمر بها الأيام وهي مقيلها
وقلت لأدني صاحبي وقد وشى
بسرى دمعى إذ تراءت حمولها
ذر اللوم إني لست أروعك مسمعى
فتلك هوى نفسى وأنت خليلها
وليت لساناً أرهف العذل غربه
على الصب مفلول الشبابة كليها
أرد عذولى وهو يحضنى الهوى
بغيط ، ويحظى بالقبول عذولها
ويعتادنى ذكر العقيق وأهله
بحيث الحمام الورق شاد هديلها

تنوح وتبكي فوق أفنان أَيْكَةٍ
فَدَاهَنَ من أرض العراق نخيلها
ولولا تباريح الصبابة لم أَبْلَ * بكاهها ولا أذرى دموعي عويلها
ومن بديع الشعر في مدافعة الوشاة قول الرصافي الاندلسي
في غلام حائك :

قلوا وقد أكثروا في حبه عذلى
لو لم تهم بمُذال القدر مبتذل
فقلت لو كان أمرى في الصبابة لى
لأخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى
علَّقَتْهُ حَبِيبِي الشَّغْرَ عَاطِرَهُ * حلو اللمى ساحرَ الاجفان والمقل
غَزِيلٌ لم نزل في الغزل جائِلَةً
بنائه جَوْلَانُ الفِكر في الغزل
جزلان تلعبُ بِالْحَوَاكِ أَمَلُهُ * على السدى لعب الأيام بالأجل
صَمًا بِكَفِيَةٍ أَوْ فَصًّا بِأَخْصِهِ * تَخْبِطُ الظبي في أشراكِ مُحْتَبِلِ
وأحب لو تأمل القارىء هذه (الصور الشعرية) التى تمثل
هذا الحائك الجميل بالظبي يتخبط في الأشراك . وإنها لو ثبته
من وثبات الخيال



بُخْلُ الْحَسَنِ

نذكر هنا طرفاً مما قال الشعراء في بُخْلِ الْحَسَنِ : وكل
حَسَنَاءٍ بُخِيلَةٍ ، وكل جَمِيلٍ ضَنِينٍ ، وأشهر الشعر في هذا المعنى
قول مَهْيَارَ :

يَا لَوَاةِ الدِّينِ عَنْ مَيْسِرَةٍ * وَالْبُخِيلَاتِ وَمَا كُنْ لَنَا مَا
تَحْمَلُوا رِيحَ الصَّبَا نَشْرُكُهُمْ

قَبْلَ أَنْ تَحْمَلَ شَيْحَاؤُ خَزَائِي
وَأَبْعَثُوا إِلَى الْكَرَى طَيْفَكُمْ * إِنْ أَذْنَمَ لَجَفُونِي أَنْ تَنَامَا
وَيَجْمَلُ بِنَا أَنْ نَذْكُرَ قَصِيدَةَ كَثِيرِ التَّائِيَةِ ، ففيها صورة
شعرية لصِدْقِ اللُّوْعَةِ ، عند بُخْلِ الْحَبِيبِ . وهى فوق ذلك غُرَّةٌ
مِنْ غُرَرِ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ . قَالَ :

خَلِيلِي هَذَا رُبْعَ عَزَّةٍ فَاعْقِلَا * قَلَوْصِيكَا ثُمَّ أَبْكِيَا حَيْثُ حَدَّتْ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزَّةٍ مَا الْبَسَا

وَلَا مَوْجَعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ
فَقَدْ حَلَفْتُ جَهْدًا بِمَا نَحَرْتُ لَهُ
قُرَيْشٌ غَدَاةَ الْمَآزِمِينَ وَصَلَتْ
أَنَادِيكَ مَا حَجَّ الْحَجِيجُ وَكَبَرَتْ
بِفَيْفَا غَزَالٍ رُقُقَةٍ وَأَهْلَتْ

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها * كناذرة نذراً فأوفت وحلت

فقلت لها يا عَزُّ كل مصيبةٍ

إذا وُطِّنت يوماً لها النفس ذلت^(١)

ولم يلقَ إنسانٌ من الحب مِيعَةً

تعم ولا غمّاً إلا تجلّت^(٢)

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت

من الصَّمُّ لو تمشى بها العَصَمُ زلت^(٣)

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلةٍ

فمن مل منها ذلك الوصل ملّت^(٤)

أباحَتْ حَيٍّ لم يرَعه الناس قبها

وحلّت تلاعاً لم تكن قبلُ حلّت^(٥)

فليت قلوبى عند عزةٍ قيّدت * بحبل ضعيف غرّ منها فضلت

وغودر فى الحى المقيمين رحلها * وكان لها باغٍ سواى فبليت^(٦)

وكنت كذى رجلين رجل صحيحةٍ

ورجل رمى فيها الزمان فشلت

(١) ذلت : هانت (٢) المِيعَةُ والفَاءُ . القُدَّةُ . وتجلّت : انصرفت (٣) الصَّمُّ : جمع أعصم وهو من الأطباء والوعول مافى ذراعيه أو أحدهما يياض وسائرهُ أسود أو أحر . وزلت : زلقت (٤) صفوح : معرضة (٥) التلاع : جمع تلمة وهى ما ارتفع من الأرض (٦) بليت المطلية : ضلت

وكنت كذات الظلم لما تحاملت

على ظللها بعد العثار استقلت^(١)

أريد الثواءَ عندها وأظنها * اذا ما أطلنا عندها المكث ملت

فما أنصفت أما النساء فيبغضت * إلى وأما بالنوال فضنت

يكلنّها الغيرانُ شتمى وما بها

هوانى ولكن للمليك استذلت

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ * لعزة من أعراضنا ما استحلّت

فوالله ما قاربت إلا تباعدت * بصرم ولا أكثرت إلا أقلّت

فإن تكن العُتبي فأهلاً ومرحباً * وحقّت لها العُتبي لدينا وقلت^(٢)

وإن تكن الأخرى فإن وراءنا

منادح لو سارت بها العيس كلّت^(٣)

فلا يبعدن وصلّ لعزة أصبحت

بعافية أسبابه قد تولّت

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة * لدينا ولا مقلية إن تقلّت^(٤)

ولكن أنيلي وأذكرى من مودة

لنا خلّة كانت لديكم فطلّت

(١) ظلع البعير : غمز في مشيه . واستقل : نهض من عثرته (٢) العتبي والاعتاب : الترضية

(٣) المنادح : جمع مندوحة وهى ما اتسع من الأرض (٤) تقلّت : ظهرت بالقلى وهو

البغض . ومقلية : مبغوضة

فانى وإن صدت لثمن وصادق

عليها بما كانت إلينا أزلت^(١)

فما أنا بالداعى لعزة بالجوى

ولا شامت إن نعل عزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صباقتى

بعزة كانت غمرة فتجلت

فأصبحت قد أبللت من دنف بها

كما أذفت هيماء ثم استبليت^(٢)

فوالله ثم الله ما حل قبلها

ولا بعدها من خلعة حيث حلت

وما مر من يوم على كيومها

وإن عظمت أيام أخرى وجلت

وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده

فلا القلب يسلوها ولا العين ملأت

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه

وللنفس لما وطئت كيف ذلت^(٣)

وانى وتهيامى بعزة بعدما * تخلت مما بيننا وتخلت

(١) أزلت : أسدت (٢) أبل من مرضه برئ منه . والدنف المرض . والهيماء : المريضة بالهيام وهو داء يصيب الابل فلا تصبر عن الماء (٣) الاعتراف : الاضطراب . وذلت : رضيت

لكالمربجي ظل الغمامة كلما * تبوأ منها للمقبل اضمحلت
كأني واياها سحابة محل * رجاها فلما جاوزته استهلت^(١)
فان سأل الواشون فيم هجرتها

فقل نفس حري سئيت فتسلت^(٢)
ومن الشعراء من ينص على أن شح الحسان سماحة ، كالتهاى
حين يقول :

ماتت لفقد الطاعنين ديارهم * فكانهم كانوا بها أرواحا
ولقد عهدت بها فهل أريدنه * مغدى لمنتجع الصبي ومراحا
بالنافذات النافذات نواظرا * والنافذين أسنة وصفحاحا
وأرى العيون ولا كأعين عامر * قدرا مع القدر المتاح متاحا
متوارثي مرض الجفون وإما * مرض الجفون بأن يكن صحاحا
من كان يكلف بالأهلة فليزر * ولدى هلال رغبة وبراحا
لا عيب فيهم غير شح نسائهم * ومن السماحة أن يكن شحاحا
طرقته في أربابها فجلت له * وهنا من الغرر الصباح صباحا

(١) محل : أصابه الخل وهو القحط (٢) تلك هى تائبة كثير . ولقد كان بها جد
مفتون . حتى أنه سئل : أنت أشعر أم جميل ؟ فقال : بل أنا . فقيل له : أتقول هذا وأنت راويته ؟
فقال : جميل يقول :

رى الله فى عيني بثينة بالقذى * وفى الغر من أنيابها بالقوادح
وأنا أقول :

هيناً مريئاً غير دام مخامر * لعزة من أعراضنا ما استحلحت

أبرزن من تلك العيون أسنة * وهززن من تلك القدود رماحا
ياحبذا ذاك السلاح وحبذا * وقت يكون الحسن فيه سلاحا
ويأسى ابن التعاويذي على أن يرجو عطف البخيلة ، وهو
جواد الكف . وذلك قوله :

نأيت فخرمت الجفون على الكرى

وأغریت دمع العين بالهملان

وأعهد قبل البين قلبي يطعني * ولكنّه يوم الوداع عصاني
وما زال مطبوعاً على الصبر قلباً * سواءً بعداً عنده وتدان
فما باله يوم النوى سار منجداً * مع الركب في أسر الصبا بهان
فليت طبيباً أمرضتني جفونه * وفي يده منها الشفاء شفاني
وليت غريبي في الهوى وهو واجد

تخرج من ليّانه فقضاني (١)

ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكن

لملكني منكم خضيب بنان

ولا بت في أياتكم سائلاً قرى * بغير قنأ أو طالباً لأمان
أرجى جواد الكف عطف بخيلة

وأخشى حديد القلب فتك جبان

وقبلك ما أنهضت عزمي لحاجة * فأدر كتها إلا بحد سنان

(١) الليان : مصدر لوى . يقال : لوى غريمه إذا مطله

وأولى بمثلى أن يكون مهاده

سريـرِ حصانٍ لاسريـرِ حصانٍ

وبى أنفٌ أن أقتضى بسوى الظبي

ديونى إذا غير الحبيب لوانى

وفى بخل الحسان يقول بعض الأعراب :

ولى زفراتٌ لو يدمن قتلتنى

بشوق الى هاتى التى قد تولت

إذا قلت هذى زفرة اليوم قد مضت

فمن لى بأخرى فى غد قد أظلت

فيا منشـر الموتى أعننى على التى

بها نهلت نفسى سقاما وعلت

لقد بخلت حتى لو آنى سألتها

قذى العين من سافى التراب لضنت

فقلت أرحلا يا صاحبي فليتنى

أرى كل نفس أعطيت ما تمت

الأمر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل
الأمر كله للحب . كما أنشد أحمد بن يحيى :

من كان يزعم أن سيكتم حبه * حتى يُشكك فيه فهو كذوبُ
الحبُّ أغلب للفؤاد بقره * من أن يرى للستر فيه نصيبُ
وإذا بدا سر اللبيب فانه * لم يبدُ إلا والفتى مغلوبُ
إني لأبغض عاشقاً متسترًا * لم تهمه أعينٌ وقلوبُ
وفي هذا المعنى يقول الأقرع بن معاذ القشيرى فى حبيبة
غلبته على قلبه ، واستأثرت به من بين النساء :

يقربعيني أن أرى ضوءَ مزنَةٍ * يمانيةٍ أو أن تهبَّ جنوبُ
لقد شغفتنى أمُّ بكرٍ وبغضتُ * إلى نساء ما هنَّ ذنوب
أراك من الضرب الذى يجمع الهوى

ودونك نسوانٌ لهنَّ ضروب

وقد كنت قبل اليوم أحسب أنى

ذلُّ بأيام الفراق أديب

وقد وضح هذا المعنى كل الوضوح فى قول الضحاك :

يقولون مجنونٌ بسمراء مَواعٍ * ألا حبداً جنُّ بنا وولوع
وإني لأخفى حبَّ سمراء منهم * ويعلم قلبى أنه سيُشيعُ

ولا خير في حُبِّ يُكْنَى كَأَنَّهُ * شغافٌ أَجَنَّتُهُ حَشًّا وضلوع
ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن في محبوبه ،
وصولة الحب في قلبه . كقول عمارة الميني :
ظيَّ أعار الليل طُرَّةَ شعره * وأمدَّ ضوء الصبح بالإشراق
وسنان ذاب السحر في آماقه * وأذاب ماء الروح من آماق
كتب الجمال على صحيفة خدِّه * عذراً المحبَّ وحجة المشتاق
ما كنت أدري يوم رؤية وجهه
أن الحدود مصارع العشاق

وأحب أن يتأمل القارئ جمال التصوير في قوله :
وسنان ذاب السحر في آماقه * وأذاب ماء الروح من آماق
فقد جعل الدمع ذَوْبَ الروح ، وهو خيال بديع ^(١) . وعذر
المحب الذي كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء :
يامليح الدَّلَّ والغَنَج * لك سلطانٌ على المهج
إن بيتاً أنت ساكنه * غير محتاجٍ إلى السُرُج
وجهك المعشوق حجتنا * يوم يأتى الناس بالحجج



(١) في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال ، كتبها المؤلف في وصف ليلة من ليالى الرقص في مصر الجديدة ، فليراجعها القارئ إن شاء .

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد . فتنهم من
يقصد الى غرس الرفق في قلوب أحبائه ، بوصف ما هو عليه من
الخطر ، كقول الطغرائي :

وياأيها الغادي تحمّل رسالة * على ما بها إن الحديث طويل
وقل للأولى حلوا الحمى سقى الحمى

عزاءكم فالعاصري قتيل

ومنهم من يوصى الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه .

وأظرف ما قيل في هذا المعنى قول الواواء الدمشقي :

بالله ربكأ عوجا على سكني * وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحدثاه وقولا في حديثكما * ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فان تبسم قولا في ملاطفة * ماضر لو بوصال منك تسعفه
وان بدا لكما في وجهه غضب * فغالطاه وقولا ليس نعرفه
وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة :

فأنتها طبة عالمة * تمزج الجدّ مراراً باللعب

تُعَلِّظُ القول اذا لانت لها * وتراخي عند سورات الغضب

قيل ان ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر : ما

أحوج المسلمين الى خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه (١) .
ولعله تذكر قول معاوية : لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت
قيل وكيف ذاك ؟ فقال اذا شدوا تراخيت ، وان تراخوا
شدت !

وقد تلطف البهازي في وصية الرسول بقوله :
فيارسولى الى من لا أبوح به * إن المهمات فيها يعرف الرجل
بلغ سلامى وبالغ فى الخطاب له * وقبل الأرض عنى حينما تصل
بالله عرقه حالى إن خلوت به * ولا تطل فخبىي عنده مائل
وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله :
إن المهمات فيها يعرف الرجل
فكأنما هى قيادة حرية ، لا قيادة غرامية !
ومنهم من يحمل النسيم تحياته الى من يهوى . كما قال بعض
الظرفاء :

فيانسيم الصَّبَا أنت الرسول له * والله يعلم أنى منك غيران
بلغ سلامى الى من لا أكلمه * إني على ذلك الغضبان غضبان
لا يارسولى لا تذكر له غضبي * فذاك منى تمويه وهتان
وكيف أغضب لا والله لا غضب

إني لما رام من قتلى لفرحان

(١) فى كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء .

أَكَلَّ يَوْمٍ لِنَا رُسُلٌ مُرَدَّةٌ * وَكَلَّ يَوْمٍ لَنَا فِي الْعَتَبِ الْوَانِ

أَسْتَخْدِمُ الرِّيحَ فِي حَمَلِ السَّلَامِ لَكُمْ

كَأَنَّمَا أَنَا فِي عَصْرِى سَلِيمَانَ

وَقَدْ ذَكَرَ أَمِينَ الدِّينَ بْنَ عَطَايَا السَّبَبَ فِي اخْتِيَارِ النَّسِيمِ

لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ حِينَ قَالَ :

أَنَا أَهْوَى غَصْنَ النِّقَا وَهَوْلَاهِ * وَفَوَادَى بِحَبِّهِ فِي التَّمِيهِ

يَانَسِيمِ الصَّبَا تَرَفَّقْ عَلَيْهِ * وَتَلَطَّفْ بِهِ وَلَا تُؤْذِيهِ

وَتَحْمِلْ رِسَالَةَ لَيْسَ إِلَّا * لَكُ أَمِينًا فِي حَمْلِهَا أَرْضِيهِ

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ رَسُولِي نَسِيمًا * نَحْوَ غَصَنِ النِّقَا فَمَنْ يَثْنِيهِ

وَأَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا حَكَى أَنَّ ابْنَ سَعِيدِ الْمَغْرِبِيِّ مَشَى مَعَ جَمَاعَةٍ

مِنْ أَدْبَاءِ الْمَصْرِيِّينَ وَفِيهِمْ أَبُو الْحُسَيْنِ الْجَزَارِ ، فَرَوَا فِي طَرِيقِهِمْ

بِمَلِيحٍ نَأَمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ فَكَشَفَتْ ثِيَابَهُ عَنْهُ فَقَالَ الْجَزَارِ :

قَفُّوا : لِيَنْظُمَ كُلُّ مَنْ شَاءَ فِي هَذَا ، فَقَالَ ابْنُ سَعِيدِ :

الرِّيحُ أَقْوَدُ مَا تَكُونُ لَأَنَّهَا * تُبْدَى خَفَايَا الرَّدْفِ وَالْإِعْكَانِ

وَتَمِيلُ بِالْأَغْصَانِ عِنْدَ هَبُّوبِهَا * حَتَّى تَقْبَلَ أَوَجَّهُ الْغُدْرَانِ

وَلِذَلِكَ الْأَحْبَابِ يَتَخَذُونَهَا * رِسَالًا إِلَى الْأَحْبَابِ وَالْأُوطَانِ

وَهُوَ شَعْرٌ حَسَنٌ . غَيْرَ أَنَّهُ لَا وَجْهَ لَذِكْرِ الْأُوطَانِ فِي هَذَا

الْمَوْطِنِ إِذْ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْقِيَادَةِ . وَلَوْ قَالَ الْخِلَافَانِ أَوْ الْأَخْدَانِ لَكَانَ

أَنْسَبَ وَأَقْرَبَ إِلَى الْمُرَادِ . وَقَالَ ابْنُ الْخِطَّاطِ :

يانسيم الصبا الولوع بوجدى * حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رايت شذاك فبالله متى عهد بأظلال نجد
ومنهم من يوصى الركبان بحمل سلامه ، وتبايع شكواه ،
كقول الشريف :

دعا بالوحاف السود من جانب الحمى

لديغ هوى لبئت حين دعانى

تعجب صبحي من بكائي وأنكروا * جوابي لما لم تسمع الأذان
فقلت نعم لم تسمع الأذن دعوة * بلى إن قلبي سامع وجناني
ويا أيها الركب اليمانون خبروا * طليقا بأعلى الخيف أنى عانى
عدوه لقائى أو عدونى لقاءه * ألا ربما دانيت غير مدان
وهذا شعر موجه ، يغرى القلب بالحزن ، والعين بالدمع ،
وأشجى منه قول مهيبار :

تحرش بأحقاف اللوى عمر ساعة

ولولا مكان الريب قلت لك ازدد

وقل صاحب لى ضل بالرمل قلبه

لعلك أن يلقاك هاد فتهدى

وسلم على ماء به برد غلتى

وظل أراك كالأصل موعدى

وقل لحمام الباتين مهنتا * تغن خليا من غرامى وغرد

أعندكم يا قاتلين بقية * على مهجةٍ لأن لم تمت فكان قد
ويا أهل نجد كيف بالغور بعدكم * بقاء تهامي يهيم بمنجد
ملكتم عزيزاً رقه فتعطفوا * على منكرٍ للذل لم يتعوّد
وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال : خرجت مع الحسن بن رجا
إلى فارس فلما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوّان رأيت على
حائط مكتوباً بخط جليل :

إذا أشرف المكروب من رأس تلعةٍ

على شعب بوّان أفاق من الكرب
والهاه بطن كالحريرة مسّه * ومطرديجى من البارد العذب
وطيب ثمار فى رياض أريضة
وأغصان أشجار جناها على قرب

فبالله ياريح الجنوب تحملى * إلى شعب بوّان سلام فتى صب
وإذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه :

ليت شعرى عن الدين تركنا * خلفنا بالعراق هل يذكرونا
أم لعل المسدى تطاول حتى * قدّم العهد بيننا ففسونا
ولا يفوتنا أن نمتع القارىء بقول الشريف

حتى بين النقا وبين المصلّى * وقفات الركائب الا نضاء
ورواح الحجاج ليلة جمع * ويجمع مجامع الأهواء (١)

(١) ترد كلمة (جمع) كثيراً فى شعر الشريف . وهى من مناسك الحج . ويوم جمع يوم
عرفة . وأيام جمع أيام منى

وتعهد ذكري اذا كنت بالخيل — ف لظي من بعض تلك الأطباء

قل له هل تراك تذكر ما كا

ن بياب القبيبة الحمراء

قال لي صاحبي غداة التقينا

تتشاكى حرّ القلوب الظماء

كنت خبرتني بأنك في الوجع — د عقيدي وأن داءك دائي

ما ترى النفر والترحل للبين فاذا انتظارنا بالبكاء

لم يقلها حتى انثيت لما بي

أتلقي دمعى بفضل ردائي

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء .
لأن عبرة النادم رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف . أما عبرة
المودّع فهي رفق بمحبته الذي أشجاه الفراق !
قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع :

إن الذين غدوا بلبك غادروا * وشلاً بعينك ما يزال معينا
غيض من عبراتهم وقلن لي * ماذا لقيت من الهوى ولقينا
وهو كلام فطري لا كلفة فيه . وما أبدع قول الطاعنات :
ماذا لقيت من الهوى ولقينا !
ومثله قول ابن التعاويذي :

لما وقفنا للوداع * وقد دعا داعي الرحيل
وتخاذلات أنصار دم * في هوى الظبي الخذول
قالت وأدمعها تسييل * أسى على الخد الأسيل
يا بين كم أجليت يو * م نوى الأجمة عن قتيل
وهذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم . ويشبهه قول
بعض الأعراب :

ومما شجاني أنها يوم ودّعت
تولّت وماء العين في الجفن حائر

فلما أعادت من بعيدٍ بنظرةٍ * إلى التفاتٍ أسلمته المحاجرُ

وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول :

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدتْ

تغيضُ دمعاً فاض وابلهُ سكبا

مهفهفة لم ترض أترابها لها

يبدر الدجى شهباً وشمس الضحى تربا

تمسّ حتى يُسلم العقدَ سلكهُ

وأكظم وجداً كاد ينتزع القلبا

وتذرى شائبب الدموع كأنما

أذابت بعينها النوى أولواً رطباً

ولوسامت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان

أنسب بموقف التوديع . ومثلها في ذلك قول السرى الرفاء :

تنادوا لتفريق الفريق فأصبحت

مدامعنا تندى لفرقتهم دما

سلامٌ على من سار قلب محبه * إليه فلم يرجع صحيحاً مسلماً

يحلُّ عقود الدرّ دمعاً ومنطقاً * وينظمها حلياً عليه ومبهما

أماط عن العذب اللثام لثامهُ * فعاد بديباج الحياء ملثما

وكلنى جفناه بالدمع خفية * فهم غليل الشوق أن يتكلما

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبه التباكي ، وإلى نفسه مرّ

البكاء، ثم يفرق بين العبرتين، ويميز بين الزفرتين. كالأرجاني
إذ يقول:

سفرت كي تزود الحب منها * نظرة حين آذنت بالتناهي
ورأت أنها من الوجد مثلي * ولها للفراق مثل بساكني
فتباكت ودمعها كسقيط الطل * ل في الجلائرة الحمراء
فترى الدمعتين في حمرة اللو * ن سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعي * يصبغ الخد قانياً بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار * كاختضاب الزجاج بالصهباء
وما أدرى بأى قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته

إلى دماء !!

وما أرفق المتنبي إذ يقول:

وجلا الوداع من الحبيب محاسناً

حسن العزاء وقد جلين قيسح

فيد مسامة وطرف شاخص

وحشاً يذوب ومدمع مسفوح

ألم تو اليه وقد انخلع قلبه، حين رأى حبيبته باكية، فلم
يذكر إلا أنها جميلة، وأن الصبر على فراقها أعز منالاً من نجوم السماء؟
وتمجبنى هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء
زارت على غفلة من الحرس * تهدي إلى السلام في الغلس

أَنِّي تَجَشَّعْتُ نَحْوَ أَرْحَلِنَا الْهُو
لَ وَلَمْ تَرْهَبِي أَذَى الْعَسَسِ
قَالَتْ تَرَامِي بِنَا إِلَيْكَ مِنَ الشَّو * قِ مَغْصُ بِالْبَارِدِ السَّيْسِ
كَمْ زَفَرَةٌ لِي تَبِيَّتْ تُنْهَضُ أَحْشَا * نِي وَدَمَعٍ عَلَيْكَ مُبْجَسِ
وَأَنْتِ لَاهٍ بَغِيرِنَا وَلَنَا
مِنْكَ هَوَى مُسِيكٍ عَلَى النَّفْسِ

عَجِبْتُ مِنْ ذِلَّتِي وَمِنْ قَلْبِكَ الْقَا
سِي عَلَيْنَا وَخُلُقِكَ الشَّكْسِ
لَا تَأْمَنَنَّ الْهُوَى وَسَطَوْتُهُ * وَأَخْشَ رَدَاهُ وَمِنْهُ فَاحْتَرَسَ
وَهَذَا الشَّعْرُ جَمِيلٌ فِي مَعْنَاهُ ، وَلَكِنْ يَظْهَرُ أَنَّ أَسْلُوبَهُ لَا يُمِثِّلُ
الرِّقَّةَ فِي نَجْوَى الْحُسْنَاءِ ، وَقَدْ مَسَّهَا الْحُبُّ بِنَارِهِ ، وَأَحْرَقَهَا بِجَوَاهِ !
وَلَوْ تَنَاولَ ابْنُ أَبِي رِيْعَةَ أَوْ ابْنُ الْأَحْنَفِ هَذَا الْمَعْنَى لَرَأَيْتَ لَهُ
ثِيَابًا أَرْقَ مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ ، وَأَسْلُوبًا غَيْرَ هَذَا الْأَسْلُوبِ

وَمِنْ بَارِعِ الشَّعْرِ فِي دَمَوْعِ الْحَسَانِ قَوْلُ جَمِيلَ :
لَمَّا دَنَا الْبَيْنَ بَيْنَ الْحَيِّ وَاقْتَسَمُوا
حَبْلَ النُّوَى فَهُوَ فِي أَيْدِيهِمْ قِطْعٌ
جَادَتْ بِأَدْمَعِهَا لَيْلِي وَأَعْجَلَنِي * وَشَكَ الْفِرَاقُ فَمَا أَتَقَى وَمَا أَدَعِ
يَلْقَبُ وَيَحْكُ مَا عِشَى بَدَى سَلَمِ
وَلَا الزَّمَانُ الَّذِي قَدْ مَرَّ مُرْتَجِعِ

أكلنا بان حى لا تلامهم
ولا يبالون أن يشتاق من نجعوا
علقتنى بهوى منهم فقد جعلت
من الفراق حصاة القلب تنصدع
وهذا الشعر يمثل الطبيعة فى مواقف الوداع ، فالشاعر هنا
شائق ومشوق . ولا كذلك أبيات ابن الرومى التى حصر دمعها فى
عيون زائرتة الحسنة . ومن هذه الناحية يعجبني ما أنشده
صاحب الأمالى :
ولما رأت أن النوى أجنبية * وأنَّ خليلًا من غدٍ سيبين
بكت فبكى من لاعج الشوق والأسى
وكلُّ بكلِّ أن يبين ضنين
فقلت ولم أملك سوابق عبْرٍ * على الخلد منى فالدموع هتون
لقد كنت أبكى قبل أن تشعط النوى
فكيف اذا ما غبت عنك أكون
وانظر كيف يصف العرجى خوف محبوبته من فراقه :
وما أنسَ مَلَأْشياءَ لا أنسَ موقفًا
لنا ولها بالسفح دون ثبير
ولا قولها وهنًا وقد بلَّ جيبها
سوابق دمع لا يحف غزير

أَنْتَ الَّذِي خُبِّرْتُ أَنَّكَ بَاكِرٌ
 غَدَاةَ غَدٍ أَوْ رَا حَلٍ بِهِجِيرِ
 فَقُلْتَ يَسِيرٌ بَعْضُ شَهْرِ أَغْيَبُهُ
 وَمَا بَعْضُ يَوْمٍ غَيْبُهُ يَسِيرِ
 وَقُلْتَ لَهَا قَوْلَ امْرِئٍ شَقَّ الْهَوَى
 إِلَيْهَا وَلَوْ طَالَ الزَّمَانُ فَقِيرِ
 فَمَا أَنَا إِنْ شَطَطَ بِكَ الدَّارُ أَوْنَاتُ
 بَنَى الدَّارَ عَنْكُمْ فَأَعْلَمِي بِصَبُورِ
 وَكُنَّا نَحِبُ أَنْ نَعْلَمَ بَقِيَّةَ الْعِتَابِ فِي قَوْلِهِ :
 أَحْيَيْنَ عَصِيَّتَ الْعَاذِلِينَ إِلَيْكُمْ
 وَنَازَعَتْ حُبْلِي فِي هَوَاكَ أُمِيرِي
 وَبَاعَدَنِي فِيكَ الْآقَارِبُ كُلُّهُمْ * وَبَاحَ بِمَا يَخْفَى اللِّسَانُ ضَمِيرِي
 وَلَكِنِ الرَّوَاةُ لَمْ يَذْكُرُوا هَذِهِ الْقَصِيدَةَ كَامِلَةً
 وَالشَّعْرَ الَّذِي تَقْدِمُ لَا يُمَثِّلُ عَوَاطِفَ النِّسَاءِ تَمَامَ التَّمَثِيلِ ،
 لِأَنَّهُ مِنْ أَحَادِيثِ الرِّجَالِ . وَلَوْ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَكَلَّمَتْ لَعَرَفْنَا مِنْهَا
 كَيْفَ تَشْعُرُ بِلَوْعَةِ الْفِرَاقِ . وَإِلَيْكَ مَا قَالَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَى أَسَدَ
 فِي حَبِيبٍ يَنْقُضُ الْعَهْدَ :
 بِنَفْسِي مِنْ أَهْوَى وَأَرْعَى وَصَالَهُ
 وَتَنْقُضُ مِنِّي بِالْمَغِيبِ وَثَاقَهُ

حبيب أبي إلا أطراحي وبغضتي
وفضله عندي على الناس خالقه

وانظر قول ابنة الحباب :

محابب يحيى حب يعلى فأصبحت
ليحيى توالى حبنا وأوائله
ألا بأبي يحيى ومثى ردائه

وحيت التقت من متن يحيى حمائله

فان هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال . وما أوجع
الشوق في قول هذه الشاعرة :

أضرب في يحيى ويبنى وبينه
تنائف لو تسرى بها الريح كلفت
ألا ليت يحيى يوم عيهم زارنا
وإن نهكت منى السياط وعلفت

وفي الآداب العربية قطع منشورة تمثل ما تشتهي المرأة من
الرجل ، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تماما نفوس النساء ،
ولا تزال المرأة لغزا من الأغاز ، ولو أنها تحدثت عن عواطفها
كما تحدث الرجل عن عواطفه ، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت
البليغ .

ندامة المفارق

أشهر الشعر في ندم الحب ، على فراق من يحب ، ما قاله
قيس بن ذريح وقد طلق لبني . قال محمد بن زياد الأعرابي : لما
أحّ ذريح على ابنه قيس في طلاق لبني ، فأبى ذلك قيس ، طرح
ذريح نفسه في الرمضاء وقال : لا والله : لا أريم هذا الموضع حتى
أموت ، أو يخليها . فجاءه قومه من كل ناحية ، فعظموا عليه
الأمر ، وذكروه بالله . وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ، إن
مات شيخك على هذه الحال كنت معينا عليه وشريكا في قتله .
ففارق لبني على رغم أنفه وقلة صبره . وبكى حتى بكى لهما من
حضرهما . وأنشأ يقول :

أقول خلّيتي في غير جرم * ألا بيني بنفسك أنتِ بيني
فوالله العظيم لنزع نفسي * وقطع الرجل مني واليمين
أحبُّ إليَّ يالبنى فراقاً * فبكيت للفراق وأسعديني
ظلمتك بالطلاق بغير جرم * لقد أذهبت آخرتي وديني
قال : فلما سمعت بذلك لبني بكيت بكاء شديداً وأنشأت
تقول :

رحلتُ إليه من بلدي وأهلي * فجازاني جزاء الخائنيننا
فن يرّني فلا يعترّ بعدى * بجلو القول أو يبلو الدفيننا

فلما انقضت عدتها وأرادت الشخصوص إلى أهلها أتيت
براحلة لتحمل عليها . فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم ،
واشتد لهفه ، وأنشأ يقول :

بانت لبني فأنت اليوم متبول * وإنك اليوم بعد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبني اليوم نازحة

ودلُّ لبني ، لها الخيرات ، معسول

هل ترجعن نوى لبني بعافية

كما عهدت ليالى العشق مقبول

وقد أرانى بلبنى حق مقتنع

والشمل مجتمع والحبيل موصول

فصرت من حب لبني حين أذكرها

أقلب مرتهن والعقل مدخول

أصبحت من حب لبني بل تذكرها

في كربة ففؤادى اليوم مشغول

والجسم منى منهوك لفرقتها

أخو هيام مصاب القلب مسلول

أستودع الله لبني إذ تفارقنى

عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبني فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض

وحول خبيائها . فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم .
فقال ذريح لما رأى حاله : قد جنيت عليك يا بني ! فقال له قيس :
قد كنت أخبرك أنى مجنون بها فلم ترض إلا بقتلى . فالله حسبك
وحسب أمي ! وأقبل قومه يعذّلونه في تقبيله التراب ، فأنشأ يقول :
فما جى لطيب تراب أرض * ولكن حب من وطىء الترابا
فهذا فعل شيخينا جميعاً * أرادا لى البليّة والعذابا
ولقيس بن ذريح شعراً جود مما تقدم ، وأدل على لوعته
وأسفه لفراق لبني كقوله :

تُبَكِّى على لبني وأنت تركتها * وكنت كاتٍ غيه وهو طائع
فلا تبكين فى إثر شىء ندامة

إذا نزعته من يدك النوازع
فليس لأمرٍ حاول الله جمعه * مُشْتٌ ولا ما فرّق الله جامع
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها * وإن تلقها فالقلب راضٍ وقانع
فياقلب خبرنى إذا شطّت النوى

بلبنى وصدت عنك ما أنت صانع
أتصبر للبين المشتّ مع الجوى
أم أنت امرؤ ناسى الحياء فجازع
فما أنت إن بأت لبينى بهاجع
إذا ما استقلت بالنيام المضاجع

وكيف ينام المرء مستشعراً الجوى
ضجيج الأسي فيه نكاس روادع
ولا خير في الدنيا إذا لم تواتنا
لبني ولم يجمع لنا الشمل جامع
ولولا رجاء القلب أن تعطف النوى
لما حَمَلَتْهُ بينهن الأضالع
لَهُ وَجَبَاتٌ إِثْرَ لَبْنِي كَأَنَّهَا
شقائق برقٍ في السحاب لوامع
نهارى نهار الناس حتى إذا دجا
لى الليل هزتنى اليك المضاجع
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبَلْمَنِي
ويجمعني بالليل والهَمَّ جَامِعُ
أَلَا إِنَّمَا أَبْكِي لَمَّا هُوَ وَاقِعُ
وهل جزعٌ من وشك بينك نافع
ومن جيد شعره أيضاً هذه القصيدة:
سَأَصْرُمُ لَبْنِي حَبْلَ وَصْلِكَ مَجْجَلًا
وإن كان صرم الحبل منك يروعُ
وسوف أسلى النفس عنك كما سلا
عن البلد النائي البعيد نزعُ

وإن مسنى للضرر منك كآبة

وان نال جسمي للفراق خشوع

سقى طلك الدار التي أنتم بها * بشرق لبني صيف وريبع

يقولون صب بالنساء موكل * وما ذاك من فعل الرجال بديع

مضى زمن والناس يستشفعونني

فهل لي إلى لبني الغداة شفيع

أيا حرجات الحى حيث تحمّلوا

بذى سلم لا جادكن ربيع

وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى * بلين بلى لم تبلهن ربوع

إلى الله أشكو نية شقت العصا

هى اليوم شتى وهى أمس جميع

وإن أهمل العين بالدمع كلما * ذكرتك وحدى خاليا لسريع

فلو لم يهجنى الظاعنون لهاجنى * حمائم ورق فى الديار وقوع

تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى

نوائح ما تجرى لهن دموع

لعمرك إنى يوم جرعاء مالك * لعاصي لأمر المرشدين مضيع

ندمت على ما كان منى ، فقدتني * كما يندم المغبون حين يبيع

إذا ما لحانى العاذلات بحبها * أبت كبد مما أجن صديق

وكيف أطيع العاذلات وحبها * يؤرّقنى والعاذلات هجوع

عَدِمْتُكَ مِنْ نَفْسِ شَعاعٍ فَانِي
 نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا وَأَنْتَ جَمِيعُ
 فَقَرَّبْتَ لِي غَيْرَ الْقَرِيبِ وَأَشْرَقْتَ
 هُنَاكَ ثَنِيَا مَاهِنًا طُلُوعُ

وَضَعْفِي حَبِيبِكِ حَتَّى كَأَنِّي * مِنْ الْأَهْلِ وَالْمَالِ التَّلَادِ خَلِيعُ
 وَحَتَّى دَعَانِي النَّاسُ أَحْمَقَ مَائِقًا * وَقَالُوا مَطِيعٌ لِلضَّلَالِ تَبُوعُ
 وَيَعْجَبُنِي قَوْلُهُ :

نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي ، فَقَدْتُني !

كَمَا يَنْدِمُ الْمَغْبُونُ حِينَ يَبِيعُ
 وَهُوَ فِي شَعْرِهِ يَمَثُلُ الْفِطْرَةَ الْخَالِصَةَ مِنْ شَوَائِبِ التَّكَلُّفِ
 فَانْه فُجِعَ بِفِرَاقِ حَلِيلَتِهِ ، وَالْحَلِيلَةُ الْمَعشُوقَةُ مُتَاعٌ عَزِيزُ
 وَفِي وَصْفِ أَثَرِ الطَّلَاقِ يَقُولُ أَحَدُ الْأَعْرَابِ :
 نَدِمْتُ وَمَا تَغْنِي النَّدَامَةُ بَعْدَمَا * خَرَجْنَا ثَلَاثًا مَاهِنًا رُجُوعُ
 ثَلَاثًا يُحَرِّمُنَا الْحَلَالَ عَلَى الْفَتَى

وَيَصْدَعُنْ شَعْبَ الدَّارِ وَهُوَ جَمِيعُ
 وَالتَّعْبِيرُ بِشَعْبِ الدَّارِ تَعْبِيرٌ دَقِيقٌ ، مَا كَانَ يَغْنِي عَنْهُ أَنْ
 يَقُولَ : (وَيَصْدَعُنْ شَعْبَ الْقَلْبِ) لِأَنَّ فِرَاقَ الْحَلِيلَةِ هَدْمٌ لِلْبَيْتِ
 مِنَ الْأَسَاسِ

وَمِنْ شَجَى الشَّعْرِ فِي نَدَامَةِ الْمَفَارِقِ عَيْنِيَّةُ ابْنِ زُرَيْقٍ ، وَقَدْ

ترك ابنة عمه في بغداد ورحل إلى الأندلس في سبيل الرزق ،
ثم حيل بينه وبين ما يريد ، فأرسل هذه الزفرة الباقية :
أستودع الله في بغداد لي قرأ

بالكرخ من فلك الأزار مطلعهُ

ودعته وبودي لو يودعني * صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه * والضرورات حال لا تشفعهُ

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى

وأدمعي مستهلات وأدمعه

لا أكذب الله ثوب العذر منخرقهُ

منى بفرقة لكن أرقعه

إني أوسع عذري في جنايته * بالبين عنه وقابلي لا يوسعهُ
عطيت ما كافل أحسن سياسته

كذلك من لا يسوس الملك يُخلعه

ومن غدا لا بسأ ثوب النعيم بلا

شكر عليه فعنه الله ينزعه

اعتضت من وجه خلى بعد فرقة

كأساً مجرّع منها ما أجرعه

كم قائل لي ذنب البين قلت له

الذنب والله ذنبى لست أدفعهُ

هَلَّا أَقْتَفِكَ الرُّشْدَ أَجْمَعُ * لَوْ أَنِّي حِينَ بَانَ الرُّشْدُ أَتَّبَعُهُ
 لَوْ أَنِّي لَمْ تَقْعْ عَيْنِي عَلَى بَلَدٍ * فِي سَفَرَتِي هَذِهِ إِلَّا وَأَقْطَعُهُ
 يَأْمَنُ أَقْطَعُ أَيَّامِي وَأَنْفَعُهَا * حَزَنًا عَلَيْهِ وَلَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُهُ
 لَا يَطْمَئِنُّ بَقَلْبِي مُضْجَعٌ وَكَذَا * لَا يَطْمَئِنُّ بِهِ مَذْ بَنَتْ مُضْجَعُهُ
 مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ يَفْجَعُنِي

بِهِ وَلَا أَنِّي بِي الْأَيَّامِ تَفْجَعُهُ
 حَتَّى جَرَى الدَّهْرُ فِيمَا بَيْنَنَا بَيْدٍ * عَسْرَاءُ تَمْنَعُنِي حَقِّي وَتَمْنَعُهُ
 وَكُنْتُ مِنْ رَيْبِ دَهْرِي جَازِعًا فَرَقًا
 فَلَمْ أَوْقِ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَجْزَعُهُ
 بِاللَّهِ يَا مَنْزِلَ الْقَصَفِ الَّذِي دَرَسْتُ

آثَارُهُ وَعَفَتْ مَذْ بَنَتْ أَرْبَعُهُ
 هَلِ الزَّمَانُ مُعِيدٌ فَيْكَ لَدُنَّا * أَمْ اللَّيَالِي الَّتِي أَمْضَتْهُ تَرْجَعُهُ
 فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مِنْ أَصْبَحَتْ مَنْزِلُهُ
 وَجَادَ غَيْثٌ عَلَى مَغْنَاكَ يُمْرِعُهُ

مَنْ عِنْدَهُ لِي عَهْدٌ لَا يَضِيعُ كَمَا * عِنْدِي لَهُ عَهْدٌ صَدَقَ لَا أَضِيعُهُ
 وَمَنْ يَصْدَعُ قَلْبِي ذَكَرُهُ وَإِذَا * جَرَى عَلَى قَلْبِهِ ذَكَرِي يَصْدَعُهُ
 لَا أَصْبِرَنَّ لِدَهْرِ لَا يَتَمَعَّنِي * بِهِ وَلَا بِي فِي حَالٍ يَتَمَعَّنُهُ
 عَلَمًا بِأَنَّ اصْطِبَارِي مُعَقَّبٌ فَرَجًا
 فَأَضِيقُ الْأَمْرَ لَوْ فَتَكَّرْتَ أَوْسَعُهُ

علّ الليالى التى أضنتُ بفرقتنا

جسمى ستجمعنى يوما وتجمعه

وانْ تغلُ أحداً منّا منيته * لابدَّ فى غده الثانى سيتبعه

وإن يدمُ أبداً هذا الفراق لنا * فما الذى بقضاء الله نصنعهُ

ومما يتصل بندامة المفارق ماقاله ابن الرومى فى فرصة ضاعت

منه فعضَّ من بعدها البنان . فلنذكرها على سبيل الفكاهة ، لما

فيها من ظُرف المجون :

أستغفر الله من تركى علانيةً

ذنباً هممتُ به فى شادينِ خنثٍ (١)

ظبيّ دعتنى عيناهُ ومنطقهُ

بنيةً صدقتْ عن ظاهرٍ عبيثٍ

فلم أجبهُ وحظيَّ فى إجابتهِ

لكن سكنتُ كأنى غير مكترثٍ

لا بل فررتُ وظل الصيد يطلبنى

والله ما كنت فيها بالفتى الدِّمِثِ

أقسمت بالله لما قت محتجزاً

أنى أنبعثت بقلب غير مُنبعث

(١) القادى : الغزال . والخنث : المثق

غربة المحب

نتكلم قليلا عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأن
الأمر كما قال الشريف :

✕ ليس الغريب الذي تنأى الديار به
إن الغريب قريبٌ غير مودود
فن الشعراء من يغترّب في سبيل حبه . كما قال حذيفة
الغنوى :

يقولون من هذا الغريبُ بأرضنا
أما والمهدايا إننى لغريبُ
غريبٌ دعاه الشوق وأقتاده الهوى
كما قيدَ عودٌ بالزمان أديب (١)
وماذا عليكم أن أطاف بأرضكم * مُطالب دينٍ أو نفقة حروبُ
أُمّشَى بأعطانِ المياهِ وأبتغى * قلائصَ منها صعبةٌ ورَكوبُ
ومن شجى الشعر في غربة المحب قول بعض الأعراب :
وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة
غزالٌ كحيل المقاتلين ريبُ
فلا تحسبى أن الغريب الذي نأى
ولكن من تنأى عنه غريبُ

(١) العود الجول . وأديب ذلول

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر
اختصاصه بالبلوى في أغتراب محبوبته :

أرى كل أرضٍ دمتها وإن مضتْ

لها حَجَجٌ يزاد طيباً تراها (١)

ألم نعلمنْ ياربَّ أنْ رُبَّ دعوةٍ

دعوتك فيها مخلصاً لو أجابها

وأقسم لو أنى أرى نسباً لها * ذئاب الفلا حَبَّتْ إلى ذئابها

لَعَمْرُ أبى ليلى لئنْ هى أصبحت

بوادى القرى ماضراً غير أغترابها

وغربة الحب تتمثل فى حرمانه . وكيف لا يكون غريباً

من يقول :

أيا مُنْشِرَ الموتى أَقْدِنى من التى * بها نَهَلْتُ نفسى سقاماً وعلتْ

لقدْ بَخَلْتُ حتى لو أنى سألتها

قذى العين من ساقى التراب لَضَنَّتْ

حلفت لها بالله ما أم واحد * اذا ذكرته آخر الليل أنت

ولا وجد أعرابية قذفت بها

صروف النوى من حيث لم تك ظننت

اذا ذكرت ماء العذيب وطيبه * وبرد حصاه آخر الليل حنت

(١) دمتها : مشيت عليها

بأكثرَ مني لوعةً غير أننى * أجمع أحشائي على ما أجنّتِ
ويظهر أن قذى العين كان في أنفـس العرب مثلاً لما لا يُضنُّ^١
به ، فقد ردّدوا ذكره في أشعارهم ، كما قال بعض بني أسد :
وكيف طلابي وصل من لوسألهُ
قذى العين لم يُطلبْ وذاك زهيدٌ^(١)
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى
أراك صحيحاً والفؤاد جليدُ



(١) أطلبه : أعطاه ما طلب

الامل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع ،
وتقلها إلى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه .
وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر ، بعد قسوة الاخفاق :

تَأَيَّمْتُ حَتَّى لَامَى كُلِّ صَاحِبٍ
رَجَاءَ سُلَيْمَى أَنْ تَتِمَّ كَمَا إِمْتُ
لَنْ بَعْتُ حَظِّي مِنْكَ يَوْمًا بغيرِهِ
لَبِئْسَ إِذَا يَوْمَ التَّغَابِنِ مَابَعْتُ
كُنْتُ أَصْبِرُ عَلَى بَأْسَاءِ الْحَيَاةِ ، وَأَحْتَمِلُ مَا فِيهَا مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ ،
لَوْ أَنَّ عِنْدِي بَقِيَّةً مِنَ الْأَمَلِ ، أَرْفَقَ بِهَا أَحْزَانِي ، وَأَدْفَنَ فِيهَا
آلَامِي ! وَلَكِنْ حَالُ الْقَنُوطِ دُونَ الرِّجَاءِ ، وَأَتَى الْيَأْسَ دُونَ
الطَّمَعِ ، فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ الْجَزَعِ مِنْ مُسْعِدٍ ، وَلَا سَوَى النُّوحِ مِنْ شَفَاءٍ !
فِياجِرَةً مَا كَانَ أَهْنًا وَرِدْهُمْ ، وَأَطْيَبَ عَيْشَهُمْ ، وَيَا أَحِبَابًا
ذَقْتُ الْفَرَحَ بِقُرْبِهِمْ ، وَعَرَفْتُ الْهَمَّ لِبَعْدِهِمْ ، وَيَا مَنْ أَفْنَانِي فِرَاقِهِمْ ،
وَكَانَ أَحْيَانِي لِقَاؤُهُمْ ، بِرَبِّكُمْ مَا الَّذِي لَقِيتُمْ بَعْدِي ، فَقَدْ لَقِيتُ بَعْدَكُمْ
ذِلًّا وَهَوَانًا ، وَظُلْمًا وَعَدْوَانًا ، وَمَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ ظَفَرَ
بُودَكُمْ ، وَنَعِمَ بِحَسَنِكُمْ ، فَأَصْفَاكُمْ مِنَ الْحُبِّ أَجْمَلَهُ ، وَمَنِ الْآنَسَ

أكله ، فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتي ، وأنكر خلتي ، ومن
سقيته الشهد فسقاني الصاب ، وأوليته القرب فأولاني القطيعة ؟ !

فياليت شعري من ألوم ؟

أألوم نفسي على أن لم أعقَّ في بركم أهلي وإخواني ، فأسير

حيث سرتهم ، وأقيم حيث أقمتهم ؟

تفرق أهلي من مقيم وظاعن * فياليت شعري أي أهلي أتبع

أقام الذين لا أبالي فراقهم * وشطَّ الذين بينهم أتوقع

أم ألومكم على أن تركتموني وحيداً وآثرتم وطنكم ، وأهلكم ،

ولم تبألوا بمن خلفتموه طريح حزنه ، وأسير همه ؟

أم ألوم قوماً جعلتهم منكم بدلاً فكانوا شر بدل ، واتخذتهم

من بعدكم ذخراً فكانوا كالهباء ، ورجوتهم حصناً أتق به الدهر

الخائن ، والزمن الجائر ، فاذا هم أذل من قرادٍ بمنسَم ، وإذا المتفنيء

ظلمهم ، والراجي برهم ، يطمع في غير مطمع ، ويلجأ إلى شر وزير !

أم ألوم دهرأ اضطرَّكم إلى الرحلة فرحلتهم ، وحكم على بالمقام

فأقمت ، ثم أمددنا من اليأس لبعده الدار ، وشطَّ المزار ، ماجعل

الأمَل في التلاقي خائباً ، ورجاء التداني كاذباً

وقلما أبقى على ما أرى * يوشك أن ينعاني الناعى

ما أقتل اليأس لأهل الهوى * لاسيما من بعد إطماع

ما هذا الذي صنعتهم ؟ أخضعتهم لليأس ، وأذعنتهم للقنوط ، ولم

ترهبوا العتاب ، إذا لم تأملوا اللقاء ، فزفتم تلك الشمس إلى غيرى ،
وآثرتم بها سوى ؟ !

يا عَزَّ إِن ضاعت عهدى عندكم * فانا الذى أستودعت غير أمين
أو عدت مغبوناً فما أنا فى الهوى

لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فللتم — ولا وفاء للمول — فكان منكم
ما أفضَّ المضجع ، وأورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ماصنع
اليأس بنا ، ونال القنوط منا ؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء !
هى الهاية القُصوى فان فات نيلها * فكل مُنى الدنيا على حرام

* *

وقد نظرت ما قال الشعراء فى الأمل الضائع ، ووجدت لهم
فيه أفانين ، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق ،
كالذى يقول :

جاريةٌ أعجبتها حسنُها * فثُلها فى الناس لم يُخلَقْ
خبرُها أنى محبُّ لها * فأقبلت تضحك من منطق
والتفتت نحو فتاةٍ لها * كالرُشا الوُسنان فى قُرطق

قالت لها قولى لهذا الفتى * انظر إلى وجهك ثم اعشق (١)

(١) رواية صديقنا الدكتور إبراهيم زكى الساعى لهذا البيت هكذا (انظر لآسنانك ثم اعشق) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الآسنان

ومن جيد الشعر في ضياع الأمل قول عمر بن أبي ربيعة في
سُكَيْمَةَ بنت الحسين
قالت سُكَيْمَةُ والدموع ذوارفٌ

تجوى على الخدين والجلباب
ليت المغيرة الذي لم أجزه * فيما أطال تصيدى وطلابي
كانت تردُّ لنا المني أيامنا * إذ لا نلام على هوى وتصابي
خبرت ما قالت فبت كأنما * يرمى الحشا بنوافذ النشاب
أُسْكِن ما ماء الفرات وبرده * منى على ظمأٍ وفقد شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما * يرعى النساء أمانة الغياب
إن تبذلى لى نائلاً أشفى به * سقم الفؤاد فقد أطلت عذابي
وعصيت فيك أقاربي فتنطعت * بيني وبينهم عرى الأسباب
فتركتنى لا بالوصال مُمسكاً * منهم ولا أسعفتنى بثواب
فقعدت كالمرىق فضلة مائه * فى حرٍّ هاجرة لأمع سراب
ولم أر من الشعراء من بكى الأمل الضائع كما بكاه كثير
فى قوله :

وأذنيته حتى إذا ما استبيتني
بقول يحلُّ العضم سهل الأباطح
توليت غنى حين لالى مذهب
وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وهي صورة شعرية تمثل الحب ، وقد استدرجه محبوبه ،
حتى أخذ الطمع بنواصي آماله ، ثم تركه في اللحظة الأخيرة ، يتعثر
في أذيال الخيبة والقنوط !

وفي هذا المعنى يقول الشريف :

كم قد نصبتُ لك الحبايل طامعاً

فنجوت بعد تعرُّضٍ لوقوع

وتركتني ظمآن أشرب غلتي * أسفاً على ذاك الهمى الممنوع

ومن الأمل الزاهب أن يكون من تحبه ، من بلد غير بلدك ،

وقوم غير قومك ، كما قال نصيب

أرق الحب وعاده سُهْدٌ * لطوارق الهمم التي تردُّه

وذكرت من رقت له كبدي * وقسا فليس ترق لي كبده

لاقومه قومي ، ولا بلدي * فنكون حيناً جيرةً بلده

ووجدت وجداً لم يكن أحداً * من أجله بصبايةً يجده

ونصيب يتحدث كثيراً عن عقم الأمانى ، حتى يقول :

ألا هل على البين المفرق من بدِّ

وهل مثل أيامٍ بمنقطع السدِّ

تمنيت أيامي أولئك والني

على عهد عادٍ ما تعيد وما تبدي



الكتان

من الشعراء من لا يهتم من الكتان غير ستر تفاصيل الود ،
وأسرار القرب ، ولا يرى بعد ذلك حرجاً في ذكر اسم من
يحب ، كما قال جميل :

لا لا أبوح بحب بثنة إنها * أخذت عليّ موثقاً وعهوداً
فانه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده ، تضليلاً
للوشاء ، لكان هذا البيت من سُخف القول ، وهذره . واليك
ما يقول من كلمة ثانية :

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إني لك عاشقُ
نعم صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ

إلى وإن لم تصفُ منكِ الخلائق
فانه يدل على أنه لا يبالي أن يُعرف بحبها . حتى قال الناس :
جميل بثينة كما قالوا مجنون ليلى . ويذكر أبو علي القالي أن البيت
السالف لكثير وأنه ذكر بثنة تورية عن حبيبته . وهذا فيما أرى
غير حتم ، لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر
كقوله :

كفى حزنًا للعين أن ردَّ طرفها
لعزة عيرٍ آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا

فقلت البكا أشقى إذن لغيلي
توأت محزونًا وقلت لصاحبي * أقاتلي ليلي بغير قتيل
فقد ذكر عزة عند مواة الشعر ، ويلي عند معاصاته ،
وهو نوع من التلاعب بالأسماء الذي كثر في شعر العرب . وقال
كثير من قصيدة أخرى :

سيهلك في الدنيا شفيقٌ عليكم * إذا غاله من حادث الدهر غائله
ويخفى لكم حبًا شديدًا ورهبةً

وللناس أشغالٌ وحبك شاغله
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنه * إذا حدثوه عن حديثك جاهله
يودُّ بأن يمسي سقيمًا لعلها * إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويجهدُ للمعروف في طلب العُلا

لُتحمَدَ يوماً عند عزِّ شائله

وهو في هذا الشعر لا يكتم أسم من يهوى ، وإنما يكتم
أحاديث الحب ، وأسرار الصباية ، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي
ومستخبر عن سرِّ ربيَّ أَرَدَتْهُ * بعمياء من ربيَّ بغير يقين
فقال أتصحنى إني لك ناصح * وما أنا إن خبرته بأمين

وهذا العباس ابن الأحنف كان من أكثر المحبين كتماناً،
ولسكنه دمرح باسم محبوبته فوز، ولقد بلغ من حسد إحدى
جاراته أن سمت جارتها « فوز » وقد قال في ذلك :

ما ينقض عجبى من جهل حاسدة
كانت بذى الأثل من خدنى وأنصارى
سمت وليدتها فوزاً مغايظة * عذرت لو لطمتى ذات أسوار
وما يزال نساءً من قرابتها * فى كل ناحية يهتكن أستارى
ومسلم بن الوليد يتغنى بكمتم تباريح الصبابة فى قوله :
وما نلت منها نائلاً غير أنى * بشجو المحبين الألى سلفوا قبلى
بلى ربما وكأت عى بنظرة * إليها تزيد القلب خبلاً على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلى
فلم يدر ما بى فاسترحت من العذل
وقد عارضه ابن عبيد ربه بقوله :

بنفسى التى ضدت على بوصلها * ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
ولان حكمت جارت على بحكمها
ولكن ذاك الجور أحلى من العذل
وأحببت فيها العذل حباً لذكراها
فلا شىء أحلى فى فؤادى من العذل
وهو يذكرونا بقول أبى الشيص الخزاعى :

أجسد الملامة في هوائك لذينة * حباً لذكرك فليعلمني اليوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
وقول ابن نبابة المصرى :

لنمتُ ثغر عذولى حين سَمَّك * فلذَّ حتى كائن لا تم فاك
ومن العشاق من يكتُم الهوى جملةً واحدة ، كقول ابن
قلاقس :

كتمت الهوى عند العواذل ضنةً
عليهم بمن أصبو إليه وأهواه
ولو قلت انى عاشق فطنوا له
لعلمهم أن ليس يُعشق إلا هو
وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول :
وقائلة ما بال جسمك لا يرى * سقيماً وأجسام المحبين تسقم
فقلت لها قلبي بحبك لم ينج
لجسمي نجسمي بالهوى ليس يعلم
وللعباس بن الأحنف شجون من الحديث عن السكتان ،
فتارة يذكُر أنه باح بحبه حين طال بلاؤه كقوله :

هذا كتابٌ بدمع عيني * أملاه قلبي على لسانى
الى حبيبٍ كنيت عنه * أجل ذكر اسمه لسانى
قد كنت أطوى هواء عنه * مذ كنت فى سالف الزمان

فَبُحِتْ إِذْ طَالَ بِي بِلَائِي * وَلَمْ يَكُنْ لِي بِهِ يَدَانِ
وهو هنا يكتُم حبه عن محبوبه ، فضلاً عن الناس . وتارة
يذكر أنه سيموت مكتوم السرِّ إلا عمن يحب ، فيقول :
أَبْكِي الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ * حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي فِي الْهَوَى رَقَدُوا
وَأَسْتَهْضُونِي فَلَمَّا قَمْتُ مُنْتَضِباً * يَثْقُلُ مَا حَمَلُونِي فِي الْهَوَى قَعَدُوا
جَارُوا عَلَيَّ وَلَمْ يَوْفُوا بَعْدَهُمْ
قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لَا خَرَجَنَ مِنَ الدُّنْيَا وَحُبِّكُمْ * بَيْنَ الْجَوَانِحِ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ
حَسْبِي بَأَن تَعْلَمُوا أَن قَدْ أَحْبَبْتُكُمْ
قَلْبِي وَأَنْ تَسْمَعُوا صَوْتَ الَّذِي أَجِدُ
وَحِينَذَا يَذْكُرُ أَنَّهُ سَلَا ، لِيَنْصَرِفَ النَّاسُ عَنِ التَّحَدُّثِ بِحَبِّهِ ،
رَفَقاً بِمَحْبُوبَتِهِ . فيقول :
كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَخَدَّثْتُ أَنْفِي
سَلَوْتُ لِكَيْمَا يَنْكُرُوا حِينَ أَصْدُقُ
وَمَا مِنْ قَلْبٍ مَنِي وَلَا عَنْ مَلَالَةٍ
وَلَكِنِّي أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَشْفِقُ
عَظَفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَسَكَسَوْتَهَا
قِيصاً مِنَ السَّكْتَانِ لَا يَتَخَرَّقُ
وَقَدْ يَعْتَذِرُ عَنْ هَجْرِهِ فيقول :

الله يعلم ما أردت بهجركم * إلا مصانعة العدو الكاشح
وعلمت أن تباعدى وتسترى * أدنى لوصولك من دُنُوِّ فاضح

وأحلى من هذا قوله فى تعيين الغرض من الصدود :

سأهجر إلى هجرانها * إذا ما التقينا صدود الحدود
كلانا محبٌ ولكننا * ندافع عن حبنا بالصدود
وتأمل قوله « صدود الحدود » يريد بذلك أن كلاً منهما
يسدّ بخصمه عن صاحبه ، أما القلوب فهى فى اختلاف . وطوراً
يكتفى بحديث العيون ، كقوله :

كلانا مُظهرٌ للناس بغضاً * وكلٌّ عند صاحبه مكينُ
تخبرنا العيون بما أردنا * وفى القلبين ثمَّ هوى دفينُ
وقد يُسرُّ الحزن ، ويبدى السرور ، مبالغة فى التستر ، كقوله :

عيون العائدات تراكِ دونى * فيا حسدى لعينى من يراكِ
أريدك بالكلام فأتقيهم * وأعمد بالكلام إلى سواكِ
وأكثر فيهم ضحكى ليخفى * فسنى ضاحكٌ والقلبُ باكِ

وقد أفصح عن ضرورة السكتمان بقوله :

سأستر والستر من شيمتى * هوى من أحبُّ بمن لا أحبُّ
ولا بد من كذب فى الهوى * إذا كان دفع الأذى بالكذب
وربما تنى لو استطاع أن يكتم قلبه الحب . فيقول :

إذا لم يكن للمرء بدٌّ من الردى
فأكرم أسباب الردى سبب الحب
ولو أن خَلَقًا كَاتَمَ الحب قلبه
لمت ولم يعلم بحبكم قلبي
إذا قيل تُقْرِك السلام تملسكت
حُشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد يبأس من كتم الحب فيقول :
أما الهوى فهو شئٌ لا خفاءَ به * شتان بين سبيل الغيِّ والرشدِ
إن المحبين قومٌ بين أعينهم
وسمٌ من الحب لا يخفى على أحدٍ
وقد يبالغ في السكتمان حتى يفضل الناس من أجل حبه في
بيداء من الظنون ، ليس الليل فيها نهاراً ، كما يقول :
قد سَحَبَ الناسُ أذيالَ الظنون بنا

وفرقَ الناسَ فينا قولهم فرقا
جاهلٌ قد رمى بالظن غيركم * وصادق ليس يدرى أنه صدقا
وقد ذكروا أن العباس بن الأحنف مات هو وإبراهيم
الموصلي والكسائي في يوم واحد . فرفع ذلك إلى الرشيد . فأمر
المأمون أن يصلي عليهم . فصَفُّوا بين يديه . ثم سأل عنهم واحداً
واحداً وأمر بتقديم ابن الأحنف فصلى عليه . فلما فرغ وانصرف

دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال : ياسيدي !
كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر ؟ فأنشده المأمون
هذين البيتين :

سَمَّاكَ لِي نَاسٌ وَقَالُوا إِنَّهَا * لَهِيَ الَّتِي تَشْقِي بِهَا وَتَكْبِدُ
فَجَعَلْتَهُمْ لَيْسَ كَوْنُ غَيْرِكَ ظَنَّهُمْ * أَنِّي لَيْمَ جَبْنِي الْمَحَبُّ الْجَاهِدُ
ثم قال : أتحفظهما ؟ فقال نعم . فقال : أليس من قال هذا
الشعر أولى بالتقدمة ؟ فقال : بلى ياسيدي ! (١)

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذريح :

لَوْ أَنَّ أَمْرًا أَخْفَى الْهَوَى عَنْ ضَمِيرِهِ
لَمْتُ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ ضَمِيرُ
وَلَكِنْ سَأَلَتِي اللَّهُ وَالنَّفْسُ لَمْ تَبْخُ
بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرٌ

ومن الشعر الموجه في السكتان قول طاهر بن عبد الحكيم

الكلبي :

قَضَى كُلُّ ذِي دِينٍ فَوْفَى غَرِيمِهِ

وَدَيْنُكَ عِنْدَ الزَاهِرِيَّةِ مَا يَقْضَى

(١) وضع صاحب البدائع كتابا خاصا سماه « صباه ابن الاخف » تناول فيه بالتفصيل

حياة هذا الهاجر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبي نواس . وسيظهر هذا

الكتاب بعد قليل

أَكْتَمَ فِي حَيِّ ظَرِيفَةً بِالذِّى

إِذَا اسْتَبْصَرَ الْوَاشُونَ ظُنُّوا بِهِ بَغْضًا

صَدُودًا عَنِ الْحَيِّ الَّذِينَ أَوْدَعَهُمْ * كَأَنِّي عَدُوٌّ لَا يَزُورُ لَهُمْ أَرْضًا

وَلَمْ يَدْعُ بِأَسْمِ الزَّاهِرِيَّةِ ذَاكِرٌ * عَلَى آلَةٍ إِلَّا ظَلَّلْنَا لَهَا مَرْضَى

وَمَا نَقَعَ الْهَيْمَانَ بِالشَّرْبِ بَعْدَهُمْ

وَلَا ذَاقَتِ الْعَيْنَانِ مَذْفَارِقُوا غَمًّا

وَقَدْ يُنْهَمُ الْمَرْءُ بِحُبِّ مَنْ لَا يَحِبُّ ، فَيَتَمَنَّى لَوْ تَصَدَّقَ التَّهْمَةُ ،

كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْبِدَائِعِ :

عَجِبْتُ لَهُمْ أَنَّنِي رَمَوْنِي بِحُبِّهَا

وَلَا مُهْجَتِي رَهْنٌ لِنَيْهَا وَلَا قَلْبِي

فِيَارِبُّ صَدَّقْ فِي هَوَاهَا عَوَازِلِي

فَإِنَّ عَنَاءَ أَنْ أَلَامَ بِلَا ذَنْبٍ

وَالَا فَلَا تَقْطَعْ عَلَيَّ مَلَامَهُمْ * فَإِنَّ مَلَامَ الْمَرْءِ فَاتِحَةُ الْحُبِّ

طَرَفَةُ أُرَيْبِيَّةٍ

قَالَ بَعْضُهُمْ لِحُبُوبَتِهِ :

سِرِّي وَسِرُّنَا لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ * إِلَّا إِلَّا إِلَيْهِ وَإِلَّا أَنْتِ ثُمَّ أَنَا

فَقَالَتْ لَهُ : لَا تَنْسَ الْقَوَادِمَ ، فَعِنْدَهَا الْخُبْرُ الْيَقِينُ !



قسوة التجنى

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود ، وأكثروا
القول كذلك عن قسوة التجنى ، فمن ذلك قول ابن نباتة السعدى
يادهر لا غفلات العيش عائدة * ولا الشباب الذى أبليت فيه
إن كنت تمنع سعدى من مطالبها

فلمست تمنع سعدى من تمنىها
لله نغمة أوتار ومسمعة * باتت تدل على شوق أغانيها
وقهوة كشعاع الشمس طالعة

أفنىت بالمزج فيها ريق ساقيا
لو كنت أخضع فى الدنيا لنائبة

خضعت من هجرها أو من تجنىها
تستعذب الدمع عيني فى محبتها * كأن ما تمتره العين من فيها
وما أجمل قول ابن الرومى :

يا عليلاً جعل العلىة مفتاحاً لظلمى
ليس فى الأرض عليل * غير جفنيك وجسمى
وقد كتبت الآنسة حياة فهمى كلمة عنوانها (لعن الله
الخب) ونشرتها فى الصباح : فأجابه الشاعر البسند السيد حسن
القيايى بقوله :

تألم حياةً على العاشقين * رؤيداً ورفقاً بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت الحب * هنيئاً لعينيك في الناعسات
ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة ، فأجابته
بما نصه :

« يرى سيدي الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب ،
فلامت المحبين . ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب .
لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء . يقولون بألسنتهم ما ليس في
قلوبهم ، والله أعلم بما يكتُمون . فإذا قال السياسي (لا) فاعلم أنه يريد
(نعم) وإذا قال : (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة
(لا أحب) فاعلم أنها (تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها
(راضية) فإن كنت في ريب من ذلك يا صديقي الأديب فاني
أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩
عهد السياسة كاذب * لله درك يا سجاح !

وقد قال (تاسو) أحد شعراء إيطاليا : إن المرأة تفر ، وتود
أن تلحق وهي فارّة ، وتأبى ، وتود في إياها أن تُسرق . وتناضل ،
وترغب أن يُظفر بها في النضال !!

فقول الآنسة حياة : « لست ممن تغلب الحب على قلوبهم »
معناه أن الحب صبرها بأكية العين ، دامية الفؤاد ، وقولها : « الحب

عدو لدود للإنسان ، فيجب أن يُبعد عن القلوب « معناه أن الحب
مادة الحياة فيجب أن تزود به القلوب !

وقولها « تباعدوا عن الحب » معناه : أقبِلوا على الحب
بسمعكم وببصركم ، أيها الشباب !

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حياة فهي ! فهي حين تقول
« لعن الله الحب » إنما تريد « حيّا الله الحب » وأنت بما تريد عليم
ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة
هذا السؤال :

إنك تأمريننا بأن لانحب (سمعاً وطاعة !) ولو أنني سمعت
هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاماً لنجوت من الحب ، وأسترح
الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكني يامولاتي لسوء الحظ
قد أحبيت ، وقد ضربت بمحبي الأمثال ، وأريد أن أسلم من
الحب على يدك الطاهرة ، جعل الله في يمينك الشفاء ، من كل داء ،
فهل لك أن تصني لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن
أسماء الحب الضلال ؟

أنا في انتظار الجواب !

ملحوظة - أرجو أن تحترس الآنسة حياة ، وهي تكتب
أنواع العقاقير ، من أن تنهاني عن التطلع إلى العيون ، والحدود ،

والشغور ، والنحور ، والنهود ، فانه لا سبيل إلى مثل هذا المتأب !!
وانما أريد أن أسلو وأنا أعبت بأفنان الجمال ، كما يرُدُّ الشارب
الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقى الجميل !!

وقد ردَّ السيد حسن القاياتى على هذه الكلمة بخطاب شائق
ولولا الرغبة فى الإيجاز لأمتعنا به القارئ ، ومن السهل الرجوع
اليه فى كتاب البدائع

وقد حسن التجنى فى قول أحد الشعراء :

صدّ عنى محمد بن سعيد * أجمل العالمين ثانى جيد
ليس من بغضة يصدّ ولكن * يتجنّى لحسنه فى الصدود

ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكم غليّة بنت المهدي بأن
الحب بُني عليه . وتقول :

وَضَعَ الحبُّ على الجورِ فلو * أنصفَ المعشوق فيه لسمُجُّ

ليس يستحسن في شرع الهوى

عاشقٌ يُحسِّن تأليف الحُجَجِ

وقال النخعي :

راحتي في مقالة العُدالِ * وشفائي في قيلهم بعد قال

لا يطيب الهوى ولا يحسن الحـ * لبُّ لصبِّ إلا بخمس خصالٍ

بسماع الأذى وعذل نصيحه * وعِتَابٍ وهَجْرَةٍ وتَقَالِ

ويعملُّ بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله :

لولا أطراد الصيد لم تكُ لذة * فتطاردي لي في الوصال قليلا

هذا الشراب أخو الحياة وماله * من لذةٍ حتى يصيب غليلا

ومثله قول الآخر :

دع الصبَّ يصلي بالأذى من حبيبه

فان الأذى ممن تُحب سرورُ

غُبار قطع الشاء في عين ذنبها

إذا ماتلا آثارهن ذرورُ

وأنشد الأصمعي :

لا خير في الحب وقفاً لا تحركه
عوامل اليأس أو يقتاده الطمع
لو كان لي صبرها أو عندها جزع
لكنت أملك ما آتى وما أدع

إذا دعا بأسمها داع ليحزني
كادت له شعبة من مهجتي تقع
لا أحمل اللوم فيها والغرام بها * ما كلف الله نفساً فوق ما تسع
ومن جيد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري:
رمتني وستر الله بيني وبينها * ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها * ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتني رميمتها * ولكن عهدي بالنضال قديم
فيا عجباً من قاتل لي أودّه * أشاط دمي شخص على كريم
يرى الناس أنني قد سلوت واني

لمدنف أحشاء الضالوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي:

أصبحت مملوكاً لأحسن مالِك

لو كان كمال حسنه إسجاحه

لَمْ يَعْنِهِ أَرْقَى وَفِيهِ لَقِيمَتُهُ * حَتَّى أَضُرَّ بِمَقَاتِي إِحْلَاحَهُ
 كَلَّا أَوْلَا دَمْعِي وَفِيهِ سَفْحَتُهُ * حَتَّى أَضُرَّ بِوَجْنَتِي تَسْفَاحَهُ
 لَا مَسَّهُ بَعْقُوبَةٌ مِنْ رَبِّهِ * إِقْلَاقَهُ قَلْبِي وَلَا إِتْرَاحَهُ
 يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يَبِيدُ مُعَانِقِي

وَيَدَايَ مِنْ دُونَ الْوَشَاحِ وَشَاحِهِ
 هَلْ أَنْتَ مُنْصَفٌ عَاشِقٍ مُتَظَلِّمٌ

طُولُ النَجِيبِ شِكَاؤُهُ وَصِيَاؤُهُ
 قَسَمًا لَقَدْ خَيَّمْتُ مِنْكَ بِمَنْزِلِ

لِي حَزَنُهُ وَلَمْ يَنْسَوَايَ بِطَاحَهُ
 مَا بَالَ ثَغْرُكَ مَشْرِبًا لِي سُكْرُهُ

وَلَمْ يَنْسَوَايَ فَدَتْكَ نَفْسِي رَاحَهُ

نَفْسِي مَعْدَبَةٌ بِهِ مِنْ دُونِهِ * وَبِأُيَاؤِهِ دُونِي وَلَسْتُ أَبَاحَهُ
 وَأَحِبُّ لَوْ تَأَمَّلَ الْقَارِئُ قَوْلَ الشَّرِيفِ:

وَلِي نَازِرٌ بَعْدَ بَيْنِ الْخَلِيَةِ * طَمَاتٍ مِنَ الدَّمْعِ إِنْسَانَهُ

رَوَاةٌ مِنَ الْمَاءِ أَمَاقُهُ * ظِلْمَةٌ مِنَ النَّوْمِ أَجْفَانُهُ

فَأَيْنَ مِنَ الدَّاءِ إِفْرَاقُهُ ^(١) * وَأَيْنَ مِنَ الْقَلْبِ سُؤْلَانُهُ ؟

فِيَا ظِلْمًا طَبِيبًا ظَلَمَهُ * كَثِيرًا عَلَى الْقَلْبِ أَعْوَانُهُ

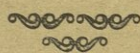
يَبَاعُ بِسُومِكَ حُبَّ الْقُلُوبِ * بِوَتَغْلَاقٍ عِنْدَكَ أَثْمَانُهُ ^(٢)

(١) أفرق من دائه برى منه (٢) غلق الثمن ضاع

وشرَّ الاساءة من مالك * أساء وما نيل إحسانه
وقال نَوَيْب :

أيا ثارات من قتلته سعدى * دمي لا تطلبوه لها حلالُ
أرق لها وأشفق بعد قتلي * على سعدى وإن قلّ النوال
وما جادت لنا يوماً ببذل * يمين من سعاد ولا شمال
ونوَيْب هذا هو الذي يقول :

ألا في سبيل الله نفسٌ تقسمتُ
شعاعاً وقلباً للحسان صديقُ
أفقت قلوبٌ كُنَّ عذبن بالهوى
زماناً وقلبي ما أراه يُفريقُ
عصيت بك الناهين حتى لو أنى
أموت لما أرعى على شفيق



قساة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب ، وغِلَظ الكبد ،
ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قُدَّت من الصخر .
فيقول :

أظن وما جرّبت مثلك أنما * قلوب نساء العالمين صُخُورُ
ذريني أنهم إن لم أنل منك زُورَةً * لعلَّ خيالاً في المنام يزور
بكيت إلى سِرِّ القطّاحين مرّ بي

فقلت ومثلي بالبكاء جدير

أسرب القطّاهل من يعير جناحه

لعلّى إلى من قد هويت أطيّر

وقد نظر المرحوم اسماعيل باشا صبرى إلى استعارة الجناح

فقال :

ياسرحةً بجوار الماء ناضرةً * سقالكِ دمعى إن لم يوف ساقيكِ
عارٌ عليك وهذا الظل منتشرٌ * فتك الهجير بمثلى فى نواحيك
هل من مُعيرى جناحى طائرٍ غرد

كى أقطع العمر شدواً فى أعاليك

فلا أنمر عن أرض غرست بها * ولا يرث بسمعى غير واديك
ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمانينة والهدوء

في حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود . كما قال بشار^(١)
 أيها الساقيان صبا شرابي * وأسقياني من ريق بيضاء رُودِ
 إن دأى الصدى وإن دوائى * شربة من رُضاب ثغر برودِ
 ولها مَبَسَمٌ كغُرِّ الأقالحى * وحديث كالوشى وشى البرودِ
 نزلت في السواد من حبة القلب ونالت زيادة المستزيدِ
 ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ * والليالى يبلى كل جديدِ
 عندها الصبر عن لقائى وعندى * زفرات يأكلن قلب الحديدِ
 وما أظرف قول أبى نواس في معشوقته جنان:

جنان تسبني ، ذكرت بخير * وتزعم أنني رجل خبيثُ
 وأن مودتي كذبٌ ومينٌ * وأنى للذى أهوى ثوثُ
 وليس كذا ولا ردٌ عليها * ولكن الملول هو النكوثُ
 ولى قلب ينازعنى اليها * وشوق بين أضلاعى حثيثُ
 رأت كفى بها ودوام عهدي * فملتني كذا كان الحديثُ

وأبدع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب
 ليت ما أصبح من * رقة خديك بقلبك
 ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع :

لقد صددنا كما صددتم * فهل ندمتم كما ندمنا
 وشققنا الوجد مُدَّ جفوتهم * فأظهر الدمع ما كتمنا

(١) في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف ، فارجع اليه لترى ما صنع الدهر بشعر بشار

وهبت روجي وقلت عطفاً * فما عطفتم وما رجعنا
ملكتموها وما وصلتكم * لقد غنيمتم وما غنمنا
ما أزددتُ خوفاً على فؤادي

إلا وزدتم رضى وأمننا
وما رجائي وقد قويتكم * على جفائي وزدت وهناً
قتلت نفسي على جفاكم * وما قرعتم على سنا
لهفي على السالف المفدى * لو كان يُجدي الفدا لجُدنا
فما ذكرنا الذي تقضى * إلا على حسنه أنتحبنا

لو كنت أشكو الهوى لصخر
لحنٌ وجداً وأنَّ حزننا
وذاب من هول ما أراه
فقد برانا الهوى وذنبنا
إن كان ذنب فساحونا * ويشهد الله ما أسأنا
وصاحب البدائع هو الذي يقول:
أيها الظالم الجميل سلامٌ * من أسيرٍ قيدته بجفاكا
كيف أصليتني من الهجر ناراً
وحرمت العيون من أن تراكا

ليت من شاء أن يطول أسانا
في سبيل الهوى أطال أساكا
سوف أنجو من الغرام وأغدو
مُطاق النفس من قيود هواكا
فأسقني المرّ من صدودك واحكم

جائر الحكم في ظلال صباكا
وقد حسب بعض الناقدين أن في هذا الشعر نذيراً بنقض
العهد ، وجعود الود ، وليس الأمر كما يحسبون ، وإنما هي صورة
لحالة من حالات النفس ، حين يثور الوجد ، ويتمنى الحب ليأسه
لو أفلت من أشراك هواه ، وهيهات هيهات !!



سيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق
بالنفوس ، وقتله للقلوب ، فمنهم من يذكر تعثره في الطريق ، وضلاله
عن القصد ، بعد فراق من يحب ، كما قال بعض الأعراب :
وما وجد مغلوب بصنعاء مؤثق

بساقية من ثقل الحديد كُبول

ضعيف الموالى مُسلم بجريرة * له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلال أنت مُعذب * غداة غدٍ أو مُسلم فقتيل
بأوجع منى لوعة يوم راعني * فراق حبيب ما إليه سبيل
غداة أسير القصد ثم تردني

عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر ، وهي آية في وصف الخيرة
يرمى بها الحب المشوق ، بعد فراق لا يرجى أن يعقبه لقاء .
وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كُبل بالحديد ، في جريرة
لا يغنى في دفعها ضعف مواليه ، وقد أصبح موضع النذير من
الجلال في كل صباح ومساء . وحسب الفراق أن يرمى الحب في
مثل هذه الحال !

وأنشد الجاحظ :

أزف البين البين * قطع الشك اليقين
 حننت العيس فأبكى * نى من العيس الحنين
 لم أكن لا كنت أدري * أن ذا البين يكون
 علمونى كيف أشتا * ق إذا خف القطين
 وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول :
 وأنا بكيت من الفرا * ق فهل بكيت كما بكيت
 ولطمت خدى خالياً * وممرسته حتى اشتفيت
 وعواذلى ينهينى * عمّن هويت فما انتهيت
 وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون مايجرى بعد
 الفراق . ويأويلتاه من الفراق !
 وما أصدق من يقول :
 أمز معة ليلي بين ولم تمت * كأنك عما قد أظلك غافل
 ستعلم إن شطت بهم غربة النوى
 وزالوا بليلى أن قلبك زائل
 ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسى أحبابه متاعب السفر ،
 ومشاق الشرى ، ومصاعب الادلاج . ثم يرجع إلى نفسه فيتوَّجّع
 لحاله بعد الفراق كقول أبي تمام :
 لو كان فى البين إذ بانوا لهم دعة
 لكان بينهم من أعظم الضرر

فكيف والبين موصول به تعب
تكدف اليد في الادلاج والبكر
لو أن ما يتليني الحادثات به
يكون بالماء لم يشرب من الكندر

أو كان بالعيس مابى يوم رحلتهم
أعيت عن السائق الحادى فلم تسير
كأن أيدى مطايهم إذا وخذت
يقعن فى حر وجهى أو على بصرى

وهذا شعر يذيب لفائف القلوب . وقال بعض المعذنين
قد قلت والعبرات تسـ * ففحها على الخلد المآقى
حين انحدرت الى الجزيرة * رة وانقطعت عن العراق
بابؤس من سـل الزما * ن عليه سيفاً للفراق
إي والله !!

يابؤس من سـل الزما * ن عليه سيفاً للفراق
إنه لا محالة مقتول !

وقد يابوم الحب نفسه على فراق أحبابه ، كالذى يقول :
أتظعن عن حبيبك ثم تبكى * عليه فمن دعاك الى الفراق
كأنك لم تذق للبين طعماً * فتعلم أنه مر المذاق
أقم وأنعم بطول القرب منه * ولا تظعن فتكبت باشتياق

فما اعتاض المفارق من حبيب * ولو يعطى الشام مع العراق
ومثله من يقول :

تطوى المراحل عن حبيبك دائماً
وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى
تشكو الفراق وأنت عين الظالم
هلاً أقمت ولو على حجر الغضى
قلبت أوحداً الحسام الصارم
وما أوجع ما قالته إحدى النساء :
وكنا كفصتي بانه وسط روضة
نشم شذا الأزهاري عيشة رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع
فيافردة بانث تحن إلى فرد
ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال



وصف يهزق القلوب
بمنه الحب آه
الله لا يربح يا فزون

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق ، فليس يبدع
 أن يهرب البحتري من منظر الوداع ، وأن يظرف حين يقول :
 الله جارك في انطلاقك * تلقاء شامك أو عراقك
 لا تعدلني في مسيرك * يوم سرت ولم ألاقك
 إني خشيت موافقاً * للبين تسفح غرب ماك
 وعلمت ما يلقي المتيسر *م عند ضمك واعتناقك
 وعلمت أن لقاءنا * سبب اشتياقي وأشتياقك
 فتركت ذاك تعمداً * وخرجت أهرب من فراقك
 وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الأحنف وقد حرم
 توديع من يحب :

كفى حزناً أنى بقيت وليس لى
 سبيلٌ إلى توديعكم فأودع
 تلفت خلفي حيث لم تبق حيلة
 وذودت عيني نظرة وهي تدمع



غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغراب ، والتشاؤم من منظره ، حتى
ليقولون : غراب البين . فمن ذلك قول كثير :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانه * ينثفُ أعلى ريشه ويطيره
فقلت ولو أنى أشاء زجرته

بنفسى للنهدى هل أنت زاجره

فقال غراب لا غتراب من النوى

وفى البان بين من حبيب تجاوره

فما أعيف النهدي لادر دره * وأزجره للطير لا عز ناصره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة ، وسخر من

المتطيرين ، ورأى أن الإبل هى التى تفرق الأحباب . كقول أبى

الشيص :

ما فرق الأحباب بعـد الله إلا الإبل

والناس يلحون غرا * ب البين لما جهلوا

وما على ظهر غرا * ب البين تطوى الرحل

ولا إذا صاح غرا * ب فى الديار احتملوا

وما غراب البين إلا * ناقة أو جمل

ومنهم من لا يميز ذم المطي، لان لها صلة بمن يحب
كالذي يقول :

زعموا بأن مطيهم عون النوى
والمؤذنات بفرقة الأحابير
ولو أنها حتمى لما أبغضتها
ولها بهم سبب من الأسباب



فقد العزاء

وقد يَعْنُفُ الهوى ويقسو ، حتى يذهب بجميل الصبر ،
وحميد العزاء ، فمن العشاق من يفقد اصطباره عند الوداع . كقول
ابن نباتة السعدي :

كيف العزاء وأين بابه * والحيُّ قد خمت رِكابه
بأغرَّ منتقبٍ يُمُّ * على محاسنه نقابه
متأودُّ حلو السائل * من أساوره حقاؤه (١)
زعم الخبِر أنه * ضربت على سلع قباؤه
فطلبته كالأيِّم أو * كالسيل في الليل أنسيابه
فاذا أحمُّ المقلتيه * ن يشين أنمله خضابه
يهتزُّ مثل السمهرى * تدافعت فيه كعابه
وقف الولائد دونه * كالقلب يستره حجابُه
أقبلت أسأله وأع * لم أن حرمانى جوابه
ويلي على متلوث الأ * لا خلاق يعجبه شبابه
لا رسله تترى الي * نا بالسلام ولا كتابه
وأحب أن يتأمل القارئ هذه القصيدة البديعة ، وأن يتنبه
إلى دقة الوصف في جميع ما عرَّض الشاعر له . وعلى الأخص

(١) الحجاب : ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلي . والمعنى أنه دقيق الخصر

تلون الأَخلاق ، والزهو بالشباب ، في أرباب الجمال !!

وقال الشريف :

ورامين وهنا بالجار وإنما * رموا بين أحشاء المحبين بالجر

رموا لا يبالون الحشا وتروحو

خليبين والراى يصيب ولا يدرى

وقالوا غداً ميعادنا النقر عن مني

وما سرتى أن اللقاء مع النفر

ويا بؤس للقرب الذى لاندوقه

سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر

فيا صاحبي إن تخط صبراً فاني

نزعْتُ يديَّ اليوم من طاعة الصبر

وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه

فيعاد دمع العين مُثَقَّلُ السَّفر

وقد يستولى الحزن على القلب ، ويتغلغل في سويدائه ، حتى

يئأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما

قال بعض الشعراء :

كم أسترّاح إلى صبر فلم يُرح

صب اليكم من الأشواق في ترح

تركتم قلبه من حزن فرقتكم
 لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرح
 وقال خالد الكاتب بفضل اللوعة على العزاء :
 عاتبت نفسي في هوا * لك فلم أجدها تقبل
 وأطعت داعيها اليك * فلم أطع من يعذل
 لا والذي جعل الوجوه * له لحسن وجهك تمثّل
 لا قلت إن الصبر عنك * من التصابي أجمل
 وقال اسحق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل :
 تقصّتُ لَباناتٌ وَجَدَّ رَحِيل * ولم يُشَفَّ من أهل الصفاء غليل
 ومُدَّتْ أَكفٌ للوداع فصاغت
 وفاضت عيونٌ للفراق تسيل
 ولا بدَّ للألأف من فيض عبرة
 إذا ما خليلٌ بان عنه خليل
 فكم من ديمٍ قد طُلَّ يوم تحمّلت
 أو انسٌ لا يودى لهنّ قتييل
 غداة جعلت الصبر شيئاً نسيته
 وأعولتُ لو أجدى على عويل
 ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها
 هوَى منه بادٍ ظاهرٌ ودخيل

كما نظرت حوراء في ظلِّ سِدْرَةٍ
دعاهاً إلى ظلِّ الكِنَاسِ مَقِيلُ
وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبهِ كصبر الظَّماءِ عن الماءِ
فيقول :

إليك من الأنام غدا أرتياحى
وأنت من الزمان مدى أقتراحى
وما اعترضت هموم النفس إلا
ومن ذكراك ريحاني وراحى
فديتك إن صبرى عنك صبرى
لدى عطشى عن الماء القراحِ
ولى أملٌ لو الواشون كفوا
لأطلع غرسه ثمر النجاحِ
وأعجبُ كيف يغلبني عدوُّ
رضاك عليه من أمضى سلاحى
فؤادى من أسى بك غير خالٍ
وقلبى من هوى لك غير صاحى
فلو أستطيع طرت إليك شوقاً
وكيف يطير مقصوص الجناحِ

ويأسى ابن الدمينة على أن لم يُغنسه القرب ، ولم يسله البعد ،
فيقول :

وقد زعموا أن الحب إذا دنا
يملُّ وأن النأى يشفى من الوجدِ
بكلِّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا
على ذاك قرب الدار خير من البعدِ
على أن قرب الدار ليس بنافعٍ
إذا كان من تهواه ليس بنى عهدِ
وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الأعراب :
فيارب إن أهلك ولم تروِ هامتي
بليلى أُمّت لا قبر أعطش من قبري
وإن أكُ عن ليلى سلوت فأنما
تسلّيت عن يأسٍ ولم أسلُ عن صبرِ
وإن يكُ عن ليلى غنيّ ومجلدٌ
فرب غني نفسٍ قريب من الفقرِ



بكاء الشباب

ولعلَّ أشجى ما يمرَّ بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعد انصرام
 الشباب ، والشباب هو شفيع الفتى إلى قلوب الحسان ، فإذا مضى
 فقد أصبح بلا شفيع ، والويل للمفرد المغلوب !
 من أجل ذلك تفنن الشعراء ، في بكاء الشباب ، والتنكُّر
 للمشيب . ففهم من تبيضُّ في رأسه شعرة واحدة ، فلا يراها قليلة
 لأن قذى العين غير قليل ، كما قال ابن الرومي :
 طرفت عيون الغانيات وربما * أمالت إلى الطرف كلَّ تميل
 وما شبت إلاَّ شيبةً غير أنه * قليل قذاة العين غير قليل
 وابن الرومي يكثر البكاء على شبابه ، ويعلل نفسه أحياناً بأن
 الشيب في الرأس كالنور على الغصن ، ويأسى كثيراً لاحتياجه إلى
 الخضاب ، الذي يراه أشبه بسواد الحداد ، ويسكاد يصرخ من
 خروجه إلى الحسان في شعريته ، وقلب حى ، والمحـب يتفجّر قلبه
 دائماً بالحياة ! وانظر كيف يقول :

شاب رأسى ولات حين مشيب

وعجيب الزمان غير عجيب

قد يشيب الفتى وليس عجيباً

أن يُرى النور في القضيب الرطيب

ساءها أن رأت حبيباً إليها

ضاحك الرأس عن مفارق شيب

يا حليف الخضاب لا تخدع النفس * فما أنت للصبي بنسيب

ليس يُجدي الخضاب شيئاً من النف

مع سوى أنه حداد كئيب

هَف نفسي على القناع الذي مَحَّ

وأعقبتُ منه شرَّ عقيب (١)

منع العين أن تقرَّ وقرَّتْ * عين واشٍ بنا وعين رقيب

شعرٌ مَيَّتٌ لذى وطبرٍ حيٍّ * كنار الحريق ذات اللهب

ظلمتني الخطوب حتى كَأَنِّي * ليس بيني وبينها من حسيب

وما أروع قوله في السُّخْر من الخضاب :

رَأَيْتِ خضاب المرء عند مشيبه * حداداً على شرخ الشيبية يُلبَس

وإلاَّ فما يغزو امرؤٌ بخضابه

أيطمع أن يخفى شبابٌ مدَّلسٌ

وكيف بأن يخفى المشيب لخاضب

وكلَّ ثلاثٍ صبحه يُتنفَسُ

وهبهُ يوارى شيبه أين ماؤه * وأين أديم الشيبية أملَسُ

(١) مع القناع : بلى . والعقيب : البديل

وقال أشجع السامى يوصى بانتهاب اللذات ، قبل أن يقف في
سبيلها الحرم والمشيب :

ومالى لا أعطى الشباب نصيبه

وغصناه يهتزان في عوده الرطب

رأيت الليالى يتتهين شببيتي * فأسرعت بالذات في ذلك النهب

رأيت بنات الدهر يخلصن لذنى

لقد حزن سلى وانتهين إلى حربى

وقد حوّلت حالى الليالى وأسرجت

على الرأس أمثال الفتيل من العطب

وموت الفتى خير له من حياته

إذا كان ذا حائرين يصبو ولا يصبي

وقال آخر في صدوف النساء عن صرعى المشيب :

هل الأدم كالأرام والزهر كالدمى

معاودتى أيامهن الصوايح

زمان سلاحى بينهن شببيتي * لها سائق من حسنهن ورامح

وأقسمن لا يسقيننى قطر مزنة

لشيبى ولو سالت بهن الأباطح

وكان أستاذنا المرحوم فقيده اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي

كثير الإعجاب بقول أبى منصور النيرى فى الجزع على شبابه

المفقود

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع

إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع

بان الشباب ونابتني بفرقة * خطوب دهر وأيام لها خدع

ما كنت أوفي شبابي كنه قيمته * حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

تعجبت أن رأيت أسراب دمعته *

في حلبة الخلد أجراها حشاً وجم

اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم

تشجعي بغصته والعذر لا يقع

لألحين فتاتي غير كاذبة * عين الكذوب فما في ودك طمع

ما بالشيبية من وان وإن رفعت

إلا لها نبوة عنه ومر تدع

إني لمعرف ما في من أرب

عند الحسان فما في النفس من خدع

قد كدت تقضي على فوت الشباب أسي

لولا أعزيك إن الأمر منقطع

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر ، وبكى له ، وأنشد:

أأمل رجعة الدنيا سفها * وقد صار الشباب إلى ذهاب

فليت الباكيات بكل أرض * جتمع لنا فنحن على الشباب

ومن التعليل الكاذب قول البحترى في مدح المشيب:

عذلتنا في عشقها أم عمرو * هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمة ألم بها الشيد

ب فريعت من ظلمة في شروق

ولعمري لولا الأقاليم لأبصر * ت أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يجاوز * ه يياض ما كان بالموموق
ومزاج الصهباء بالماء أملئ * بصبوح مُستَحْسَن وغبوق
أى ليل يبهى بغير نجوم * أو سحاب يندى بغير بروق
ولكن ماذا يصنع الأشيب ، إن لم يغالط الحسان بأمثال
هذه العاذير ؟ ..



بلايا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع . ونتقدم
 ذلك بقول بعض الأندلسيين وقد قَبِلَ من يهواه :
 ياربَّ إن قدَّرته لمقبَلٍ * غيرى فلامسواك أو للاكؤُس
 وإذا قضيت لنا بصحبة ثالثٍ * يارب فليكن شمعاً في المجلس
 وإذا حكمت لنا بعين مراقبٍ * يارب فليكن من عيون النرجس
 ألت ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن
 ينعم بحبيبه سواء ، فجعل يتمنى ، لو تنفع الأمانى ، أن لا يراقبهم
 غير النرجس ، وأن لا يصحبهم غير الشمعة ، وأن لا يقبل محبوبه غير
 الكأس أو المسواك ؟ !

وقد جنَّ العرب بالغيرة جنونا : فتخيَّلوا غسان بن جهضم يشد
 زوجه من عالم الأرواح ، وقد زُفَّت إلى غيره بعد موته بقليل :
 غدرت ولم ترعى لبعلك حرمةً

ولم تعرفي حتماً ولم تحفظي عهداً

ولم تصبرى حولاً حفاظاً لصاحب

حلفت له يوماً ولم تنجزى وعدا

غدرت به لما ثوى في ضريحه

كذلك ينسى كل من سكن الأحدا

وتخيل رواة العرب أن موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر)
وقد أقبلت من بعده على أخيه هرون فأنشدها وهي نائمة هذه
الآيات :

أخلفت عهدي بعد ما * جاورتُ سكان المقابرُ
ونكحتِ غادرةً أخى * صدق الذي سمّاك غادرُ
لا يهنك إلا لف الجدي * دُ ولا تم عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا

ح وصرت حيث غدوت صائر

بعد هذا التمهيد يستطيع القارئ أن يدرك لمَ حملت الغيرة
عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته !! وحديث هذا
الشاعر عجب : فقد ذكروا أنه اشترى غلاما وجارية ، ثم شغفاه
حبا ، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله
ثم خشي أن يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال ، فذبجها
وأحرقها وجعل من ترابهما آيتين للشراب !!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب
الغلام هذه القطعة الباكية :

أشفقت أن يرد الزمان بغدره

أو أبتلى بعد الوصال بهجره

قرّ قد استخرجته من دجنه * لبليت وأثرته من خدره

فقتلته وله على كرامة * فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائم

والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدرى الميت ماذا بعده * بالحي منه بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه

ويكاد يخرج قلبه من صدره
ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية
هذه القطعة التي يندران نجد أحرّ منها في الرثاء :

ياطلعة طلع الحمام عليها * فجنى لها تمر الردي بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقتها * ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما * روى الهوى شفتي من شفتيها
فوحق نعلينا وما وطئ الثرى * شيء أعزّ على من نعلينا
ما كان قتلها لأنني لم أكن * أبكي إذا سقط الذباب عليها

لكن بخلت على الوجود بحسنها

وأنفّت من نظر العيون اليها
ولعل الظلم لم يرزق حجة أقوى من هذه الحجة ، ولا برهاناً
أسطع من هذا البرهان !! وكانت السيدة سكينة تعيب على جرير
قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجمي بسلام

وكانت تقول : قاتله الله ما أقساه ! هلاّ قال : ادخلي بسلام !

فلو سمعت السيدة سكينه بهذا الحب السفاح لطل بكأؤها

على صرعى الغيرة ، وقتلى الاشفاق !! ولئن كان الجنون فنونا كما

يقولون ، فهذا ورب الكعبة أغرب فنون الجنون ! وكنا نودّ لو

حدثنا التاريخ عن أثر هذه الأعجوبة في أنفس من عاصروا ابن

رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال ! ألم يكفهم أن الحسن

حال تحول ، ودولة تدول ، حتى تسوق غيرتهم اليه الفناء ؟ وبعد

فقد سمي عبد السلام من رغبان هذا « ديك الجن » وانه في فعلته

هذه لشیطان مرید !

هذا ، ومن الشعراء من يغار من عود البشام حين يستاك

به الحبيب ، ومن العقد يطوق به الجيد ، ومن النقاب يحجب به

الوجه الجميل ، كما قال الشريف :

ياغزال الجزع لو كا * ن على الجزع لمام

أحسد الطوق على جي * دك والطوق لزأم

وأعص الكفّ إن نا * ل ثناياك البشام

وأغار اليوم إن مر * على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبته ، كما قال خالد الكاتب :

محبك شفه أمة * وخامر جسمه ستمه
 وباح بما يجمعه * من الأسرار مكتمة
 أما ترثي لمكتب * يحبك لجه ودمه
 يغار على قميصك حين تلبسه ويهمه
 وكأقال بعض الأعراب :
 أرى القميص على ليلي فأحسده

إن القميص على ماضٍ محسود
 ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، فيكنى عنه ، لئلا تتمتع به
 الآذان ، كما قال البها زهير :
 وأثره اسمك أن تمرَّ حروفه * من غيرتي بمسامع الجلاس
 فأقول بعض الناس عنك كناية

خوف الوُشاة وأنت كل الناس
 وقد يغار المحب على حبيبته من نفسه ، كما قال أبو تمام :
 بنفسى من أغار عليه منى * وتحسد مقلتي نظرى إليه
 ولو أنى قد رت طمست عنه * عيون الناس من حذرى عليه
 حبيب بث في قلبى هواه * وأمسك مهجتي رهناً لديه
 فروحى عنده والجسم خال * بلا روح وقلبي فى يديه

الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الأحباب اليهم ،
وتوجيه أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طلبتهم من القرب ، وبغيتهم
من الوصل ، ولذلك حالات : فمن العشاق من يقبّح لحبيبه المطل
والخلف ، حتى يبرّ بوعده ، وينفي بعده . كقول ابن الأحنف :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ هَوًى

وَلَمْ يَكْ مَوْصُولًا بِمَحَبَّتِكُمْ حَبْلِي

وإني لأستحيي لكم من محدث

يحدث عنكم بالملالة والمطل

وكقول الطغرائي :

وياجيرتي بالجزع جسمي بعدكم * نحيل^١ وطرفي بالسهاد كليل^٢

عهدت بكم غصن الشيبية مورقاً

نحان وختم والوفاء قليل^٣

وأودعتكم قلبي فاما طلبته * مطلتم وشر الغارمين مطول^٤

فان عدتم يوماً تريدون مهجتي * تمتعت إلا أن يقام كفيلاً ^{هو}

ومن المتيمين من يُجرّم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب

الوفاء ولا يقيح الاخلاف ، وإنما يرجو وعداً يجاو به كربة قلبه ،

ويطفئ به نار جواه ، لو تغنى الوعود :

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر ، وقد صادف
في توحشه حيّ ليلي ، ولقيها فجأة فعرّفها وعرفته ، فصعق وخر
مغشياً عليه ، وأقبل فتیان من حيّ ليلي فأخذه ، ومسحوا التراب
عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا ليلي أن تقف له وقفة !
فرقت لما رأيته وقالت : أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ، ثم قالت
لجارتها : إذهبي إلى قيس فقولی له : ليلي تقرأ عليك السلام ،
وتقول لك : أعزّز عليّ بما أنت فيه ! ولو وجدت سبيلاً إلى شفاء
دائك لوفيتك بنفسی افضت الوليدة إليه وأخبرته بقولها فأفاق
وجلس ، وقال : أبلغها السلام ، وقولي لها : ههات ههات ! إن
دائي ودوائي أنت ، وإن حياتي ووفاي لفي يديك ، ولقد وكلت بي
شقاءً لازماً وبلاءً طويلاً ، ثم بكى ، وأنشأ يقول :

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها

قريبٌ ولكن في تناولها بعدُ

لقد عارضتنا الريح منها بنفحة

على كبدي من طيب أرواحها برْدُ

فأزلت مغشياً عليّ وقد مضت

أنأة وما عندي جواب ولا ردُّ

أقلب بالأیدی وأهلي بودهم

يفدّونني لو يستطيعون أن يقدّوا

ولم يبق إلا الجلد والعظم عاريا
 ولا عظم لى إن دام مابى ولا جلد
 أدنيائى مالى فى انقطاعى ورغبى
 اليك ثوابٌ منك دينٌ ولا نقد
 عدينى بنفسى أنت وعداً فربما
 جلا كربة المكاروب عن قلبه الوعد
 غزتنى جنود الحب من كل جانب

إذا حان من جند قفول أتى جند
 والبيت الأخير أعجوبة من أعاجيب الخيال ، فما زال المحبون
 صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الحدود ، غزتهم جنود
 العيون . ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعاً حتى ذهب
 بلبه ، ولم يبق إلا أن تتكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المقيم المحزون ولكنه لا يطلب وعداً يطارد به
 جيوش الأحرار ، ولا يرجو الوفاء بوعده كان يهتدى به فى ظلمات
 الشجون ، وإنما يلمح ، وقد يكون التاميح ، أبلغ من التصريح ،
 فيذكر أن الحسن يمدق به من كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا
 يميل ، لأنه بمن يحب مشغول . وانظر قول الأبيوردى فى هذا
 المعنى البديع :

وَقَتِكَ الردى بيضٌ حسانٌ وجوهها
ومثريّةٌ من نضرةٍ وجمالِ
طلعن بدوراً في دجى من ذوائبِ
ومِسْن غصوناً في متونِ رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها
بأعرافٍ جُرْدٍ أو رهوسِ عوالِ
عرضن علىّ الوصل والقلب كلهُ * لديك فأنى يبتغين وصالى؟
ولولاك ما بعث العراق وأهلهُ * بوادى الحى والمندلى بضالِ
فما لنساء الحى يضمرون غيرةً * سببها العوالى ما هنن ومالى
ولو خالفتنى فى متابعة الهوى * يمينى ما واصلتها بشمالى
وفيكِ صدودٌ من دلالٍ أظنهُ

على ما حكى الواشى صدود ملال
وقد يتمنى المحب أن يمرض ليعوده الحبيب واليك قول
ابن الخياط :

أحنُّ إلى سقمى لعلك عاثرى
ومن كلفٍ أنى أحنُّ إلى السقمِ
وحتامَ أستشفى من الداء ما بهِ
سقامى وأستروى من الدمع ما يظمى

فراقٌ أتى في إثرِ هجرٍ وما أذى
بأوجعَ من كَلَمٍ أصابَ على كَلَمٍ

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم أن من
المحبين من أشقاه المرض ، فلم يسعده العواد ؟ . وهل أتاه حديث
ابن الأحنف وقد لجأ به المرض فأخذ يهذى بهذا الشعر الباكي
الحزين ؟ :

أهابك أن أشكو إليك وليس لي
يدٌ بالذي ألقى وأخفى من الوجد
واني لصادى الجوف والماء حاضر

أراه ولكن لا سبيل إلى الورود
وما كنت أخشى أن تكون منيتي

بكف أخص الناس كلهم عندي

وهل وصلت إليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن
الأحنف إلى حجاج البيت الحرام ، وقد توقع أن يمروا بدار هواه ؟
انظر إلى ذلك العليل ، وقد خفى الداء ، وتعذر الشفاء أو كلما
عصر الماء في فيه مجة ، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهبت العلة
بجمال نظراته ، وسحر بسماته ، وإن نودى لم يجب بغير الأنين ،
انظر إليه وقد تمنى جرعةً من جت بريق حبيبته يحملها إليه
الحجاج في زجاجة ! ولو أمكن أن تنقل إليه النظرة ، لرجاه أن

يحملوا إليه نظرة ، ولو خلق الفنو غراف في ذلك الحين لرجاهم أن
ينقلوا إليه نعمة من نعماتها العذاب ! ولو مهر المصورون إذ ذاك لكلفهم
أن يصوروا مشيتها الفتاة في الضحى والأصيل ! انظر إليه وهو
يرجوهم أن يتعلموا عند أهله فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما
هي من ماء زمزم ! ويحك ، وأين ماء زمزم للملح الأجاج ، من
ماء ذلك الثغر العذب الفرات ؟ انظر إليه وقد أوصاهم أن يرثوا
ريق من يهوى على وجهه ، فان صادفوه ميتاً فليرشوه على قبره !
انظر كيف يقول :

أزوارَ بيت الله مُرثُوا بيثرب
لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا
على جلب للحادثات جليب
فانا تركنا بالعراق أخا هوى
تنشَبَ رهناً في حبال شعوب
به سَقَمَ أعياء المداوين علمه
سوى ظنهم من مخطيء ومصيب
إذا ما عصرنا المساء في فيه مجّه * وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لى منها جرعة في زجاجة
ألا إنها لو تعلمون طيبي

وسيروا فان أدركتمُ بي حُشاشةً
 لها في نواحي الصدر وَجَسَ ديبِ
 فرشوا على وجهي أفق من بليتي
 يثيبكم ذو العرش خير مثيبِ
 فان قال أهلى ما الذى جئتمُ بهِ
 وقد يحسن التعليل كل أريبِ
 فقولوا لهم : جئناه من ماء زمزم
 لنشفيه من دائه بذنوبِ
 وان أنتمُ جئتمُ وقد حيل بينكم
 ويبنى يومٍ للمنون عصيبِ
 وصرت من الدنيا إلى قعر حفرةِ
 حليفَ صفيحٍ مطبقٍ وكثيبِ
 فرشوا على قبري من الماء وأندبوا
 قتيل كعاب لا قتيل حروبِ

وكان ابن الأحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئاً ولا يخاف
 شيئاً، وكل مناه أن يعلم فانتوه أنه يحبهم، وأن يسمعوا صوت
 ما يجد، وإنه لمطلب زهيد، ولكنه قد يعصب المنال،
 وانظر هذه الآيات التي يندر أن نجد مثلاً في تصوير الحب

وقد خلاه من أذكوا نار جواه ، وتركوه يتلوى ويتململ ، فوق
جمر الهوى وجمر الصدود :

أبكى الذين أذاقوني مودتهم * حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قت منتصباً

بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا

جاروا على ولم يوفوا بعدهم

قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

لا خرجن من الدنيا وحبكم * بين الجوانح لم يشعر به أحد

حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم

قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجد

*
**

ومن حسن الإشارة قول إبراهيم بن المهدي :

يا غزالاً لي إليه * شافع من مقلتيه

والذي أجلت خدي * فقبلت يديه

بأبي وجهك ما أكثر حسادي عليه

أنا ضيف وجزاء الضيف * إحساناً إليه

والاحسان الذي يرجوه هذا الشاعر يذكركنا بقول

بعض الأعراب :

آل ليلى إن ضيفكم * واجد بالحي مذللاً

أمكنوه من ثنيتها * لم يُردْ خمرًا ولا عسلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون :

يا هلالاً تترأء * هُ نفوسُ لا عيون

عجباً للقلب يقسو * منك والعطفُ يلينُ

ما الذى ضرك لو سُرى * بمرآك الحزين

وتلطفت بصبٍ * حينه فيك يحينُ

فوجوه اللطف شتى * والمعاذيرُ فنونُ

وما أوجع الأسي في قول ابن هانئ :

يا بنت ذى البرد الطويل نجادهُ

أ كذا يجور الحكم في ناديك

عينك أم مغناك موعدا وفى

وادی الكرى ألقاك أم واديك ؟

منعوك من سمة الكرى وسروا فلو

عثروا بطيف طارق ظنوك

ودعوك نشوى ما سقوك مدامة

لما تمايل عطفك أتهموك

حسبوا التكهّل فى جفونك حليمة

تالله ما بأ كفهم كلوك

وجلّوك لي إذ نحن غصنا بانه

حتى إذا احتفل الهوى حجبوك

ويندر أن نجد بين الأدياء من لا يحفظ قول ابن الطثرية

عقيليّة أمّا ملاث إزارها * قد عصّ وأما خصرها فبتيل

تقيظ أكناف الحمى ويظلمها * بنعمان من وادي الأراك مقيّل

أليس قليلا نظرة إن نظرتها

إليك ، وكلا ليس منك قليل

فيا خلة النفس التي ليس دونها * لنا من أخلاء الصفاء خليل

ويا من كتمنا حبه لم يطع به * عدوّ ولم يؤمن عليه دخیل

أما من مقام اشتكى غربة النوى

وخوف العدا فيه إليك سبيل

فؤادي أسير لا يفك ومهجتي * تفيض وأحزاني عليك تطول

ولي مقلة قرّ حتى لطول اشتياقها

إليك وأجفاني عليك همول

فديتك أعدائي أثير وشقتي * بعيد وأشياعي لديك قليل

وكنت إذا ما جئت جئت بعلّة * فأفانيت علّاتي فكيف أقول

فما كل يوم لي بأرضك حاجة * ولا كل يوم لي إليك رسول

صحائف عندي للعتاب طويتها * سننشر يوماً والعتاب طويل

فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة * فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

وَلْنَخْتَمَ هَذَا الْبَابَ بِقَوْلِ صَاحِبِ الْبِدَائِعِ :

أَجِبْنِي إِنْ تَفَضَّلْتَ * عَلَى الْمَسْكِينِ بِالرَّدِّ
أَلَنْسَى الدَّهْرَ مَا جَادَتْ * بِهِ عَيْنَاكَ مِنْ وَعْدٍ ؟
وَأَرْسِمُ لَكَ حَدًّا * وَمَا لُجْوَايَ مِنْ حَدٍّ ؟
وَأَقْنَعُ بِالرَّدَى وَرَدًّا * وَغَيْرِي سَائِغَ الْوَرْدِ ؟
وَأَرْضَى بِاللَّظَى مَثْوًى * وَوَجْهَكَ جَنَّةَ الْخُلْدِ ؟

وَفِيَّ حَافِظًا أَشَقِي * لَيْسَعَدَ نَاقِضَ الْعَهْدِ
وَصَبًّا وَهَلَا أَفْنِي * لِيَبْقَى جَا حِدَ الْوُدِّ
فِيَا وَيْلَاهُ مِنْ حَبٍّ * حَمَلْتُ بَلَاءَهُ وَحْدِي !
أَعِدُّ لِحُلِهِ جُهْدِي * فَيَصْعَقُ بِطَشِهِ جُهْدِي



الحنين

هل أتاك حديث الصّمة بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه ،
 وكان لها محبباً ، فاشتط عليه عمه في المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثرياً
 فلم يعنه ، فأمر عشيرته فأسعضوه ، ثم ساق الابل إلى عمه ، فقال
 لا أقبل هذه في مهر ابنتي ، فسل أباك أن يُبدها لك . فسأل أباه
 ذلك فأبى عليه ، فلما رأى صنّ أبيه وإباء عمه قطع عقلها وخلاها
 فعاد كل بعير إلى أهله و يروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين
 بعيراً فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها . فقال الصّمة : والله
 ما رأيت الأم منكماً ، وإنى لألام منكماً جميعاً ان أقت بينكما . ثم
 رحل إلى الشام . فقالت ابنة عمه : تالله ما رأيت كالיום رجلاً
 باعته عشيرته ببعير ! !

تأمل أيها القارئ هذه القصة الوجيهة ، وأكملها بما لديك
 من وثبات الخيال ، ولا تطالبنى بأكثر من هذا الإيجاز ، فانما
 أتخذة مقدمة لدرس قصيدة الصّمة في الحنين . . . ألم تر إليه وقد
 طالت غربته ، فعبث الشوق بقلبه ، وأعتادته ذكرى أحبابه
 وأوطانه ، فقال يعاتب نفسه ، ويحاور فؤاده :

أمن ذكر دار بالرقاشين أصبحت

بها عاصفات الصيف بدءاً ورُجماً

حننت إلى ريتا ونفسيك باعدت * مزارك من ريتا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا * وتجزع إن داعي الصباية أسمعنا
ثم أخذ يخاطب رفيقيه — وقد بالغوا في لومه وأطلا في
تأنيبه — فقال :

ألا يا خليلى الذين توأصيا * بلومي إلا أن أطيع وأتبعنا
قفا إنه لا بد من رجوع نظرة * يمانية شتى بها القوم أو معا
لمفتصب قد عزه القوم أمره * حياء يكف الدمع أن يتطلعا
ثم شرع في تعجيزهم وتئيسهم فقال :

فان كنتم ترجون أن يذهب الهوى
يقينا ونزوى بالشراب فننقعا

فردوا هبوب الريح أو غبروا الجوى
إذا حل الواذ الحشا فتمنعا

ومن يستطيع ذلك؟ تالله ما العاذل وإن اشتط في عذله ،
وبالغ في لومه ، بقادر على نسيانك أو سلوانك !

ظن الهوى لبسة تبلى فيخلعها

فكان في القلب مثل القلب في البدن

ثم عاد الى رفيقيه يسألها الاسعاد والانجاء

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمى * وقل لنجد عندنا أن يودعا
مسكين ! وقل لنجد أن يودع ! إذن فما كنت صانعا لو

أنصفته أكنت تغرب في البكاء والإعوال حتى يرحمك أعداؤك ،
ويرثي لك حاسدوك؟ أم كنت تقتل نفسك جوى وحزنا ؟ ثم قال :
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرُّبى

وما أجمل المصطف والمتربعا
وليست عشيّات الحمى برواجع

إليك ولكن خلّ عينيّك تدمعا
اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك
واستبق دمعك لا يودى البكاء به

واكفّ مدامع من عينيّك تستبق
فما الشؤن وإن جادت بياقية

ولا الجفون على هذا ولا الحدق
ثم أخذ يصف موقفه وقد حال (البشر) بينه وبين أحبابه
وأوطانه ، فقال :

ولما رأيت (البشر) أعرض دوننا

وحالت بنات الشوق يحنّ نزرعا

بكت عينيّ اليسرى فلما زجرتها

عن الجهل يعد الحلم أسبيلتا معا

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندي
من دلائل الوله ، وعلام الصباية المضلة . ثم قال في وصف مالاقي

في تَلَفُّتِهِ مِنَ الْعَنَتِ :

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي

وَجِئْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعَا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظّه من البيان . وقد

تبعه الشريف الرضى فأبدع وأجاد في قوله :

ولقد مررت على ديارهم * وربوعها بيد البلى نَهَبُ

فوقفت حتى ضجُّ من لَغَبٍ * نضوى ولجَّ بعذلى الركب

وتلفَّتت عيني فمذ خَفِيتُ * عني الربوع تلفَّت القلب

ويمتاز بيت الصمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه

المواقف من ظاهر التعب . فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه

غير من كابد الشوق وعانى الصبابة . ثم قال الصمة في تنمة

الحديث عن جواه :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثى

على كبدي من خشية أن تصدَّعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة . وقد أكله ابن نباتة

السعدى بقوله :

أضمُّ على قلبي يديَّ مخافةً

إذا لاح لي برقٌ من الشرق لامعٌ

وهل ينفع القلب الذى بان إلفه

إذا طار شوقاً أن تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه :

ودعّنى بزفرة واعتناق * ثم نادى متى يكون التلاق
وبدت لى فأشرق الصبح منها * بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم * بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أقطع يوم * ليتنى مت قبل يوم الفراق
لأن الشاعر قد يرثى فيأخذ في ذكر المعاهد والعهود ، وقد
يظعن حبيبته ويقيم ، فيأخذ في الإيعال عليه ، والحنين إليه ،
وهناك من غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل
من سابقتها جوً وحزناً ، بل ربما كانت أكثر حيرة : وهى أن
يلتقى الركبان وفيهما محب ومحبوب ، ثم يفترقان قبل أن يتلاقى
الصبيان ، ويجتمع الخلان ، فلا يدرى العاشق أى عهد يبكى ، وأى
حظ يندب ، كما لا يعرف أيلوم نفسه لأنه ظعن وترك حبيبته مقيماً ،
أم يشكو دهره لأن حبيبته سار وخلقه ، أم يعول إيعالاً مُبهماً
لا يعرف مصدره ، ولا يفهم مبعثه ، والشعر فى هذا المعنى أقرب
الى الذكرى منه إلى الحنين ، ومن الجيد فيه قول الأرجانى :

أستودع الله قوماً كيف أبعدنا

تقلب الدهر منهم حين أدانا

زُمُوا الغداةَ مطاياهم لفرقتنا * لما أنخنا للقيام مطايانا
لم تشتبك بعدُ أطناب الخيام لنا

ولا المنازل ضمتهم وإيانا

لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا

وخلقوا الطرب المشتاق حيرانا

لم يملأ العين من أحبابه نظراً * إذ غادر الدمع منه الجفن ملاً
وإني موافيك ببديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل حال المحب
نأى عنه حبيبته ، أو خلف أحبابه وسار ، فن الأول قول سبط
ابن التعاويذى .

أ تعود أيامى برامةً بعد ما * سكنت بجرعاء الحى آراهما
وأحلها البين المشتُّ محلةً * بعدت مراميهما وعزَّ مرامها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت

نفسٌ يزيد على الورود هيامها

ياغادرين وغادروا بجوانحى * لبعادهم ناراً يشب ضرامها
بثم فلا عيني تحفَّ غروبها * أسفاً ولا كبدى يُبيلُ أوامها
جودوا لعين المستهام بهجمةٍ * فعسى تمثلكم لها أحلامها
لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق * سيان بين حميمها وحمامها
أعداه من هيف الخصور نحوها

يومَ النوى ومن العيون سقامها

ولم أجد في هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين
لبكاء هذا اليوم صنت مدامعى

وكذا العزيز لـكل خطب يُذخِرُ
ياساكنى وادى العقيق فدتكم * عينٌ مدامعها عقيق أحمر
بتم فما استعذبت بعد حديثكم * لفظا ولم يحسن لعينى منظرُ
والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبى ربيعة :

لم يحبب القلب شيئا مثل حبكم * ولم تر العين شيئا بعدكم حسنا
فأما شعر من نأوا عن أحبابهم ، وذاوا معاهد أنسهم ، فهو
كثير ، ومن جیده قول الأبيوردی يتشوق إلى أحبابه وقد خلاهم
بيغداد :

ألا ليت شعرى هل أرانى بغيضة
أبيت على أرجائها وأقيلُ
هواء كأيام الهوى لا يغبه * نسيمٌ كالحظ الغانيات عليلُ
وعصر رقيق الطرتين قد رجّت
على صفحتيه نضرة وقبولُ

وأرضٌ حصاها لؤلؤ وترابها * تضيوع مسكها والمياه شمولُ
بها العيش غص والحياة شبيهة * وليلي قصير والهجير أصيلُ
فقل لأخلائى بيغداد هل بكم * سلو فعندى رنة وعويلُ
ترنحنى ذكراكم فكأنما * تميل بى الصهباء حيث أميلُ

أئن قصرت أيام أنسى بقربكم * فليلي على نأى المزار طويل
وقال أعرابي من بني عَقِيل :
أحنُّ إلى رض الحجاز وحاجتي
خيام بنجد دونها الطرف يقصر

وما نظرى نحو الحجاز بنافعي * بشيءٍ ولكنى على ذاك أنظرُ
أفى كل يوم نظرةٌ ثم عبرةٌ * لعينيك يجرى ماؤها يتحدَّرُ
متى يستريح القلب إمَّا مجاورٌ * حزينٌ وإمَّا نازحٌ يتذكرُ
وقال آخر فى الحنين إلى أيامه السوالف :

سقى الله أياماً لنا قد تتابعت * وسُقياً لعصر العامرية من عصرِ
ليالى أعطيتُ البطالة مَقودى * تمرُّ الليالى والشهور ولا أدرى
ومن شائق الحنين قول ابن الدمينه :

ألا لا أرى وادى المياه يثيبُ

ولا النفس من وادى المياه تطيبُ

أحب هبوط الوادين وإننى * لمشتهرٌ بالواديين غريب
أحقاً عباد الله أن لست وارداً * ولا صادراً إلا على رقيب
ولا زائراً فرداً ولا فى جماعةٍ

من الناس إلا قيل أنت مُريبُ
وهل ريبةٌ فى أن تحنَّ نجيبةٌ * إلى إلها أو أن يحنَّ نجيب

وإن السكيب الفرد من جانب الحمى
إلى وإن لم آتِه لحبيب
لك الله أنى واصل ما وصلتني * ومثني بما أوليتني ومثيب
وأخذ ما أعطيت عفواً وإنني * لأزورُ عما تكرهين هيب
فلا تتركى نفسى شعاعاً فانها

من الوجد قد كادت عليك تذوب
وإني لأستعصمك حتى كأنما * على بظهر الغيب منك رقيب
وفى هذا المعنى يقول صاحب البدائع:

تجمل بالسماح ودع ملامى * وكن عون الحب المستهام
ففى أسيوماً لو تدرى حبيب * هجرت لبعده طيب المنام
أسيت له يحن إلى لقائى * ودون مرامه كيد اللثام
إذا ما الليل جنّ ونام صحبى * مشّت نار التذكر فى عظامى
سلاماً أيها النائي سلام * وهل يغنى عن الأقبيا سلامى



الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رقة القلوب ، فمن ذلك قول خالد
الكاتب :

بجسمى لا بجسمك يا عليل * ويكفينى من الألم القليل
تعدّلك السقام إلىّ إلىّ * على ما بى لشدّته محول
إذا ما كنت يا أملى صحيحاً * فخالفى وسألك النحول
وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعريّة من يقول :

وحسبك حسرة لك من حبيب * رأيت زمامه ييدى عدو
وقد يتمنى الحب لو أعفى المرض محبوبه ، ورّتع كيف شاء
في الأجسام الدميمة ، كما قال سحيم

ماذا يريد السقام من قمر * كلُّ جمالٍ لوجهه تبع
ما يرتجى ، خاب ، من محاسنها * أماله فى القباح مدّسع
لو كان يبغى الفداء قلت له * ها أنا دون الحبيب يا وّجع
وما أرقّ ما يقول ابن الأحنف

ان التى هامت بها النفس * عاودها من سقمها نكس
كانت إذا ما جاءها المبتلى * أبرأه من راحها اللبس
وا بأبى الوجه المليح الذى * قد عشقته الجن والإنس
إن تكن الحمى أضرت به * فربما تنكسف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله :

أما والله لو بجدين وجدى * لقلقل ما وجدتِ إذا حشاكَ
وقاكِ الله كل أذى بنفسى * وعجلْ يا ظلومُ لنا شفاكَ

وأنشد أبو الحسن بن البراء :

فديتك ليلي منذ مرّضتَ طويلُ

ودمعي لما لاقيت فيك همولُ

أشرب كأساً أم أسرُّ بلذةٍ

ويعجبنى ظبيُّ أغنُّ كحيلُ

وتضحك سني أو تجف مدامعي

وأصبو إلى لهُوٍ وأنت عليلُ

شككتُ إذا نفسي وقامت قيامتي

وغالت حياتي عند ذلك غولُ

وقال يوسف بن ابراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم

وقد أصابته حمى تركت على شفته بثورا

حاشاك أن تمرض حاشاك * قد أشتكى فابي لشكواكا

إن كنت محموماً ضعيف القوى * فاني أحسد حمّاكا

مارضيتُ حمّاك إذ باشرتُ * جسمك حتى قبلت فاك

وهذا الشعر وإن كان خطاباً لوزير إلا أن فيه سمات

التشبيب !

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب ،
فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ، كما قال المؤمل .

حَلُمْتُ بكم في نومتى ففضبتُمُ
ولا ذنب لى إن كنت في النوم أحلُمُ
سأطرد عنى النوم كيلا أراكمُ

إذا ما اتانى النوم والناس نَوَمُ
تُصارمنى والله يعلم أننى * أبرُّ بها من والديها وأرحمُ
وقد زعموا لى أنها نذرت دى * وما لى بحمد الله لحمٌ ولا دمُ
برى حبها لى ولم يُبق لى دماً * وان زعموا أنى صحيحٌ مسَلَمُ
فلم أر مثل الحبَّ صحَّ سقيمُهُ

ولا مثل من لم يعرف الحبَّ يسقمُ
ستقتل جلدًا بالياً فوق أعظم * وليس يبالى القتل جلدٌ وأعظمُ
ومنهم من يبلى جسمه ، ولا يبلى شوقه ، كما قال أبو تمام :
يا جفوناً سواهما أعدمتها * لذة النوم والرقاد جفونُ
بلى الجسمُ لكن الشوق حى * ايس يبلى وليس تبلى الشجون
ان لله فى العباد منايا * سلطتها على القلوب العيونُ
ويقرب من هذا المعنى قول السرى الرفاء

فِداؤُك من أوردته منهل الردى
وورِد الردى للعاشقين يَطِيبُ
وما مات حتى أنحل الحبُّ جسمه
فلم يبق فيه للتراب نصيبُ
والأرجاني يذكر أن طيفه لو زار حبيبته لحمل شخصه اليه
لنحوله؛ ويقول:

يَروى ضاحيَ الوجنات دمعى
ويعدل عن لبيب جوى دخيلِ
وما أنفعى وإن هطلت غيوثُ
إذا أخطأ أمكنة الخولِ
هُم نقضوا عهدى يوم بانوا
وأبدوا صفحة الطرف الملولِ
وفوا بالهجر لما أوعدوني * وكم وعدوا الوصال ولم يفوا لي
وفى الركب الهاليلين خشف * تعرض يوم تشيع الحمولِ
أصاب بطرفه الفتات قلبى
وكيف يصاب ماضٍ من كليلِ
بخلت وقد حظيت بصفو ودى
وان من العناء هوى البخيلِ

وبت لو استترت اليوم طيفي

لجرّ اليك شخصي من تحولي

ولكن لا سبيل الى شفاء * إذا مال الطبيب على العليل

وممنهم من يذكر أنه ضنى حتى لو تعلق بعود ثمام ما تأوّد،

كما قال الحسين بن مطير الأسدي :

خليلى هل ليلى مؤدّية دمي * إذا قتلتني أو أميرٌ يُقيدها

وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقلّ

قتلت ولم يشهد عليها شهودها

ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا

إذا لم يكن صلبا على البري عودها

نظرت اليها نظرة مايسرنى * يهاخر أعام البلاد وسودها

ولى نظرة بعد الصدود من الجوى

كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها

تحتّى متى هذا الصدود إلى متى

لقد شفّ نفسي هجرها وصدودها

فلو أن ما أبقيت منى معلق * بعود ثمام ما تأوّد عودها

وقال الخارثى في وصف أسرار النحول :

سلبت عظامي لهما فتركتها * مجردة تضعي لديك وتخصرُ

وأخليتها من مخها فكأنها * أنايب في أجوافها الريح تصفرُ

إذا سمعت بأسم الفراق تقععت * مفاصلها من هول ماتت نظراً

خذي يدي ثم ارفعي الثوب تنظري

بي الضرر إلا أنني أستر

فاحيلتي إن لم تكن لك رحمة

على ولا لي عنك صبر فأصبر

ويقول ابن الأحنف :

انظر إلى جسد أضرب به الهوى

لولا تقليب طرفه دفنوه

وتابعه المتنبي فقال :

كفى يحسمي نحولاً أنني رجل

لولا مخاطبتي إياك لم ترنى

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته

إلى بعض أحيابه :

سكنت إلى النوى ونسيت صباً

نحيلاً كاد يقتله الحنين

فلما لم يجد في الحب صبراً

ولم ترحم جوانحه الشجون

تفاني في النحول فلو تبدى

لما فطنت خطرتة العيون

وهاهو كالخيال أتاك يسرى
مخافة أن تُظنَّ به الظنونُ
فأكرمُ نُزلهُ وارحمُ صنائهُ
فإن فؤادك الحرم الأمينُ

وقال بعض الشعراء :

إن الذى أبقيت من جسمه * يامتلف الصبَّ ولم يشعر
صبابةً لو أنها دمة * تجول فى عينيك لم تقطُر^(١)



(١) الصبابة بالضم هى البقية الطفيفة من الشئ .

أمانى المحبين

والمحبين أمان كثيرة ، لو تنفع الأمانى ، فمنهم من يتمنى
الكأس من يد جميل ، بين ندمان يُعاطونه أطايب الحديث ، كما
قال العطوى

وكم قالوا تمنّ فقلت كأس

يطوف بها قضيب من كشيّب
وندمان تساقطى حديثاً * كلف الحُبّ أو غصّ الرقيب
وإنها لأمنيةٌ عزيزة المنال !

ومنهم من يسامر الأمانى حتى ليحسب محبوبه بين يديه ،
كما قال ابن الزيات :

يادانى الدار فى الأمانى * ونازح الدار فى العيانِ
ذكرك دانٍ وأنت ناءٌ * فأنت ناءٌ وأنت دانٍ
نفسك موصولةٌ بنفسى * وأنت كالنجم من مكافى
لى فكركُ فيك معجباتٌ * فى اللفظ صِفْرٌ من المعانى
تجرى ضروبٌ من التعنى * فى كل يوم على لسانى
أقول حتى كأنّ عيني * تراك من حيث لا ترائى
ويتمنى ابن الأحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته ، ويقول :
مجلسٌ يُنسب السرور إليه * بمحبٍ ريمحائه ذكراكِ

كلما دارت الزجاجة زادت * هُ اشتياقا وُحرقةً فبكاءِ
لم يَنَلِكِ الرجاءُ أنْ تحضريني * وتجاغت أمنيّ عن سواكِ
فتمنيت أنْ يُعشّيني الـ * هُ نَعاسا لعلَّ عيني تراكِ
وربما تمنّى الحبُّ لو أُعيرَ سَلوةٌ من قلب حبيبهِ ، كما قال البحترى
وَدِدْتُ وهل نفسُ امرئٍ بملومةٍ

إذا هيَ لم تعطِ الهوى من ودادها
لو أنّ سُليمي أسجحت أولوآنه

أعير فؤادي سَلوةً من فؤادها
وما أظرف النشوة التي تمنّاها البحترى حين قال :
هل لي سبيلٌ إلى الظهران من حلب

ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسِ
أمدُّ كفى لأخذ الكأس من رشاً

وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب أنفاسه أشفى الغليل إذا

دنا فقربها من حرٍّ أنفاسي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهذلي ، فقد
تمنى أن يجتمع بحبيبتة فوق أمواج البحر ، ومن دونها اللجج
الخنصر والأهوال ، وإليك أرْوَع ما في هذه القصيدة البديعة

ليلى بذات الجيش دار عرفت
 وأخرى بذات البين آياتها سطر
 كأنهما ولان لم يتغيرا
 وقد مر الدارين من بعدنا عصر
 وقفت برسمها فعي جواها
 فقلت وعيني دمعها سرب همر
 ألا أيها الركب المحبون هل لكم
 بساكن أجزاع الحمى بعدنا خبر
 فقالوا طوينا ذاك ليلاً فان يكن
 به بعض من تهوى فما شعر السفر

*
* *

أما والذي أبكى وأضحك والذي
 أمات وأحيا والذي أمره الأمر
 لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها
 بتاتاً لأخرى الدهر ما طالع الفجر
 فما هو إلا أن أراها فجأة
 فأبتهت لا عرف لدى ولا نكر
 وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها

كما قد تُنسى لب شاربها الحمر

وما تركت لي من شدة أهتدي به
ولا ضلعت إلا وفي عظمها وقر
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى
أليفين منها لا يروعهما الذئع
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها
إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عذر
مخافة أني قد علمت أن بدا
لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وأنى لا أدرى إذا النفس أشرفت
على هجرها ما يبلغني بي الهجر
تكاد يدي تندى إذا ما لمستها
وينبت في أطرافها الورق النضر
واني لتعروني لذكراك هزة
كما أنتفض العصفور بالله القطر
تمنيت من حي عليّة أننا
على رمث في البحر ليس لنا وفر
على دائم لا يعبر الفلك موجه
ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر

فَنَقْضِيَّ هَمْ النَّفْسِ فِي غَيْرِ رُقْبَةٍ
وَيَغْرُقُ مِنْ نَحْشِي نَمِيمَتَهُ الْبَحْرُ
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فَلَمَّا أَتَقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
فِيَا حَبِيبَا زِدْنِي جَوْيَ كُلِّ لَيْلَةٍ
وَيَا سَكُونَةَ الْأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الْحَشْرُ
هَجَرْتُكَ حَتَّى قُلْتُ لَا يَعْرِفُ الْقَلْبُ
وَزَرْتُكَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ لَهُ صَبْرُ
صَدَقْتُ أَنَا الصَّبَّ الْمَصَابِ الَّذِي بِهِ
تَبَارِجُ حُبِّ خَامَرِ الْقَلْبِ أَوْ سِحْرُ
فِيَا حَبِيبَا الْأَحْيَاءِ مَا دُمْتُ فِيهِمْ
وَيَا حَبِيبَا الْأَمْوَاتِ مَا ضَمَّكَ الْقَبْرُ
وَإِلَيْكَ شَيْءُ الْأُمَانِي فِي قَوْلِ جَمِيلٍ :
جَزَتْكَ الْجَوَازِي يَا بَشِينَ مَسْلَمَةً
إِذَا مَا خَلِيلٌ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ أُبَيِّنُ لَيْلَةً
بَوَادِي الْقُرَى ؟ إِنْ إِيَّاسُ سَعِيدُ
فَقَدْ تَلْتَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسَةٍ
وَقَدْ تُطْلَبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ

ويحسبُ نِسوانٌ من الجهل أني

إذا جئت إياهن كنت أريدُ

فأقسم طرفي بينهنَّ سويةً * وفي الصدرَ بونَ بينهنَّ بعيدُ

فليت وُشاةُ الناسِ بيني وبينها * يدوف لهم سَمًا طاممُ سودُ

وليتهم في كلِّ مُسَمًى وشارقٍ * تُضَاعَفُ أكبالُهم وقيودُ

إذا جئتها يوما من الدهر زائرًا

تعرّضَ منقوض اليدين صدودُ

يصدّ ويغضى عن هوايَ ويحتنى

ذنوبًا علينا إنه لعنود

فأصرمها خوفًا كأنى مُجانبُ * ويفضل عنا مرةً فنعودُ

يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ * وأى جهاد غيرهن أريدُ

لكلِّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ * وكل قَتِيلٍ بينهنَّ شهيدُ

وغاية الغايات في هذا الباب قول أبي بكر بن عبد الرحمن الزهرى:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى * أتيقاً وبستاناً من النور حاليًا

أجدُّ لنا طيب المكان وحسنه * مُنى فتمنينا فكنكتِ الأمانيا



الهيبة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن ، ويضلون سبيل الرشد حين
يراجعون أرباب الجمال . وانظر قول أبي فراس :

أراميتي كل السهام مُصيبةٌ

وأنت لي الراي فكلّ مقاتلٌ

وإني لَمَقْدَامٌ وعندك هائبٌ

وفي الحىّ سبحانهٌ وعندك باقل

يضلُّ على القول ان زرت دارها

ويعزب عني وجه ما أنا فاعلٌ

وحجتها العُلْيَا على كل حالةٍ

فباطلها حقٌّ وحقٌّ باطلٌ

وما أرق قوله في عكس هذا المعنى :

ومُعْضٍ للمهابة عن جوابي * وإنَّ لسانه العَضْبُ الصَّقِيلُ

أطلت عتابه عَتَمًا وظلمًا * فدَمَعَ ثم قال : كما تقول !

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن ، قول الحسن بن وهب :

أقول وقد حاولت تقييل كنفها

وبى رعدةً أهنأ منها وأسكنُ

لِيَهْنِكَ أَنِّي أَشْجِعُ النَّاسَ كُلَّهُمْ
لدى الحرب إلا أننى عنك أجبن
وقول بعض الأعراب :

أهأبك إجلالاً وما بك قدرة * على ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها

قليل ولكن قل منك نصيبها

وفى الخضوع للحبيب يقول الشريف :

كم ذميل اليكم ووجيف

وصدود عنا لكم وصدوف^(١)

وغرام بكم لو أن غراماً * جرّ نفعاً للواجد المشغوف
صبوة ثم عفة ما أضر الحبيب في كل خلوة بالعفيف
هجرونا ولم يلاموا وواصلنا على مؤلم من التعنيف
وطلبنا الوفاء حتى إذا عزّ * رضينا بالمطل والتسويق
كيف يرجو الكثير من راضه الشو

ق الى أن رضى ببذل الطفيف

وانظر قول ابن الرومى :

أضعيتى فرعيت * وخنيتى فوفيت
أطعت فى الأعدى * وكلهم قد عصيت
فكيف أصبحت غصبي * لما رضاك أتيت

(١) الذميل والوجيف من ضروب السير

الرضى بالقليل

وقد يقنع الحب وهور اغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأمانى
وهى كواذب ، لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس
ابن الأحنف :

كفى حَزَنًا أَنى وفوزاً ببلدةٍ

مقيمَانِ فى غير اجتماع من الشمل
أما والذى ناجى من الطَّور عبدهُ

وأُنزل فرقانًا وأوحى إلى النحلِ

لقد ولدت حواء منكِ بليَّةٌ * على أقاسيها وخبلاً من الخبلِ
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهمُ

بشئٍ سوى حُسْنِ المواتاةِ والبذلِ

وانى ليرضىنى الذى ليس بالرضى * وتقنع نفسى بالمواعيد والمطل
وفى هذا المعنى يقول الشريف :

لَكَ اللهُ هَلْ بعد الصدود تعطُّفٌ * وهل بعد رِيعَانِ البعاد تدانِ
وما غرضى أَنى اسومك خُطَّةٌ * كفانى قليلٌ من رضاك كفانى
وقال بعض الظرفاء :

أنا راضٍ منكم بأيسر شئٍ * يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلاَمٍ على الطريق إذا ما * جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميرى فى ليل الأخيلىة

وهل تبكين ليلي اذا مت قبلها * وقام على قبرى النساء النوائح
كألو أصاب الموت ليلي بكيته

وجاد لها دمع من العين سافح
وأغبط من ليلي بما لا أناله * بلى كل ماقرت به العين صالح
وقد كثر القليل فى قول ابن الطرية :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها * اليك ؟ وكلا ليس منك قليل
وجاراه فى هذا المعنى من قال .

إن ماقل منك يكثر عندى * وكثير ممن تحب قليل
وأبرع الشعر فى هذا المعنى قول جميل :
وانى لأرضى من بثينة بالذى

لو أبصره الواشى لقرت بلائله
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبأمنى ،

وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى

أواخره لانتلقى وأوائله

وفى مقابل هذا يقول ابن الفارض :

واذا اكتفى غيرى بطيف خياله

فأنا الذى بوصاله لا أكتفى

وأبدع منه قول ابن الرومي :

أعانتَهُ والنفس بعدُ مشوقةٌ * إليه وهل بعد العناق تدانِ
وَأَلَمَ فَاهُ كى تزول حرارتى * فيشتد ما ألقى من الهَيَّانِ

ولم يك مقدار الذى بي من الجوى

ليرويه ما تلثم الشفتان

كأن فؤادى ليس يشفى غليله

سوى أن يرى الروحين يمتزجان



شفاء الحب

وقد يمرض الحب ، فيفتنُّ الناس في وصف دوائه ، على أنه
لا يبرأ الا بقرب من يحب . وانظر قول عروة بن خزام وقد
رأى عفراء :

وما هي إلا أن أراها بُجاءة * فأبغت حتى ما أ كاد أُجيبُ
وأصدف عن رأيي الذي كنت أرتئى

وأنسى الذي أزمعت حين تغيبُ
ويظهر قلبي عذرها ويعينها * على فالي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكانَ شفاها

قريباً وهل مالا ينال قريبُ
فواكبداً أمست رُفاتا كأنما * يلدغها بالموقدات طيب
عشيّة لا عفراء منك بعيدة * فتسلو ولا عفراء منك قريبُ
لئن كان برد الماء حرّان صادياً * إلى حبيبها إنها لحبيب
وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب :

أيا زينة الدنيا التي لا ينالها * منى ولا يبدو لقلبي صريمها
بعيني قذاة من هوائك لو أنها

تداوى بمن أهوى لصح سقيمها
وبرء قذاة العين ان لم يكن لها * طيب يداوى نظرة تستديعها

فما صبرت عن ذكرك النفس ساعة

وان كنت أحيانا كثيرا ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول أبي العتاهية :

قل لمن لست أسمى * بأبي أنت وأُمي

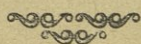
بأبي أنت لقد أصبح *ت من أكبر همي

ولقد قلت لأهلي * إذا ذاب الحبُّ لحمي

وأرادوا لي طيباً * فاكثفوا مني بعلمي

من يكن يجهل ما ألقى * فإن الحب سقمي

ان روي لبغدا * دَ وفي الكوفة جسمي



القلب الخافق

تذكر هنا ألواناً من تصوّر الشعراء لخفوق القلب ، فمنهم
 من يشبهه بتنزّي الكرة ، كما قال بشار :
 يُروّعهُ السّرار بكل شيء * مخافة أن يكون به السّرار
 كأنّ فؤاده كرة تنزّي * حذرّ البين لو نفع الحذار
 ومنهم من يشبهه بالوشاح القلق ، فوق الخصر الدقيق ، كقول
 مسلم بن الوليد :

أزكى من المسك أنفاساً وبهجتها
 أرقّ ديباجةً من رقة النّفس
 كأن قلبي وشاحها اذا خطرت
 وقلّبتها قلّبتها في الصمت والخرس (١)
 تجرى محبتها في قلب عاشقها

جرى السلامة في أعضاء منتركس
 وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب
 بالدف ، ويقول :

يبين لسانى عن فؤادى وربما * أسرّ لسانى ما يروح به طرفى
 أعينك أن تشقى بقتلى فانى
 أخاف عليك الله إن سمتنى حتفى

(١) القلب بضم القاف هو السوار

إذا القلب أوما أن يطير صباية * ضربت له صدرى وألزمته كفى
كأن جناحيه إذا هاج شوقه

يداقينه هوجاء تضرب بالدَّفِّ

ومنهم من يشبهه بمجنح الطير حين ينتفض ، كقول أحد
الأعراب

ألا بأبى من ليس والله نافعى

بنيل ومن قلبى على النأى ذا كره

ومن كبدى تهفو إذا ذكر اسمه * كهفو جناح ينفض الطل طائره

وقد وضع هذا المعنى فى قول نصيب

كأن القلب ليلة قيل يُغدى * بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت * تجاذبه وقد علق الجناح

لها فرخان قد تركا بوكرا * فعشما تصفقه الرياح

إذا سمعا هبوب الريح نصا * وقد أودى به القدر المتاح (١)

فلا فى الليل نالت ما ترجى * ولا فى الصبح كان لها براح

وابن ميادة يذكر أن قلبه أمسى وكأن يدا ضبثت به ، أى

قبضت عليه وسامته العذاب ، ويقول :

كأن فؤادى فى يد ضبثت به

محاذرة أن يقضب الحبل قاضيه

وأشفق من وشك الفراق واننى
أظن لمحمولٍ عليه فراكبه
فوالله ما أدري أيغلبنى الهوى
إذا جدَّ جدُّ البين أم أنا غالبه
فإن أستطع أغلب وإن يغلب الهوى
فمثل الذى لاقيت يغلب صاحبه



مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كما هبَّ من نومه ، أو
أوى الى فراشه ، كالذى يقول :

أآخر شيء أنت فى كل هجمة * وأول شيء أنت عند هبوبى
مزيدك عندى أن أقيك من الردى

وودَّ كما المزن غير مشوب

والذى تمثل الحبيب فى قول راشد بن أرشد :

تحيرت فى أمرى وإنى لواقف

أجبل وجوه الرأى فىك وما أدرى

أعزم عزم اليأس فالموت راحة

أو أقنع بالاعراض والنظر الشزر

وإنى وإن أعرضت عنك لمنطو

على حرق بين الجوانح والصدر

إذا هاج شوق مثلتك لى لى * فألقاك ما بينى وبينك فى السر

فمن ذاك لم أصبر لى فىك حيلة

ولكن دعانى اليأس منك إلى الصبر

تصبرت مغلوباً وإنى لموجع * كما يصبر الظمان فى البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذى يقول :

ضحكت ولوتدرين ما بي من الهوى * بكيت لحزون الفؤاد كئيب
لمن لم ترح عيناه من فيض عبرة * ولا قلبه من زفرة ونحيب
لمستأنس بالهم في دار وحشة

غريب الهوى بالك لكل غريب
الأبى العيش الذى بان وانتضى

وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا

على غفلة من كاشح ورقيب
ليالى يدعونا الصبا فنحيبه * ونأخذ من لذاته بنصيب
الى أن جرى صرف الحوادث فى الهوى

فبدل منا مشهد بمغيب

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد، وحر منا منه صاحب زهر
الآداب حين قال « وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره،
وصنت الكتاب عن ذكره » وبهذه الصيانة فقدت الآداب هذا
الشاعر، وكم تمنى أن لا يخط المؤلفون بين الأدب والأخلاق !
وأجود ما قيل فى مثال الحبيب قول كثير :

أريد لا أنسى ذكرها فكأنما * تمثل لى ليلى بكل سبيل

أهوال الصدود

ولقد أطل الشعراء في شكوى الصد ، وما يُقاسون فيه
من أهوال ، فمن ذلك قول الشريف :
وبين ذوائب العقيدات ظبي

قصير الخطو في المرط المذال

ريب إن أريغ إلى حديث * نوار إن أريد إلى وصال
فهل لي والمطامع مُرديات * دنو من لمي ذاك الغزال
لقد سلبت ظباء الدار لبي * ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاق * معاجلتى بأيام الزيال
تحيفني الصدود وكنت دهرًا * أروّع بالصدود فلا أبالي
وكيف أفيق لاجسدي بناء * عن البلوى ولا قلبي بسالي
يرنخي إليك الشوق حتى * أميل من اليمين إلى الشمال
كما مال المعافر عاودته * حميًا الكأس حالًا بعد حال
ويأخذني لذكركم أرتياح * كما نشط الأسير من العقال
وعبد الله بن مصعب يأسى على أن لم يعده أحبابه في مرضه ،
مع أنه يعود كلهم إذا مرض ! ولهذا لقب (عائد الكلب) حين قال
مالي مرضت فلم يعدني عائد * منكم ويمرض كلبيكم فأعود
وأشد من مرضي على صدودكم * وصدود عبيدكم على شديد

ويرى أبو نوّاس أن قرب الدار لا ينفع مع الصدود ، ويقول :

لقد عاجلت قلبي جنان بهجرها

وقد كان يكفيني بذاك وعيدُ

رأيت تداني الدار ليس بنافعٍ

إذا كان ما بين القلوب بعيدُ

وابن الأحنف يترك العتب على الصد ، لئلا يُرزا بصدٍ

جديد ، ويقول :

تركت صدودها وصبرت نفسي

بطول تجرّع الغيظ الشديدِ

مخافة أن تجدد لي صدوداً

وكننت حديث عهدٍ بالصدودِ

وقد وضع هذا المعنى من قبل في قول أبي صخر الهذلي :

ويعنني من بعض إنكار ظالمها

إذا ظلمت يوماً وان كان لي عذرُ

مخافة أني قد علمت لن بدا

لي الهجر منها ما على هجرها صبرُ

والبحترى يمزج الشكوى بالعتاب في قوله :

ظلمتني تجنيماً وصدوداً * غير مُرتاعة الجنان لظلمي

ويسيرُ عند القتول إذا ما * أثمت في أن تبوء بائعي
أجد النار تُستعار من النا

ر وينشو^(١) من سُقم عينيك سقمي

لعب ما أثبت من ذلك الصد * ففرضاه أم حقيقة عزم
وبحق إن السيوف لتنبو * تارة والعيون باللاحظ تُدْمى
ويروقى الندم على الصدود في قول صاحب البدائع :
لقد صدَدْنَا كما صدَدْتُمْ * فهل ندْمُكُمْ كما ندْمُنَا ؟



(١) يقال نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ : أى قوى وزاد

التلفت الى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون ، تلفتهم الى معاهد الحب :
عند الوداع ، وبعد الفراق .

قال بعض الرواة : مررت بحمي الرَبْذَة فاذا صبيان
يتقاسمون ^(١) في الماء ، وشاب جميل الوجه مُلوَّح الجسم قاعد ،
فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام . وقال : من أين وضع الراكب ؟
قلت من الحمى ا قال : ومتى عهدك به ؟ قلت رأحاً . قال وأين كان
مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشافر ^(٢) . فألقى نفسه على ظهره ،
وتنفس الصعداء . فقلت نفساً ^(٣) حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلدًا أمست سُلَيْمِي تحلُّهُ * من المزن ما تُروى به وتُسِيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فانه * يحلُّ به شخصٌ عليَّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه * لدى وإن شطَّ المزار نعيم
ومن لامنِّي فيه حبيبٌ وصاحبٌ

فردَّ بغيظٍ صاحبٌ وحميمٌ

ثم سكت سكنته كالغنى عليه ، فصحت بالأصبية ، فأتوا
بماء فصببته على وجهه فأفاق ، وأنشأ يقول :

(١) يتقاسمون : يتقاطون . يقال قسسته في الماء غططته فيه (٢) المشافر منابت العرفج

(٣) نفساً : تشقق وانصدع

إذا الصب الغريب رأى خشوعى
وأنفاسى تزيّن بالخشوع
ولى عينٌ أضرّ بها التفانى
الى الأجزاء مطلقة الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسى
كما أنس الوحيد الى الجميع
والشاهد فى الآيات الأخيرة
وما أوجع تلفت القلب بعد العين فى قول الشريف :
تلفت حتى لم يبق من بلادكم
دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه
طوال الليالى نحوكم ليزيد
ولما تدانى البين قال لى الهوى
رويداً وقال القلب أين تريد
أتطمع أن تساو على البعد والنوى
وأنت على قرب المزار عميد
ولو قال لى الغادون ما أنت مُشته
غداة جزعنا الرمل قلت أعود^(١)

(١) جزع من باب منع : يقال جزع الارض قطعها

أَصْبِرْ وَالْوَعَاءَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَأَعْلَامَ خَبْتٍ ، إِنِّي جَلِيدٌ
وَانْظُرْ قَوْلَهُ فِي كَلِمَةٍ ثَانِيَةٍ
تَرَحَّلْتَ عَنْكُمْ لِي أَمَامِي نَظْرَةً
وَعَشْرٌ وَعَشْرٌ نَحْوَكُمْ مِنْ وَرَائِي
وَمَنْ حَذَرَ لَا أَسْأَلُ الرِّكَبَ عَنْكُمْ
وَأَعْلَاقَ وَجَدِي بَاقِيَاتُ كَمَا هِيَ
وَمَنْ يَسْأَلُ الرِّكَبَانَ عَنْ كُلِّ غَائِبٍ
فَلَا بَدَأَ أَنْ يَلْقَى بَشِيرًا وَنَاعِيًا



الصد والنوى

يأسى العشاق للصد ، حتى اذا راعتهم مرارة النوى ، علموا أن
الصد كان حلو المذاق . وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط :

كفى حزنًا أنى أبيت معذبًا

بنار هموم ليس يخبو سعيها

وأن عدوى لايراع وأننى

أبيت سخين العين وهو قريها

وإنى لرهن الشوق والشمل جامع

فكيف اذا حثَّ الحداة أميرها

وما زلت من أسر القطيعة باكيًا

فمن لى غداة البين أنى أسيرها

وكنت أرى أن الصدود منية

يكون مع الليل التمام حضورها

فلما قضى التفريق بالبعد بيننا * وجدتُ الليالى كان حلوًا مريها

هوئى ونوى يستقيح الصبر فيهما * وحسبك من حالٍ يذمُّ صبورها

وقد أصاب فى تشبيهه النوى بعد الهجر ، بالجرح بعد الجرح

حين قال .

أَحْنُ إِلَى سَقَمِي لِمَلِكٍ عَائِدِي
وَمَنْ كَلَّفَ أَنِي أَحْنُ إِلَى السَّقَمِ
وَحَتَامَ أَسْتَشْفِي مِنْ الدَّاءِ مَا بِهِ
سَقَامِي وَأَسْتَرَوِي مِنَ الدَّمْعِ مَا يَظْمِي
فِرَاقُ أَنِي فِي إِثْرِ هَجْرٍ وَمَا أَذَى
بِأَوْجَعٍ مِنْ كَلَمٍ أَصَابَ عَلَى كَلَمٍ
وَحَنِينِ الْحُبِّ إِلَى سَقَمِهِ ، أَمَلًا فِي أَنْ يَعُودَهُ حَبِيبِهِ ،
يَذْكُرُنَا بِقَوْلِ كَثِيرٍ :
يُودُّ بِأَنْ يَمْسِيَ سَقِيمًا لَهَا * إِذَا سَمِعْتَ عَنْهُ بِشَكْوَى تَوَاسَلْهُ



القريب البعيد

هو الحبيب الذى يجاورك ، أو يساكنك ، ثم لا تملك وصله ،
 ولا حديثه ، وقد تزوره بلمح العين . كما قال ابن الدمينه
 ألا حُبَّ بالبيت الذى أنت هاجرُهُ
 وأنت بتلماحٍ من الطرف زائرُهُ
 فيالك من بيتٍ لعينى معجبٍ
 وأحسنُ فى عينى من البيت عامرُهُ
 أصدُّ حياءً أن يباحَّ بى الهوى
 وفيك متى لولا عدوُّ أحاذرُهُ
 وفى هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :
 تدانت بقومٍ عن تناءٍ زيارةً
 وشطَّ بليلى عن دُنوّ مزارها
 وإن مقيمتٍ بمنعرجِ اللوى
 لأقرب من ليلى وهاتيك دارها
 والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع فى قربه ، بالماء يُمنع من
 وروده الظمان ، فنجد منهم من يقول :
 إني وإياك كالصادى رأى نهـلاً
 ودونه هـوَّةٌ يخشى بها التلغا

رأى بعينه ماءً عززُ موردهُ

وليس يملك دون الماء مُنصرفاً

ومن يقول :

ولمى على هجران بيتك كالذى

رأى نهلاً رِيّاً وليس بناهـلِ

يرى برد ماءٍ ذيد عنه وروضةً

برؤود الضحى فينانةً بالأصائلِ

وقد صورَّ جميل هذا المعنى حين قال :

وما صاديّاتُ حُمنَ يوماً وليلةً

على الماء يخشين العصى حوانى

حوائم لم يصدرن عنه لوجهة * ولاهن من برد الحياض دوانى

يرين حباب الماء والموت دونهُ

فهن لأصوات السقاةِ روانى

بأكثر منى غلةً وصبابةً * اليك ولمكن العدو عرانى

وقال أبو حية النميرى أو العباس بن الأحنف .

كفى حزناً أنى أرى الماء بادياً

لعينى ولكن لاسييل الى الورْدِ

وما كنت أخشى أن تكون منيتى

بكفٍّ أعز الناس كلهم عندي

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال
أبو نواس :

أحب اللوم فيها ليس إلا

لترداد أسمها فيما ألامُ

ويدخل حبها في كل قلب * مداخل لا تغلغلها المدامُ

وفي هذا المعنى يقول محمد بن أبي أمية :

وحدثني عن مجلس كنت زينه

رسول أمين والنساء شهودُ

فقلت له ردّ الحديث الذي مضى

وذكرك من بين الحديث أريدُ

وقد ظرف البها زهير حين قدّم رضى الحبيب على رضى

العذول ، وقال :

يامن يهدّد بالصدو * دِ نعم تقول وتفعلُ

قد صح عذرك في الهوى * لكنى أتلعل

قل للعذول لقد أطلست لمن تلوم وتعللُ

عابت من لا يرعوى * وعذلت من لا يقبل

غضب العذول أخف من * غضب الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبي فراس :

أساءَ فزادته الاساءةَ خطوةً * حبيبٌ على ملاكان منه حبيبٌ
يُعدُّ على العاذلون ذنوبَهُ

ومن أين للوجه المليح ذنوب ؟

والرقيب أخو اللأثم في تنغيص حياة العشاق ، ومن طريف
الشعر في الأثم لقرب الرقيب قول ابن المعتز .

وآبلائي في محضرٍ ومغيب * من حبيبٍ مني بعيدٍ قريب
لم تَرِدْ ماء وجهه العين إلا * شَرِقتْ قبل رِيها برقيب
وقوله :

قد دنت الشمس للمغيب * وحان شوقي إلى الحبيب
طوبى لمن عاشَ عَشْرَ يومٍ * له حبيبٌ بلا رقيب
وما أظرف من يقول .

لسهم الحب جرحٌ في فؤادى * وذاك الجرح من عين الرقيب
يوكل ناظره بنا ويحكى * مكان السكاتين من الذنوب
فلوسقط الرقيب من الثرى * لَصُبَّ على محبٍّ أو حبيبٍ
وانظر كيف ضرب المثل بغفلة الرقيب في قول أحد الأظرفاء :

يسقيك من كفه مداما * ألدَّ من غفلة الرقيب
كأنها إذ صَفَّتْ ورَقَّتْ * شكوى محبٍ إلى حبيبٍ
وقد كلف سعيه الورق بـغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم

رقباء ، وفيهم يقول :

بربك يا حمامة دير زكي * وبالأنجيل عندك والصليب
 قفى وتحملنى منى سلاماً * الى قبر على غصن رطيب
 حمامة جماعة الرهبان عني * فقلبي ما يقر من الوجيب
 وقالوا رابنا إمام سعد * ولا والله ما أنا بالمريب
 وقولى سعدك المسكين يشكو * لهيب جوى أحر من اللهيب
 فصله بنظرة لك من بعيد * اذا ما كنت تمنع من قريب
 وإن أنا مت فأكتب حول قبري * محب مات من هجر الحبيب
 رقيب واحد تنغيص عيش * فكيف بمن له ألفا رقيب
 انه لا بد مقتول ، كما قتل صاحب هذه الأبيات :



رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره ، كلما اشتاق اليه ،
كما قال الحكم بن قنبرة

ان كنت لست معي فالذكر منك معي
يرعاك قلبي وان غيبت عن بصرى
العين تبصر من تهوى وتفقد
وناظر القاب لا يخلو من النظر

وقال آخر :

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى
لئن غبت عن عيني ما غبت عن قلبي
ترينيك عين الوهم حتى كأني
أناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

وقال أبو عثمان الناجم :

لئن كان عن عيني أحمد غائبا
فما هو عن عين الضمير بغائب
له صورة في القلب لم يقصها النوى
ولم تتخطفها أكف النوائب

إذا ساءنى يوما شحوط مزاره
وضاقت بقاى فى نواه مذاهى
عظفت على شخص له غير نازح
محلته بين الحشا والترائب
ويقرب من هذا المعنى قول الآخر فى الاستعانة باسم الحبيب
وليل وصلنا بين قطريه بالسرى
وقد جد شوق مطمع فى وصالك
أطلت علينا من دُجَاه حنادِس
أعدن الطريق النهج وعر المسالك
فناديت يا أسماء باسمك فأنجلت
وأسفر منها كل أسود حالك
بنا أنت من هادِ نجونا بذكره
وقد نشبت فينا أ كف المهلك
منحتك إخلاصى وأصفيتك الهوى
وإن كنت لسا تخطرني ببالك

وفى هذا المعنى يقول اسحق الموصلى :

صبَّ يَحْتُ مطاياهُ بذكركم * وليس ينساكم إن حلَّ أوسارا
لو يستطيع طوى الأيام نموكم * حتى يبيع بعمر القرب أعمارا
يرجو النجاة من البلوى بقر بكم * والقرب يلهب فى أحشائه النارا

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب في حديث الشعراء ، وقد أثبت أخيراً
أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد . ونريد أن
نذكر هنا طرفاً من حديث العرب عن الكبد ، وقرار الحب فيه
مما يماثل هذا الرأي الجديد . قال بعض الأعراب :

فيا كبداً يحمى عليها وانها * مخافة هيضات النوى خلفوق
أقام فريق من أناس يودهم * بذات الغضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزون يظل وقلبه * رهين بيضات الحجال صديق
وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صدر در حين قال :

لا الحى بعدكم مناخ ولا ما * ء اللوى اذ هجرتموه بورد
والفؤاد الذى عهدتم جموحا * راضه طول جوركم والتعدى
ما تريدون من دلائل شوقى * غير هذا الذى أجن وأبدى
كبد كلاً وضعت عليه * راحتي قال أنت قادح زندي
وجفون جرين مداً وماء البـ * حر يرتاح بين جزر ومد
وكذلك جمع بينهما البحرى حين قال :

وما كبدي بالمستطيمة للأذى * فأسلو ولا قلبي كثير القلب

وابن الأحنف حين قال :
مالـكـلـوم الـتى بالـقـلب من آسى
فاصبر على اليأس يامستقبل اليأس
ما أسمع الناس فى عيني وأقبحهم
إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس
حتى متى كبدي حرّى معطشةً
ولا يلين لشيءٍ قلبك القاسى
يا موري الزند قد أعت قوادحهُ
اقبس إذا شئت من قلبى بمقباسٍ



بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر في بكاء الملاح ، وما أغزر
الدمع في بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب !

قال ابن عبد ربه : كان لمعلي الطائي جارية يقال لها (وصف)
وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضاح قال : أدركت معلى الطائي
بمصر وأعطى بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها . فلما دخل
عليها قالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال نعم . فقالت : والله لو ملكت
منك مثل ما تملك منى ما بعته بالدنيا وما فيها ! فرد الدنانير واستقال
صاحبه ثم أصيب بها الى ثمانية أيام . فقال يرثيها :

ياموتُ كيف سلبتني وصفا * قدّمتها وتركتني خلفا
هلاّ ذهبت بنا معاً فلقد * ظفرت يدك فسمتني خسفاً
وأخذت شقّ النفس من يدي

فقبرته وتركت لي النصفاً
فعليك بالباقي بلا أجل * فلموت بعد وفاتها أغفى
ياموت ما أبقيت لي أحداً * لما رفعت إلى اليلي وصفا
هلا رحمت شباب غانية * ربا العظام وشعرها الوحفا (١)
ورحمت عيني ظيية جعلت * بين الرياض تناظر الخشفا
تقضى اذا انتصفت مرابضه * وتظل ترعاه اذا أغفى

فإذا مشى اختلفت قوائمه * وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيرا في المشى مُرتعشا * يخطو فيضرب ظلمة الظلما
فكانها (وصف) إذا جعلت * نحوى تحير محاجرا وطفا (١)
ياموت أنت كذا لكل أخى * إلف يصون بيره الإلفا
خلقتنى فردا وبنت بها

ما كنت قبلك حاملا وكفا (٢)

أسكنتها فى قعر مظلمة * بيتا يصفح تربه السقفا
بيتا إذا ما زاره أحد * عصفت به أيدى البلى عصفا
لالتقى أبدا معاينة * حتى تقوم لربنا صفا
لبست ثياب الحنف جارية * قد كنت ألبس دونها الحنفا
فكانها والنفس زاهقة * غصن من الريحان قد جفا
ياقبر أبق على محاسنها * فلقد حويت البر والظرفا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأبيات

أقول لقبر زرتة متلما

سقى الله برّد العفو صاحبة القبر

لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى

وشمس الضحى بين الصفائح والقفر

(١) وطف جمع أوطف ووظف. وهو الماء الكثير أو الدمع : توصف به السحب والعيون

(٢) الكف : الظلم

عجبت لعين بعدها ملأت البكا * وقلبٍ عليها يرتجى راحة الصبر
وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له

جفوف البلى أسرع في الغصن الرطب
وخطب الردى والموت أبرحت من خطب
لقد شرقت في الشرق بالموت عادة

تبدلتُ منها غربة الدار بالقرب
أقول، وقد قالوا استراحت لموتها

من الكرب، روح الموت شرٌّ من الكرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها * لها منزل بين الجوانح والقلب
وما أجل قوله من كلمة ثانية

يقولون هل يبكي الفتى لخريدة * إذا ما أراد اعتاض عشرين مكانها
وهل يستعويض المرء من خمس كفه

ولو صاغ من 'حر' اللجين بنائها؟

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من المجيدات في الغناء
ما أولع الدهر في تصرفه * بكل زين له ومفتخر
أطار قرية الغناء عن الأر * ض فأى القلوب لم تطر
بستان يا حسرتا على زهر * فيك من اللهو بل على تمر
بستان أضحي الفؤاد في وله * يا نزهة السمع منه والبصر
بستان ما منك لا مریء عوض * من البساتين لا ولا البشر

ان لم أكن مت فانقرضت فكم
 من موة للفؤاد في الذكر
 وما أرق قوله في هذه القصيدة
 يا غضة السن يا صغيرته
 أمسيت احدى المصائب الكبرى
 أنى اختصرت الطريق يا سكنى
 إلى لقاء الأكفان والحفر
 أبعد ما كنت باب مبتهج * للنفس أصبحت باب معتبر
 كل ذنوب الزمان مغتزر * وذنبه فيك غير معتبر
 لله ما ضمنت حفيرتها * من حسن مرأى وطيب مختبر
 أضحت من الساكنى حفائرم * سكنى الغوالى مداهن السرر
 لو علم القبر من أتيح له * لأنحفر القبر غير مُحْتَفَر
 وأحب لو تأمل القارىء ما فى هذا الشعر من سُمو الخيال
 وكان مرة بن عبد الله مغرمًا بفتاة من قومه يقال له ليلي
 بنت زهير ، وتزوجت من غيره بالرغم منه ، ثم نقلت مع زوجها
 الى راذان وماتت هناك ، فقال مرة فيها كثيرًا من الشعر
 الموجه . كقوله
 أيا ناعِي ليلي أما كان واحد * من الناس ينماها إلى سواكما
 ويا ناعِي ليلي لجلت مصيبة * بنا فقد ليلي لأمرت قواكما

ولا عشتما الا حليفى بليّة * ولا مُت حتى يشتري كفنا كما
فأشمت والأيام فيها بوائق * بموتكما إني أحبُّ رداكما
وقوله

كانك لم تُفجع بشيءٍ تُعدُّهُ * ولم تصطبر للنائبات من الدهر
ولم تر بؤساً بعد طول غضارةٍ

ولم ترمك إلا أيام من حيث لا تدري
سقى جانبي راذان والساحة التي

بها دفنوا ليلى ملث من القطر
ولا زال خصبٌ حيث حلت عظامها

براذان يسقى الغيث من هطل غمرٍ
وان لم تكلمنا عظامٌ وهامةٌ

هناك وأصداءٌ بقين مع الصخر

وكان لاسحق الموصلى غلام جميل يقال له زياد ، وهو الذى
يقول فيه :

اذا ما زيادٌ علّنى ثم عانى * ثلاث زجاجات لهن هديرُ
خرجت أجر الذيل زهواً كأننى * عليك أمير المؤمنين أمير

ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه

فقدنا زياداً بعد طول صحابةٍ

فلا زال يسقى الغيث قبر زيادٍ

ستبكيك كأسٌ لم تجد من يديرها

وظمانٌ يستبطي الزجاجة صادى

وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب
الثقفي، وكان عبد المجيد هذا من أجل الفتيان وأدبهم وأظرفهم
وله مع ابن مناذر حديث طويل ذكره صاحب الأغاني، ثم
مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن العشرين، فقال
فيه ابن مناذر قصيدة طويلة تختار منها هذه القطعة البكية:

كلُّ حَيٍّ لاقى الحُمام فودى * مالحٍ مؤمل من خلودٍ
لأنهاب المنون شيئاً ولا تبقى على والدٍ ولا مولودٍ
ولقد ترك الحوادث والآيا

م وهياً في الصخرة الصيخود (١)

ولو أن الأيام أخلدن حياً * لعلاءٍ أخلدن عبد المجيدِ
مادري نعشه ولا حاملوه

ما على النعش من عفافٍ وجودٍ

ونجَّ أيدٍ جثت عليه وأيدٍ * دفنته ما غبيت في الصعيدِ
وأرانا كالزراع بحصده الدهرُ فن بين قائمٍ وحصيدٍ
وكأننا للموت ركبٌ مخبؤ ن سراعاً لمنهلٍ مورودٍ
إن عبد المجيد يوم تولى * هدَّ ركننا ما كان بالمهدودِ
هدَّ ركني عبد المجيد وقد كنتُ بركنٍ أنوءُ منه شديدٍ

وبعبد المجيد تامور نفسى

عثرت بى بعد انتعاش جدودى ^(١)

وبعبد المجيد شلت يدى اليمىنى وشلت به يمين الجود
حين تمت آدابه وتردى * برداء من الشباب جديد
وسقاه ماء الشببية فاهتز

اهتزاز الغصن الندى الأملود ^(٢)

وكأنى أدعوه وهو قريب * حين أدعوه من مكان بعيد
فدأب صار لا يجيب لقد كا * ن سميعاً هشا إذا هو نودى
يا فنى كان للمقامات زينا * لا أراه فى الحفل المشهود
لهف نفسى أما أراك وما عندك لى أن دعوت من مردود
كان عبداً المجيد سم الأعداى

ملء عين الصديق رغم الحسود
عاد عبد المجيد رزءاً أوقدكا * ن رجاء لرب دهر كنود
خنتك الود لم أمت كدأ بعدك إني عليك حق جليد
لوفدى الحى ميتاً لفدت نفسك نفسى بطارفى وتليدى
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز

ن عليه لا باغن مجهودى
لا قيمن مآتماً كنجوم الليل زهراً يلطمن حر الخدود

(١) تامور النفس حياتها (٢) الأملود : الناعم الرقيق

موجعات يبكين للكبد الحرى

عليه والنفواد العميد (١)

ولعينٍ مطروقةً أبداً قا * لَ لها الدهر لا تقرى وجودى
كلما عزَّك البكاءُ فأنفد * تِ لعبد المجيد سجلاً فعودى
للقى يحسن البكاء عليه * وفقى كان لامتداح القصيد
فبرغى كنت المقدم قبل * وبكرهى دُيِّت فى الملهود
كنت لى عصمةً وكنت سماءً

بك تحيا أرضى ويخضر عودى

وأغرَمَ يعقوب بن الربيع تجارية تسمى (مُلك) ومكث فى طلبها
سبع سنين ، حتى رق ماله ، وجأه ، ثم ملكها ، فأقامت عنده
سنة أشهر وماتت . فقال يبكيها :

لله آتيةٌ فُجعت بها * ما كان أبعدها من الدَّسِ
أتت البشارة والنعمى معاً * ياقربَ مأتمها من العرسِ
ياملُك ! نال الدهر فرصته * فرمى فؤاداً غير محترس
أبكىك ماناحت مطوقةٌ * تحت الظلام تنوح فى الغلس
وقال فيها :

ليت شعرى بأى ذنبٍ لملك * كان هجرى اقبرها واجتنابى
الذنبِ حقدته كان منها * أم لعلى يشغلها عن عتابى

أَمْ لَا مَنَى لِسَخَطِهَا وَرِضَاهَا * حِينَ وَارَيْتُ وَجْهَهَا فِي التُّرَابِ
 إِنَّمَا حَسَرْتَنِي إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ * تَعْنَانِي بِهَا وَطُولِ طَلَابِي
 لَمْ أَزَلْ فِي الطَّلَابِ سَبْعَ سَنِينَ * أَتَأْتِي لَذَاكَ مِنْ كُلِّ بَابِ
 فَاجْتَمَعْنَا عَلَى انْتِفَاقٍ وَقَدَرٍ * وَغَنِينَا عَنْ فَرْقَةٍ بِاصْطِحَابِ
 أَشْهُرًا سِتَّةً صَحْبَتِكَ فِيهَا * كُنَّ كَالْحُلْمِ أَوْ كَلْعِ السَّرَابِ
 وَأَتَأْتِي مِنْكَ النِّعَى مَعَ الْبَشَرَى فَيَا قَرِيبَ أَوْبَةٍ مِنْ ذَهَابِ
 وَمَا أَرُوعَ قَوْلِهِ فِي وَصْفِ احْتِضَارِ هَذِهِ الْجَارِيَةِ :

حَتَّى إِذَا قُتِرَ اللِّسَانُ وَأَصْبَحَتْ

لِلْمَوْتِ قَدْ ذُبِلَتْ ذُبُولُ النَّرْجِسِ

وَتَسَهَّلَتْ مِنْهَا مُحَاسِنُ وَجْهَهَا * وَعَلَا الْإِنِّينَ تَحْتَهُ بِتَنْفَسِ
 رَجَعَ الْيَقِينُ مَطَامِعِي يَأْسًا كَمَا * رَجَعَ الْيَقِينُ مَطَامِعِ الْمُتَلَمِّسِ (١)
 وَقَدْ وَصَفَ غُرْبَتَهُ مِنْ بَعْدِهَا فَقَالَ :

فُجِعْتُ بِمَلَكٍ وَقَدْ أَيْنَعْتُ * وَتَمَّتْ فَأَعْظَمُ بِهَا مِنْ مَصِيبَةٍ
 فَأَصْبَحْتُ مَقْتَرِبًا بَعْدَهَا * وَأَضْحَتْ بِحُلُوفِ مَلَكُ غُرْبِيهِ
 أَرَانِي غُرْبِيًّا وَإِنْ أَصْبَحْتُ * مَنَازِلَ أَهْلِ مَنَى قَرِيبَةٍ
 عَطَفْتُ عَلَى أَخْتِهَا بَعْدَهَا * فَصَادَفْتُهَا ذَاتَ عَقْلِ أَدِيبَةٍ
 فَأَقْبَلْتُ أَبْكِي وَتَبْكِي مَعِي * بَكَاءَ كَثِيبٍ بِحُزْنِ كَثِيبَةٍ
 وَقُلْتُ لَهَا مَرْحَبًا مَرْحَبًا * بِوَجْهِ الْحَبِيبَةِ أُخْتِ الْحَبِيبَةِ

(١) المتلمس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الحمية

سأصفيك ودي حفاظاً لها

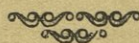
فذاك الوفاء بظهر المغيبة

أراك كملكٍ وان لم تسكن

لملكٍ من الناس عندي ضريبه (١)

والشعر في بكاء الملاح كثير، ولكن حب الإيجاز يحملنا

على الاكتفاء بهذا المقدار، وما هو بالقليل.



بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كنَّ حلائل ، والحليّة
المعشوقة متاع عزيز ! فمن ذلك قول أحد الفتيان في بكاء امرأته ،
وكان بها من المغرمين :

أطأ التراب وأنت رهن حفيرة

هأت يداي على صدك تراها

إني لأغدر من مشى ان لم أطأ

يحفون عيني ما حييت جنبها

قال ابن رشيق : ومن جيد ما رُثي به النساء وأشجاء ،

وأشده تأثيراً في القلب ، وإثارة للحزن ، قول محمد بن عبد الملك

الزيات في أم ولده :

ألاً من رأى الطفل المفارق أمّه

بعيد الكرى عيناه تبتران

رأى كل أمٍّ وأبناها غير أمّه * يبستان تحت الليل ينتحيان

وبات وحيداً في الفراش تحته * بلابل قلب دائم الخفقان

يقول فيها بعد أبيات :

ألاً إن سحلاً واحداً قد أرقته

من الدمع أو سَجَلَيْنِ قد شفياني

غلا تاحيانى إن بكيت فأنما * أداوى بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكاناً فى الثرى خطَّ لحدّه

لمن كان فى قلبى بكل مكانِ
أحق مكانٍ بالزيارة والهوى * فهل أتما إن عَجْتُ منتظرانِ
ومن أشجى الشعر رثاءَ قوله فى هذه القصيدة :

فهبْنى عِزمت الصبرَ عنها لا تُنى
جليدٌ فمن بالصبر لا بن ثمانِ
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبةً

ولا يأتسى بالناس فى الحداثِ
ألا من أمنيّة المني وأعدّه * لعشرة أيامى وصرف زمانى
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسى
وإن غبت عنه حاطنى ورعانى
ولم أر كالأقدار كيف يصبننى

ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترثى زوجها ولم يكن
دخل بها :

أبكىك لا للنعيم والأنس * بل للمعالي والرحم والفرسِ
أبكى على فارسٍ فُجعتُ به * أرمانى قبل ليلة العرسِ

يا فارساً بالعرء مُطَرَّحاً * خائنه قُوَّادُهُ مع الحرسِ
من اليتامى إذا همُ سَغَبُوا * وكلَّ عانٍ وكلَّ محتبسِ
وإني لا آسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب
العربية ، مع أنه من دلائل الوفاء ، لو يعلم الشعراء !



لو عت الشوق

نمتع الفارىء فى هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن
تغلغل الشوق فى طيأتِ الفؤاد. فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد
أشتاق الى أرض جائق ، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها :

وإن أصطبارى عن معاهد جلق

غريبٌ فما أجفى الفراق وأجفانى

سقى الله أرضاً لو ظفرت بترابها

كحلت بها من شدة الشوق أجفانى

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق إلى قرطبة .

أقرطبة الغراء هل لى أوبة * اليك وهل يدنو لنا ذاك العهد

سقى الجانب الغربى منك غمامة

وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعد

لياليك أسحار وأرضك روضة

وتربك فى استنشاقه عنبر ورد

وإني لبيكىنى قول الشريف :

ذكرت الحمى ذكر الطريد محله

يُذادُ ذِيادَ العاطشات ويرجع

وَأين الحمى لا الدار بالدار بعدهم * ولا مربع بعد الأحبة مربع

سلامٌ على الأطلال لا عن جنابةٍ
 ولكنَّ يأساً حين لم يبقَ مطعمُ
 نشدتكم هل زال من بعد أهله
 زرودٌ وهل زالت طولٌ وأربعُ
 نعم عادني عييد الغرام ونبيئتُ * على الجوى دارٌ بميثاء بلقع
 وطارت بقلبي نفحةٌ غصويّةٌ * تنفّسها حال من الروض مُزعُ
 نظرت الكشيّب الأيمن اليوم نظرة
 تردُّ إلى الطرف يدٌ مَيَّ ويدَمعُ
 وأيقظت للبرق اليمانيّ صاحباً * بذات النقا يخفي مراراً ويَمَعُ
 أأنت معيني للغيل بنظرةٍ * فنبكي على تلك الليالي ونجزعُ
 معاذ الهوى لو كنت مثلي في الهوى
 إذا لدعاك الشوق من حيث تسمعُ
 هناك الكرى ، إني من الوجد ساهرٌ ،
 وبُره الحشا ، إني من البين مَوَجعُ
 فلا لُبَّ لي إلّا تماسك ساعةٍ
 ولا نوم لي إلّا النعاسُ المروّعُ
 ألا ليت شعري كل دار مُشْتةٌ
 ألا موطنٌ يدنو بشملٍ ويجمعُ

وانظر كيف يقول :

وما حاتماتٌ يلتفتن من الصدى

الى الماء قد موطن بالرفشان

إذا قيل هذا الماء لم يملكوها

معاجاً بأقران ولا بمشان

بأظما الى الأحباب منى وفيهم * غريم إذا رمت الديون لوانى

فيا صاحبي رحلى أقلأ فانى * رأيت بليلي غير ماتريان

ويا مزجى النضو الطليح عشيّة

تراك بيطن المأزمين ترانى

وهل أنا غاد أنشد النبلة الى * بها عرّصاً ذاك الغزال رمانى

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول :

خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى

ونجداً وكُشبان اللوى والمطاليا

ومرثوا على أبيات حى برامة * فقولوا لديغ يتغنى اليوم راقيا

وقولوا لجيران على الخيف من منى

تراك من استبدتم بجواريا

ومن حلّ ذاك الشعب بعدى وراشقت

لواحظه تلك الظباء الجوازيا

ومن ورد الماء الذى كنت وارداً
به ورعى الروض الذى كنت راعياً
فواللهفى ! كم لى على الخيف شهقةٌ
تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفاء العيش من بعدى لحي على النقا
حافت لهم لأقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان إن تعرف منهم
فانى ساء كسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا
نسيتم وما أستودعتم الود ناسيا
أنكرتم تسليمنا ليلة النقا * وموقفنا نوى الجمار لياليا
عشية جارانى بعينيه شادن
حديث النوى حتى رمى بى المراميا
رمى مقتلى من بين سجنى غيبطه
فيا رامياً لا مسك السوء راميا
فياليتنى لم أعدل نشرأ إليكم
حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جرتا منى * ولم ألق فى اللاقين حياً يمانيا

وياويح نفسي كيف زادت في مها

بذى البان لا يُشْرِنَ إلا غواليا

ويقول الایيوردی یصف شوقه الى حبيبته :

وأقسمُ بالبيتِ الرحيبِ فِناؤُهُ

وبالحجرِ الملتومِ والحِجْرِ والرُّكنِ

لأنّكِ الى نفسي أحب من الغنى

وذكركَ أحلى في فؤادي من الأمن

ويصور الحارث بن خالد شوقه الى عائشة بنت طلحة بشوق

الغريق الى النجاة ، ويقول :

يا أمَّ عمرانِ ما زالت وما برحتْ

بنا الصباية حتى مسنا الشفقُ

القلب تاق اليكم كي يلاقكم * كما يتوق الى منجاته الفرق

وإنك لتلمس حرارة الشوق في قول العذرى

لوُجزَّ بالسيف رأسى في مودتكم

لمرَّ يهوى سريعا نحوكم راسى

ولو بلى تحت أطباق الثرى جسدى

لكنت أبلى وما قابى لكم ناسى

أو يقبض الله روحى صار ذكركمُ

روحاً أعيش به ما عشت في الناس

لولا نسيمٌ لذكر اكم يُروِّحني * أعدت محترقاً من حرِّ أنفاسي
والشوق يحمل ابن الدمينة على أن يحمد لحبيبتة ذكرها له
بالمساءة ، ويقول :

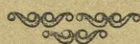
أرى الناس يرجون الربيع وإنما
ربيعي الذي أرجو نوالُ وصالك

أرى الناس يخشون السنين وإنما
سنيَّ التي أخشى صروفُ احتمالك

أئن ساءني أن نلتني بمساءة * لقد سرَّني أني خطرت ببالك
ليهنك إمساكي بكفي على الحشا * ورقراق عيني رهبةً من زيالك
وانظر لوعة الشوق في قول أحد المتيمين

أقول لأصحابي وهم يعذلونني * ودمع جفوني دائم العبرات
يذكر مني نفسي فبأوا إذا دنا

خروجي من الدنيا جفوف لهاقي



راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح الى السلو ، ولكن أين الى السلو
السييل ؟ فمن ذلك قول العديل بن الفرخ

صحا عن طلاب البيض قبل مشيبيه

وراجع غض الطرف فهو خفيض

كأني لم أرع الصبا ويروقي

من الحى أحوى المقلتين غضيض

دعاني له يوماً هوى فأجابهُ

فؤادٌ إذا يلقى المراض مريض

لمستأنساتٍ بالحديث كأنه

تهلل غمر بوقهن وميض

وقال الشريف

هي سلوة ذهبت بكل غرام * والحب نهب تطاول الأيام

ولقد نضحت من السلو وبرده

حرّ الجوى فبردتُ أيّ ضرام

من بعد ما أظما الغليل جوانحي * وأطال من ملل الزلال أوامى

لا يدع العذال نزع صبايتى

بيدى حسرت عن الغرام لثامى

قد كانت الصبوات تعسف مقودي

فالآن سوف أطيل من إجمامي

هيهات يخفضني الزمان وانما * بيني وبين الذل حدة حسامي

وظاهر هذا الشعر أن أصحابه نزعوا عن الحب طائعين . وفي

مقابل هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

وعلمتني كيف الهوى وجهلته

وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي

وأعلم ما لي عنكم فيردني

هواي الى جهلي فأرجع عن علم

ويقول ابن الأحنف في اليأس من السلوان

تجنب يراتد السؤل فلم يجد * له عنك في الأرض العريضة مذهباً

فعاد إلى أن راجع الوصل صاغراً

وعاد إلى ماتشتين وأعتبا

ويقول من كلمة ثانية

كم قد تجرعت من غيظ ومن حرق

إذا تجدد حزن هون الماضي

وكم سخطت وما باليتيم سخطي

حتى رجعت بقلب ساخط راضي

ويقول أيضا ابراهيم بن العباس :
لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى
وصرت على قلبي رقيبا لقائِله
أدفعه عن سلوة وأردّه
حينئذ إلى أوصابه وبلايله
ويقول ابن أذينة

إن التي زعمت فؤادك ملها
خُلقت هوالك كما خُلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها * بلباقه فادقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي * ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة

شفع الضمير الى الفؤاد فسلها
ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع
ولما نسيتم ودنا وغرامنا
ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا
جعلنا نغض الطرف عنكم وعندنا
من الشوق نار لا نطيق لها وقدا

غدر الغواني

ولا بد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب ، التي
طلما يغدر فيها النساء . وإننا لنجد من بينهم من يحسب الغواني
جميعاً غادرات ، ويقول :

فلا تحسبنَ هنداً لها الغدر وحدها

سجيةً نفس ، كلُّ غانيةٍ هندٌ ا

ويقول كثير في السُّخر من عهود النساء

ألا إنما ليلى عصا خيزرانةٍ * إذا غمزوها بالأُكفّ تلين

تمتّع بهما ما ساءفتك ولا تكن

عليك شجاً في الحلق حين تبين

وإن هي أعطتك الأمان فلها * لا آخرَ من خلاتها ستلينُ

وإن حلفت لا ينقض النأي عهداً

فليس لمخضوب البنان يمينُ

وقال الشريف يشكو المظل والتسويق :

يا ظبية البان ترعى في خائله * ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

الماء عندك مبدولٌ لشاربه

وليس يرويك إلا مدمع الباكي

وعدُّ لعينيك عندي ما وفيت به
ياقرب ما كذبت عينيَّ عيناك
أنتِ النعيم لقلبي والعذاب له * فما أمرُك في قلبي وأحلاكِ
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها
لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى
من علم العين أن القلب يهواك
وإني ليشجيني قوله من كلمة ثانية:
تهفو إلى البان من قاي نوازه * وما بي البان بل من داره البان
أسدٌ سمعي إذا غنى الحمام به * كيلا يبين سرَّ الوجد إعلان
ورب دارٍ أوليها مجانبه
وبى إلى الدار أطرابٌ وأشجان
إذا تلقت في أطلالها ابتدرت * للقلب والعين أمواه ونيران
كلَّم بقاي أدويه ويقرفه
طول أدِّ كاري لمن لي منه نسيان^(١)
لا لأوامم إقصارٍ بلائمة * عن العميد ولا للقلب سلوان
على مواعيدهم خلف إذا وعدوا
وفي ديونهم مَطْلٌ وليان

(١) الكلم : الجرح . وقرف الجرح إصابته من جديد

هم عرّضوا بوفاء العهد آونة * حتى إذا عذبوني بالني خانوا
وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان ، اذ يشبههن
بالحديقة ، تحمل الثمر حيناً وتعرى من الورق حيناً ، واليك قوله
من قصيدة طويلة

يولين ما فيه إغرام وآونة * يولين ما فيه المعشوق سلوان
ولا يدمن على عهد لمعتقد * أنى ؟ وهن كما شبهن بستان
يميل طوراً بجمل ثم يدمه * ويكتسى ثم يلنى وهو عريان
تغدو الفتاة لها خل فان غدرت

راحت ينافس فيها الخلل خلان

ماللحسان مسيئات بنا ولنا

إلى المسيئات طول الدهر تحنان

وإن تبعن بعهد قلن معذرة * إنا نسينا وفي النسوان نسيان
يكفى مطالبنا بالذكر ناهية

أن اسمنا الغالب المشهور نسوان

لأنلزم الذكر إنا لم نسم به * ولا منحناه بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا أن شيمتهم * جود وبأس وأحلام وأذهان
وأن فيهم وفاء لا تقوم به

ولن يكون مع التقصان رجحان

صدق ماشئس لِكِنَّا تَقْنَصْنَا * مِنْهُنَّ عَيْنٌ تَلَاقِينَا وَأُدْمَانُ^(١)

أُنْكِي وَأَذْكِي حَرِيقًا فِي جِوَانِحِنَا

خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ وَالْأَلْوَانِ نِيرَانُ

إِذَا تَرَقَّرْنَ وَالْأَشْرَاقُ مَضْطَرَمٌ

فِيهِنَّ لَمْ يَمْلِكِ الْأَسْرَارُ كِتْمَانُ

مَاءٌ وَنَارٌ فَقَدْ غَادَرْنَ كُلُّ فَتَى

لَا بَسْنَ وَهُوَ غَزِيرُ الدَّمْعِ حَرَّانُ

تَخْضَلُ مِنْهُنَّ عَيْنٌ فَهِيَ بِأَكْيَةٍ * وَيَسْتَحِرُّ فَوَادُ وَهُوَ هِيَانُ

وَقَالَ فَتَى فِي ابْنَةِ عَمِّهِ ، وَقَدْ تَجَنَّبَتْ عَلَيْهِ وَغَدَرَتْ بِهِ

أَحِبَابُنَا لَوْ تَعْلَمُونَ بِحَالِنَا * لَمَا كَانَتْ الذَّاتُ تَشْغَلُكُمْ عَنَا

تَشَاغَلْتُمْ عَنَا بِصَحْبَةِ غَيْرِنَا * وَأَبْدَيْتُمْ الْمَهْجَرَانَ مَا هَكَذَا كُنَا

وَأَلَيْتُمْ أَنْ لَا تَخُونُوا عَهْدَنَا

فَقَدْ وَحْيَاةَ الْحُبِّ خَنْتُمْ وَمَا خَنَا

غَدَرْتُمْ وَلَمْ نَغْدِرْ وَخَنْتُمْ وَلَمْ نَخُنْ * وَحُلْمْتُمْ عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَا حُلْمَنَا

وَقَلْمْتُمْ وَلَمْ تَوْفُوا بِصَدَقِ حَدِيثِكُمْ

وَنَحْنُ عَلَى صَدَقِ الْحَدِيثِ الَّذِي قُلْنَا

وَكَانَ صَخْرَيْنِ عَمْرُو ، أَخُو الْخُنُسَاءِ ، يُحِبُّ سَامِيَّ بِنْتَ عَوْفٍ

ثُمَّ تَزَوَّجَهَا ، وَتَعَاهَدَا عَلَى أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ وَاحِدُهُمَا بَعْدَ صَاحِبِهِ ، ثُمَّ

(١) عَيْنٌ جَمْعُ عَيْنَاءٍ وَهِيَ جَمِيلَةُ الْعَيْنِ . وَالْأُدْمَانُ الْظُلَامُ

طعن في أحد الأيام ، فرض سنة كاملة . فقصرت زوجها في السهر
عليه ، والرفق به . ولا كذلك أمه الرءوم . قالوا : وسمع يوماً امرأة
تقول لأمه : كيف حال صخر ؟ فقالت : نحن بخير مادمننا نرى
وجهه . وسمع أخرى تقول لامراته كيف حال صخر ؟ فقالت : لا حي
فيُرَجَى ، ولا ميتٌ فيُنْعَى ! ! وحكى أنه جلس يوماً ليسترىح وقد
رفع له سَجَف البيت ، فرأى سلمي واقفة تحدث رجلاً من بني
عمها وقد وضع يده على عجزتها ، فسمعه يقول لها : أبيع هذا
السكمل ؟ فقالت عن قريب ! فقال صخر لأمه : عليّ بسيفي ،
لا أنظر هل صديء أم لا . فأتته به فجرّده ؛ وهمّ بقتل سلمي .
فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله . فبكى وقال

أرى أم صخر لا تملّ عيادتي

وملّت سليمي مضجعي ومكاني

فأى امرئٍ ساوى بأم حليّة

فلا عاش إلا في شقاء وهوان

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه

وقد حيل بين العير والنزوان

وما كنت أخشى أن أكون جنازة

لديك ! ومن يغترّ بالحدثان ؟

ويذكرون ان غسان بن جهضم كان مفتونا بابنة عمه ، ثم

تزوجها ، فلما حضره الموت حلفت لا تزوج من بعده ، ثم حنثت
في يمينها ، فأنشدها في نومها ليلة الزفاف
غدرت ولم ترعى لبعلك حرمة * ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهداً
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب
حلفت له يوماً ولم تنجزى وعداً
غدرت به لما ثوى في ضريحه
كذلك يُنسى كل من سكن اللحدا
ويذكرني هذا الشعر بقول أبي العتاهية
إذا ما انقضت عني من العيش مدتي
فان غناء الباقيات قليل
سيعرض عن ذكرى وتُنسى مودتي
ويحدث من بعد الخليل خليل
وهذه طبيعة العالم يا صاح ، فاقض من أوطارك ما أنت قاض
واترك الوهم للمجانين !!



ميزان الحب

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهبَ الحبَّ المحبوبة دمه وماله
وانظر كيف يقول

لما الله من لا ينفع الود عنده * ومن حبله إن مُدَّ غير متين
ومن هو ذولونين ليس بدائم * على ثقةٍ خوان كلِّ أمين
فلو أرسلت يوماً بثينة تبغى * يميني ولو عزت على يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها * وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يابشين فانما * يُبينُ عند المال كل ضنين
فإلكِ لما خبرَ الناس أني * أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذراً أو أجيء بشاهدٍ * من الناس عدلٍ أنهم ظلموني
فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي

وهما بقتلى يابشين أقوين

إذا مارأوني طالعاً من ثنيةٍ

يقولون من هذا ؟ وقد عرفوني !



الليالى الخوالى

وما أكثر حنين الشعراء الى الأيام السوالف، والليالى الخوالى !!
ويذكرون أن المتوكل أحب أن ينادمه الحسين بن الضحاک،
ليرى ما بقى من ظرفه، وشهوته لما كان عليه . فأخضره وقد كبر
وضمف، فسقاه حتى سكر، وقال لخادمه شفيع : اسقه افسقاه
وحياه بوردة . وكانت على شفيع أثواب مودة . فد الحسين يده
الى درع شفيع . فقال المتوكل : أتجس غلامى بحضرتى ؟ فكيف
لو خلوت به ! ما أحوجك يا حسين الى أدب ! وكان المتوكل غمز
شفيعا على العبث به . فقال الحسين : ياسيدى ! أريد دواة وقرطاسا
فأمر له بهما فكتب :

وكالورة البيضاء حيا بأحر

من الورد يسقى فى قرأطق كالورد

له عبتات عند كل نحيمة * بكفيه يستدعى الخلى الى الوجد
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة * تذكرنى ما قد نسيت من العهد
سقى الله عيشا لم أبت فيه ليلة

من الدهر الا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر، وهم بتقديم الغلام إليه، لو كان

مما تسمح بمثله النفس !!

وانظر مايقول ابن هانيء في ذكرى أيامه السوالمف
 قنَ في مآثمٍ على العشاق * ولبسن السواد في الأحداقِ
 وبكين الفراق بالغم الرط * ب المقتنا وبالحدود الرقاقِ
 ومنحن الفراق رقة شكوا * هنَّ حتى عشقت يوم الفراقِ
 ومع الجيرة الذين غدوا دم * مع طليق ومهجة في وثاق
 حاربتهم نوائب الدهر حتى * آذنوا بالفراق قبل التلاق
 ودنوا للوداع حتى ترى الأ * ياد فوق الأجياد كالأطواق
 يوم راهنت في البكاء عيونا * فتقدمت في عنان السباقِ
 أمنع القلب أن يذوب ومن ي * منع جمر الغضى عن الاحراق
 رب يوم لنا رقيق حواشى ال * هـ حُسناً جوال عقد النطاقِ
 قد لبسناه وهو من نفحات ال

مسك درع الجيوب درع التراق
 وما أوجع قول ابن الرومى في البكاء على لياليه الخوالى
 أيام لهوى هل مواضعك عودُ
 وهل لشباب ضل بالأمس مُنشدُ
 رُزئتُ شبابى عودةً بعد بدأة * وهنَّ الرزايا بادئاتٌ وعودُ
 سلبت سواد العارضين وقيله
 بياضهما المحمود إذ أنا أمردُ

وَبَدَّلْتُ مِنْ ذَاكَ الْبَيَاضِ وَحُسْنِهِ
 بَيَاضًا ذَمِيمًا لَا يَزَالُ يُسْوَدُّ
 لَشْتَانِ مَا بَيْنَ الْبَيَاضَيْنِ مُعْجَبٌ * أَنْيَقُ وَمَشْنُوهُ إِلَى الْعَيْنِ أَنْكَدُ
 وَكُنْتُ جَلَاءَ لِلْعَيُونِ مِنَ الْقَذَى
 فَقَدْ جَعَلْتُ تَقْذَى بِشَيْبِي وَتَرَمَدُ
 هِيَ الْأَعْيُنُ النَّجَلُ الَّتِي كُنْتُ تَشْتَكِي
 مَوَاقِعَهَا فِي الْقَلْبِ وَالرَّأْسِ أَسْوَدُ
 فَمَالِكُ تَأْسَى الْآنَ لِمَا رَأَيْتَهَا * وَقَدْ جَعَلْتُ مَرْمَى سِوَاكَ تَعَمَدُ
 تَشْكُرُ إِذَا مَا أَقْصَدْتُكَ سَهَامَهَا * وَتَأْسَى إِذَا نَكَبْنَ عَنْكَ وَتَكْمَدُ
 كَذَلِكَ تَلِكُ النَّبِيلُ مِنْ وَقَعَتْ بِهِ
 وَمِنْ صُرِفَتْ عَنْهُ مِنَ الْقَوْمِ مُقْصَدُ
 إِذَا عَدَاتُ عَنَا وَجَدْنَا عَدُوْلَهَا
 كَمَوْقِعَهَا فِي الْقَلْبِ بَلْ هُوَ أَجْهَدُ
 وَبَيْضَاءُ يَخْبُو دُرُّهَا مِنْ بَيَاضِهَا
 وَيَذْكُو لَهُ يَاقُونَهَا وَالزَّرْجَدُ
 إِذَا مَا اتَّقَى السُّكْرَانُ : سَكَّرَ شَبَابَهَا
 وَأَكْوَابَهَا ، كَادَتْ مِنَ الْإِبْنِ تَعْقَدُ
 لَهْوَتُهَا لَيْلًا قَصِيرًا طَوِيلُهُ * وَمَا لِيَ إِلَّا كَفَهَا مُتَوَسِّدُ
 وَكَمْ مِثْلَهَا مِنْ ظُبِيَّةٍ قَدْ تَفِيَّاتُ * ظَلَالَى وَأَغْصَانُ الشَّيْبَةِ مِيدُ
 م ٢٤ - مَدَامِعُ الْعِشَاقِ

ليالى سنتريس*

وقدأكثر صاحب البدائع من الحنين إلى سنتريس، وهى
مَهْوَى قلبه، ومُنِيَّةُ روحه، إذ كانت مَلْعَبُ صباه، وميدان لَهْوِه،
فى أيامه السوالف، ولياليه الخوالى !

وانظر كيف يقول :

ليالى النيل والذات ذاهبة
وجدى عليكنَّ أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لى منكنَّ واحدةً
فى سنتريسَ وبُدنى بعضُ خلانى
إذا تبَّينَ دهرى كيف يرمنى
من ظلم هـى ومن عدوان أحزانى

كم ليلةٍ فى جوار النيل ساجية
قضيتها بين غاداتٍ ووُلدان
أعارض البدر فى إشراق طلعتَه
بأغيدٍ مشرق الأوصال ريان
وأستبيح من الذات ما رسمتْ
أهواءُ صبِّ غوى القلب شيطان

* فى مقدمة كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل

وأسلم اللومَ تلحاني قوارصه
إسراف لاهٍ طروب الروح جذلانِ

وذى دلالٍ هو الدنيا وزينتها
يُودى الأُسود بطرفٍ منه نَعسانِ
كأنما فعل عينيه بعاشقه * فعل المدامة في أعطافِ نشوان
شربت من ريقه راحاً مشعشةً
بخالص الودِّ لم تُمزج بسُلوان
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرني
وكم جميل بورد الخلد حيّاني

يأموقد النار في قلبي مؤججةً * ولاهياً بين أزهارٍ وأفنان
كيف ارتضيت عداك اللوم ما صنعتُ
يدُ الفراق بقلب المدنفِ العاني
عَرَّجَ علىَّ فما نفسي بصابرةٍ * على نواك وما طرفي بوسنان
واليك قوله من كلمة ثانية
إيه يافتنة الوجود سلامٌ * من مَشوقٍ مَتِّمٍ القلب عانِ

لو يشاء الهوى حوتك ضلوعه * حاتمات على صباك حواني
 فارحمي فانياً من الوجد يشقى * بغرام مؤجج غير فان
 رنقت وردة الليالى فأمسى

يرقب الصفو من خلال الأمانى

*
 *

أه لو يسمح الزمان ونلقى * من طوى قريحهم غناد الزمان
 وترى سنتريس والدهر غاف * ما قضينا من الليالى الحسان
 حين كنا من السرور نشاوى * فى نجاه من النوى وأمان
 تتساقى الحديث عذبا شهياً * وقطوف المنى رطاب دوانى

*
 *

يا خليل الرفيق معين * أسعفانى ببعض ما تملكان
 أبتغى آسياً فقد عيل صبرى * من توالى الوجيب والخفكان
 أبتغى صاحباً توله قبلى * وشجاء من الجوى ما شجانى
 فلقد يسعف الجرح أخاه * وبواسى الصريب فى الأحزان



صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صبا نجد : فقد حبيبه إلينا الشعراء ،
حتى لنجد (صردر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى
حين يقول

النَّجاء النِّجاء من أرض نجد
قبل أن يعلق القواد بوجد
ان ذاك الثرى لينبت شوقاً
في حشا ميت اللبانات صد
كم خلى غدا إليه وأمسى
وهو يهذى بعلوة أو بهند
وظباء فيه تلاقى الموالى
والمعادي من الجبال بجند

بشتيت من المباسم بغرى * وسقام من المحاجر يعدى ^(١)
وبنان لولا اللطافة ظننت * لجناياتها براثن أسد
وحديث إذا سمعناه لم ند * رنجمر نضحنا أم بشهد
أنفت من براقع الخرز والقز * خدود قد برقعوها بورد
ويقول الطغراني

ياحبذا نجد وأعراق الثرى * لذن وأنفاس النسيم رقاق

(١) المراد بالمبسم الشيت الثغر المفلج

فهواؤه خَصِرُ النسيم وتَرْبُهُ * حالى الأديم وماءه رِقراق

وبسا كنيه ان استقر بنا النوى

تشفى النفوس وتمسك الأرماق

ويقول ابن الخياط

خدامن صبا نجد أماناً لقلبه * فقد كاد رياها يطير بلبه

وإياكما ذاك النسيم فانه

إذا هب كان الوجد أيسر خطبه

خيلى لو أحبيتما لعلمتما

مكان الهوى من مغرم القلب صبه

تكر والذكرى تشوق وذو الهوى

يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

غرام على يأس الهوى ورجائه

وشوق على بعد المزار وقربه

وقال ابن التعاوىدى

يارفيق هل لذهاب أيا * م تقضت حميدة من مرد

أتجدانى بوقفة فى معانى الـ * حى إن جزتما بأعلام نجد

وابكياها بمقلتى واسألاها * من سقاها ماء الدامع بعدى

جنباً عندها مصارع من ما * ت بدء الغرام فالشوق يعدى

فبأكنافها جاذر رمل * بين أثوابها براثن أسد
قال ياقوت : ولم يذكر الشعراء موضعاً أكثر مما ذكر وانجدا ،

ولذلك شواهد منها قول أعرابي :

أكرر طرفي نحو نجد واني * إليه وان لم يدرك الطرف أنظر
حينئذ إلى أرض كأن ترابها

إذا أمطرت عوداً ومسكاً وعنبر

بلاد كأن الاقحوان بروضة

ونور الأقالق وشى برد محبّر

أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي

خيام بنجد دونها الطرف يقصر

وما نظري من نحو نجد بنافع

أجل « لا » ولكني على ذاك أنظر

أفي كل يوم نظرة ثم عبرة * لعينيك مجرى مائها يتهدر

متى يستريح القلب إما مجاور * بحربٍ وإما نازح يتذكر

وقال أعرابي آخر :

فياحبذا نجدٌ وطيب ترابه * إذا هضبت به بالمشى هواضبه

وريح صبا نجد إذا ما تنسمت

ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه

بأجرع ممرع كأن رياحه
سحاب من الكافور والمسك نشأبه
وأشهد لا أنساه ما عشت ساعة
وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكن لوعة
بذكره حتى يترك الماء شاربته
وقال آخر :

ومن فرط إشفاقى عليك يسرنى
سلوك عنى خوف أن تجدى وجدى
وأشفق من طيف الخيال اذا سرى
مخافة أن يدرى به ساكنو نجد
وأرضى بأن تفديك نفسى من الردى
ولسكنى أخشى بكاءك من بعدى
مذاهب شتى للمحبين فى الهوى
ولى مذهب فىهم أقول به وحدى
وقال آخر :

رأيت بروقا داعيات الى الهوى
فبشرت نفسى أن نجداً أشيمها

إذا ذكر الأوطان عندي ذكرتهُ

وبشرت نفسي أن نجداً أقيمها

ألا حبذا نجدٌ ومجرى جنوبه

إذا طاب من برد العشيّ نسيمها

أجداً لا ينسبك نجداً وأهله

غياطل دنيا قد تولى نعيمها (١)



(١) الغياطل جمع غيطلة وهي الظلة

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه ، كقول خالد
الكاتب

أعان طرفي على جسمي وأحشائي
بنظرةٍ وقفت جسمي على دائي
وكنْتُ غرّاً بما يجنى على بدني
لا أعلم لي أن بعضي بعض أدواني
ومثله قول الأرجاني

تمتّعما يامقلتي بنظرةٍ * وأوردتما قلبي أشمر المواردِ
أعينيّ كفّاً عن فؤادي فانه

من البقي سعي اثنين في قتل واحدٍ
ويرى الشريف الرضي أن قلبه سبب شجاءه ، ويقول :
ياقلب كيف علقت في أشراكهم * ولقد عهدتك تُفلت الأشرار كما
أكثبتَ حتى أقصدتك سهامهم

قد كنت عن أمثالها أنها كما
إن ذبت من كد فقد جرّ الهوى
هذا السقام على من جرّ أكا

لا تشكونَ إلىَّ وجداً بعدها

هذا الذي جرت عليَّ يداكا

لا تُعاقبنك بالغليل فاني * لولاك لم أذق الهوى لولاكا

ويأسى صرّدر علي أن كانت أجفانه حجاب قلبه ، ويقول

لواحظنا تجنى ولا علم عندها * وأنفسنا مأخوذة بالجرائر

ولم أر أغبي من نفوس عفافٍ

تصدق أخبار العيون الفواجر

ومن كانت الأجفان حُجَّاب قلبه

أذنَّ علي أحشائه للفواقِر

وقال ابن الأحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه

يهم ببحران الجزيرة قلبه

وفيها غزال فاتر الطرف ساحره

يؤازره قلبي عليّ وليس لي * يدان بمن قلبي عليّ يؤازره



قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع
قالوا عشقت فقلت كم من فتنة
لم تعن فيها حكمة الحكماء
إن الذي خلق الملاحاة لم يشأ
إلا شقائي في الهوى وبلائي
ولله الأمر من قبل ومن بعد



فهرس القوافي

صحيفة	حرف الهمزة
٦٣ بحى أراح الله قلبك من حى	صحيفة
٧٢ لى على الشوق والدمع	٤١ دماً لطول التناى
كاتب	٤٣ نضو شجو مالت فيه البكاء
٧٩ وعهدى وملء الوادين قباب	٤٤ أسارقه البكاء من الحياء
٨٢ بسعدى فان العهد منك	٥٣ ويداً فى نماضر بيضاء
قريب	١٦١ وان ترمد فى وجدى بكم دأى
٨٧ ولكنه ممن يحب غريب	٢٠٧ وقفات الركائب الأتضاء
٩١ ترقرق فى محاجرنا فذا	٢١١ نظرة حين آذنت بالتناى
١٠٤ وجداً شديداً متعباً	٣٧٨ بنظرة وقفت جسمى على دأى
١٠٥ إلا حسبتك ذلك المحبوا	٣٨٠ لم تغن فيها حكمة الحكماء
١٠٥ مالك رق الرقاب	حرف الباء
١٠٩ فى القرط والخلخال والقلب	صحيفة
١١١ ولا العذل أجدى فى المشوق	٣٧ بداراء الا أن تهب جنوب
المخاطب	٥١ يندب شجواً بين أتراب
١٢٠ والهجر حظك ممن تحب	٥٦ والشوق يدعو والزفير يحجب
١٢٢ على وقالت رحمة لنحيي	٦١ سقاك حياً حتى الثرى ميت
١٣٠ قد ضاق بي فى حبك المذهب	الجلد
١٣٢ فديتك من شاك الى حبيب	٦٣ له بين جسمى والعظام
١٤٢ قلباً على العلات لا يتقلب	ديب
١٤٣ تروّع بالهجران فيه وبالعتب	٦٣ من صد هذا التائه المعجب
١٤٣ وعندك لو أردت له شهاب	٦٣ سوى نظرى والعاشقون
١٤٤ قد أوسع المشارع طيباً	ضروب
١٤٥ أملى رضاك وزرت غير	
مراقب	

صحيفة	صحيفة
٣٠٣ يطوف بها قضيب من كئيب	١٦٠ وفاضت له من مقلتي غروب
٣١٤ فأبتهت حتى ما كاد أجيب	١٦٤ على عذبات الجزع تحسبه قلبا
٣١٧ محاذرة أن يقضب الحبل	١٨١ فدانت وانطوت عنك القلوب
قاضبه	٢٠١ حتى يشكك فيه فهو كذوب
٣١٩ وأول شيء أنت عندهبوني	٢٠٣ تمزج الجدد مراراً باللعب
٣٢٠ بكيت لمخزون الفؤاد كئيب	٢٠٧ على شعب بوان أفاق من الكرب
٣٤٠ وخطب الردى والموت	٢١٠ نغيض دمعافاض وابله سكبا
أبرحت من خطب	٢١٨ ولكن حب من وطىء الترابا
٣٤٥ كان هجرى لقبرها واجتنبى	٢٢٥ أما والهدايا اننى لغريب
٣٤٦ وتمت فأعظم بها من مصيبه	٢٢٥ غزال كحيل المقلتين ريب
٣٧٥ اذا هضبت به العشى هواضبه	٢٣١ تجرى على الخدين والجلباب
حرف التاء	٢٣٨ هوى من أحب بمن لا أحب
٣٦ فقلت لو ذقته عرفتة	٢٣٩ فأكرم أسباب الردى سبب
٥٩ غير الصباة والأسى شجراته	الحب
٨٥ فجنات حلوان إلى النخلات	٢٤١ ولا مهجتي رهن لديها ولا قلبي
١١٧ يكفى من الهجران ما قد ذقته	٢٦٠ والمؤذونات بفرقة الأحباب
١٣٣ فقلت لا بل شفتى	٢٦١ والحى قد خفت ركا به
١٤٨ لم يحل عما عهدته	٢٦٦ وعجيب الزمان غير عجيب
١٩٤ قلو صيكا ثم ابكيا حيث	٢٦٨ وغصناه يهزان فى عوده
حلت	الرطب
٢٠٠ بشوق إلى هاتى التى قد	٢٦٩ وقد صار الشباب الى ذهاب
تولت	٢٨١ لحاجة متبول الفؤاد كئيب
٢١٥ تنائف لو تسرى بها الريح	٢٩٤ ولا النفس عن وادى المياه
كملت	تطيب
٢٢٦ بها نهلت نفسى سقاما وعلت	٢٩٩ وورد الردى للعاشقين
	يطيب

صحيفة

- ٢٢٨ رجاء سليمان أن تنعم كما إمت
٢٢٣ رويدا ورفقا بنا يا حيا تى
٣١٠ وختنى فوفيت

حرف الشاء

- ١٤٦ عبثت والسكران عابث
٢٢٤ ذنبا هممت به فى شادين
خنت

- ٢٥١ وتزعم اننى رجل خبيث

حرف الجيم

- ٢٠٢ لك سلطان على المسبح

- ٢٤٦ لوانصف المعشوق فيه لسمبح

حرف الحاء

- ٥١ نفسى أسى وكانهن طلوح

- ٩٤ وتبعث شرا للعيون المطارح

- ١٤٦ وحى الرقاد فمن يبيحه

- ١٥١ فتحت وذوالشجو الغريب

ينوح

- ١٥٣ جرى لصبا بى دمع سفوح

- ١٦٠ وأصدقها قلبى ودمعى

مسفوح

- ١٧٨ وما للعمود الصبح لا يتوضح

- ١٨١ يا ويلتنا أين الصباح

صحيفة

- ١٨٥ مغدئ نبل به الجوى ومراح

- ١٩٨ فكاهم كانوا بها أرواحا

- ٢١١ حسن العزاء وقد جلين

قبيح

- ٢٣١ يقول يحل العصم سهل

الأباطح

- ٢٣٨ الا مصانعة العدو الكاشح

- ٢٦٢ صبب اليكم من الأشواق

فى ترج

- ٢٦٤ وأنت من الزمان مدى

اقتراحى

- ٢٦٨ معاودتى أيامهن الصوايح

- ٣١٢ وقام على قبرى النساء النوائح

- ٣١٧ بليلى العامرية أو يراح

حرف الدال

- ٣٥ وأسأل عنها الركب عهدهمو

عهدى

- ٣٦ من كان أشبههم بهن خدودا

- ٣٦ وحر على الأحشاء ليس له برد

- ٥١ وهن يظنين غلة الوجد

- ٥٦ منى فأشرق بالزلال البارد

- ٥٨ ووراءهم نفس المشوق

الصادى

صحيفة	صحيفة
١٥٨ لو أن طيفك كان من عوادي	٦١ في وجنتيه وأخرى منه
١٧٦ قد تناهى فليس فيه مزيد	في كبدي
١٨٧ أنا ثم عنك غد	٧٢ سليمي وإن ملّ السرى كل
١٧٩ مذ تولعت بصدي	واجدي
١٨٤ مجرورة الذيل صدوق الوعد	٧٤ درسا فلا علم ولا قصد
١٨٧ واستنهبوا قضب الأراك	٧٥ عنها وتغير البلاد
قدودا	٧٨ فؤاداً بنجد يا قلبك من نجد
١٩٠ وأمنحه التجنب والصدودا	٨١ ولبست ثوب العيش وهو
٢٠٦ حبذا أنت لو مررت بهند	جديد
٢٠٦ ولولا مكان الريب قلت لك	٩١ على أن قرب الدار خير من
ازدد	البعدي
٢٢٥ ان الغريب قريب غير مودود	٩٧ والسحر قدّاً من أديم واحد
٢٢٧ قذى العين لم يطلب وذاك	٩٧ فقلت أتعنيف ولم تك
زهيد	مسعدى
٢٣٢ لطوارق الهم التي ترده	٩٨ لسوّا عنها ولو مات صدّا
٢٣٢ وهل مثل أيام بمنقطع السدّ	٩٨ عجوزاً ومن يحب عجوزاً يفند
٢٣٧ حتى إذا أيقظوني في الهوى	١٠٣ لم تنم عيني ولم تكدي
رقدوا	١٠٩ غزلاً تراعيه الجأ ذرأ غيدا
٢٣٨ إذا ما التقينا صدود الحدود	١١١ عنها ولا صدها عنى بمصدود
٢٣٩ شتان بين سبيل القى والرشد	١١٢ أظن نسيماً قارف المهجر من
٢٤٦ لهى التي تشقى بها وتكابد	بعدي
٢٤٥ أجمل العالمين ثاني جيد	١١٩ فلم يدر نحر مادهاه وجيد
٢٥١ واسقياني من ريق يعضاء	١٣٨ فؤاداً بيت الليل بالهم مكدا
رود	١٤٧ كيف خنت اليوم عهدي
٢٥٧ نشم شذا الأزهار في عيشة	١٤٨ يهنيك صاحبك الجديد
رغد	

صحيفة

٢٦٥ يملّ وأن النأي يشفى من

الوجد

٢٧١ ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي

عهدا

٢٧٥ ان القميص على ماضم محسود

٢٧٧ قريب ولكن في تناولها بعد

٢٨٠ يدٌ بالذي ألقى وأخفى من

الوجد

٢٨٣ حتى إذا أيقظوني للهوى

رقدوا

٢٨٦ على المسكين بالرد

٣٠٧ إذا ما خليلٌ بان وهو حميدٌ

٣٤٢ فلا زال يسقى الغيث قبر زياد

٣٤٣ ملحي مؤمل من خلود

٣٥١ اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد

٣٦٩ بياضاً دميماً لا يزال يسود

٣٧٣ قبل أن يعلق الفؤاد بوجد

٣٧٤ تقضت حميدة من مرد

٣٧٦ سلوكك عني خوف أن تجدى

وجدى

٣٧٨ وأوردتما قلبي أشر الموارد

حرف الراي

٣٤ لسنا نبالي إذا ما نمت من

سهر

صحيفة

٣٧ وقد بكت بدموعي أعين الزهر

٣٩ نعم وأشفق من دمعى على بصرى

٤٤ لو كنت أطمع فيك لم أتستّر

٤٦ مقالة واش أو وعيد أمير

٤٨ أجاب البكا طوما ولم يجب

الصبر

٥٩ ملوك على تيسير قلبك قادر

٦٠ يقل ولا إن بنت يخلقه الدهر

٧٠ على الحد مما ليس يرقاً حائر

٧١ الى الدار من فرط الصباية

أنظر

٧٤ لترد أخباراً على مستخبر

٧٤ قديمٌ ولما يعفه سالف الدهر

٧٤ ذكروا الفراق فأصبحوا سفرا

٧٦ منازل من يهوى معطلة قفرا

٧٧ أثار شوقك فيها محو آثار

٨٣ بنا بين المنيفة فالضمار

٨٤ لهو أيامنا الحسان التقصار

٨٦ فإلحز بينهمو قرار

٩٠ وألمس الشبهة في خاطري

٩٢ وأملك طرفي فلا أنظر

٩٣ مخافة أن يكون به السرار

٩٧ فتسفتحها بعد التجلي والصبر

٩٨ من متعة يطب من غيرها

وطر

صحيفة

- ٢٠٩ تولت وماء العين في الجفن
حار
- ٢١٣ لنا ولها بالسفح دون ثبير
- ٢٣٥ كانت بذى الأثل من خدني
وأنصاري
- ٢٤٠ لمت ولم يعلم بذلك ضمير
- ٢٤٦ فان الأذى ممن تحب سرور
- ٢٥٠ قلوب نساء العالمين صخور
- ٢٥٥ لكان بينهم من أعظم الضرر
- ٢٥٩ ينتف أعلى ريشه ويطايرة
- ٢٦٢ رموا بين أحشاء المحبين بالجر
- ٢٦٥ بليلي أمت لا قبر أعطش من
قبري
- ٢٧٢ جاورت سكان المقابر
- ٢٩٣ وكذا العزيز لكل خطب
يذخر
- ٢٩٤ خيام بنجد دونها الطرف
يقصر
- ٢٩٤ وسقياً لعصر العامرية من
عصر
- ٣٠٠ مجردة تضحي لديق وتخصر
- ٣٠٢ يامتلغ الصب ولم يشعر
- ٣٠٥ وأخرى بذات البين آياتها
سطر
- ٣١٦ مخافة أن يكون به السرار
- ٣١٧ بنيل ومن قلبي على النأي ذاكرة
- ١٠٤ في قدح كالكوكب الزاهر
- ١١٨ أهدت الى خيالها المذعورا
- ١٢٣ ولي وصيف وفي كفي دنائير
- ١٢٩ وخير مرعى مقلة الناظر
- ١٣٠ أسر فيك الذي أسر
- ١٤١ باللطف حتى سكن النافر
- ١٤٤ حتى احتقرت وما مثلي
بمحتقر
- ١٥٣ لها مقبل تجري الدموع
ولا تجري
- ١٥٤ وقد طفل الامساء أو جنح
العصر
- ١٥٩ اليك وقد أبكيتها حجباً
عشرا
- ١٧٣ على الليل حسبة وائتجارا
- ١٧٦ وليل المحب بلا آخر
- ١٧٦ إلا بكيت اذا ما ذكره خطرا
- ١٧٧ ولكن من يبكي من الشوق
يسهر
- ١٧٧ ولقد أعرف ليلي بالقصر
- ١٧٨ أما لليل بعدهم نهار
- ١٨٠ يارسل الرضا وقيت العثارا
- ١٨٥ أنهب ما تصرف أم جبار
- ١٨٦ والنيران الشمس والقمر

صحيحة

٣١٩ أجيل وجوه الرأى فيك

وما أدري

٣٣٩ سقى الله برد العفو صاحبة
القبر

٣٤٠ بكل زين له ومفتخر

٣٤٢ ولم تصطبر للنائبات من
الدهر

٣٤٢ ثلاث زججات لمن هدير

٣٧٥ اليه وإن لم يدرك الطرف
أنظر

٣٧٩ وأنفسنا مأخوذة بالجرار

٣٧٩ وفيها غزال فاقم الطرف
ساحرة

حرف السين

٥٠ إذ كان منك الصد غب
تناسى

٦٧ نبل الهوى وحبائل اليتاس

٩٤ عبث الوليد بجانب القرطاس

١٠٠ فؤاد أبه داء من الحب ناكس

١٤٥ من رقة ولغيري قلبها قاسي

١٧٤ يقتصر عنهما نظر ولس

٢١١ تهدي الى السلام في الغلس

٢٦٧ حداداً على شرخ الشيبية

يلبس

صحيحة

٢٧١ غيري فلامسوا له أوللاً كؤس

٢٧٥ من غيرتي بمسامع الجلاس

٢٩٦ عاودها من سقمها نكس

٣٠٤ ونشوة بين ذاك الورد والاس

٣١٦ أرق دياجعة من رقة النفس

٣٣٧ فاصبر على اليأس يامستقبل

الياس

٣٤٥ ما كان أبعدها من الدنس

٣٤٦ للموت قد ذبلت ذبول النرجس

٣٤٩ بل للعالي والرمح والفرس

حرف الضاد

٥٦ إقر من بعض السلام لبعض

١٢٦ بالجار جاراً وما أرضى به

عوضاً

١٤٢ وعاتبا ليس يرضى

٢٤٠ ودينك عند الزامية ما يقضى

حرف العين

٣٥ طعن الحى ما وراء الدموع

٣٩ تصف الفراق ومقلة ينبوعا

٣٩ لما أسر به إلى مودعى

٤١ نظر المشوق وأنة المفجوع

٥١ كلانا منه ذو قلب مروع

٥٢ لطير قلوب العاشقين وقوع

٥٣ صفو الحياة وأنى لا أودعه

صحيفة	صحيفة
٢١٨ وكنت كآت غيه وهو طائع	٥٥ الى وطن قبل المات رجوع
٢١٩ وإن كان صرم الحبل منك يروع	٦٢ يواسيك أو يسليك أو يتوجع
٢٢٩ فياليت شعري أى أهلى أتبع	٦١ قد دعوناك وان لم تسمع
٢٢٩ يوشك أن ينعاني الناعي	٧٣ تذوب قلوب من لظاها وأضلع
٢٣٢ فنجوت بعد تعرض لوقوع	٩٢ يكثر أسقامى وأوجاعى
٢٤٧ عوامل اليأس أو يقتاده الطمع	٩٣ الى أن أذاعتها العيون الهوامع
٢٥٨ سبيل إلى توديعكم فأودع	٩٩ ضرنى أكثر مما نفعا
٢٦٩ إذا ذكرت شبابا ليس يرتجع	١١٠ تأوهت من وجدى تعرض يطمع
٢٨٧ بها عاصفات الصيف بدءا وررجعا	١١٤ شر بنا على بعد الأحبة والفجع
٢٩٠ إذا لاح لى برق من الشرق لاعم	١١٩ وعاص يرى فى النوم وهو مطاوع
٢٩٦ كل جمال لوجهه تبع	١٢٥ وقلبي ألوف للهوى غير نازع
٣٥١ يذاد ذباد العاطشات ويرجع	١٢٦ أروح للنفس من المطمع
حرف الفاء	١٣٩ ألم الجوى من قلبي المصدوع
٥٣ على رسم دار أومطى موقف	١٤٥ وقلبي ألوف للهوى غير نازع
١٠٧ من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا	١٥٦ هتوف البواكى والديار البلاقع
١٦٤ فلا دارنا تدنو ولا عشنا يصفو	١٧١ سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
٣١٠ وصدود عنا لكم وصدوف	١٧٤ جرحت به قلبا بحبك مولعا
	١٧٨ عطف الأول منه فرجع
	٢٠١ ألا حبذا جن بنا وولوع
	٢١٢ حبل النوى فهو فى أيديهم قطع

صحيفة

- ٣١٢ فأنا الذي بوصاله لأكتفى
٣١٦ أسرّ لسانى ما يوح به طرفي
٣٣٨ قدمتها وتركته خلفا

حرف القاف

- ٣٤ بادلتها بالرقاد الأرقا
٤٠ نجى حذارك انساني من
الفرق

- ٤١ فذناؤا قصرتها بعدهم حرّقى
٤١ فقلت لها يعز هذا الذى بقى

- ٥٢ موقفاً ضمّ شائقا ومشوقا
٥٦ حاجة للتميم المشتاق

- ٥٧ وإن وجد الهوى حلو المذاق
٥٨ أو غصنا بعد التسلب مورق

- ٦٨ ياسيدى برّ الصديق
٩٧ وأى قلوب هذا الركب شاقا

- ١١٢ فيما يؤمله الحب الوامق
١١٥ خيالاً أتى من آخر الليل

يطرق

- ١٢١ إليّ وباب السجن دونى مغلق
١٦٣ قد أقرح جفنه الدمع الطليق

- ١٦٣ وكيف يعرف طعم الراحة
الأرق

- ١٧١ والأفق طلق ووجه الروض
قد راقا

- ١٧٣ مستريحاً سامنى قلعا

صحيفة

- ١٧٩ بكم مثل ما بى إنكم لصديق
١٨١ وسطا على جنبك هم مقلق

- ١٨٦ وشايب دمعك المهرق
٢٠٢ وأن ضوء الصبح بالاشراق

- ٢١٤ وتنقض منى بالمغيب وثائقه
٢٣٠ فثلها فى الناس لم يخلق

- ٢٣٣ سوى أن يقولوا إننى لك
عاشق

- ٢٣٧ سلوت لكما ينكروا حين
أصدق

- ٢٣٩ وفرق الناس فينا قولهم فرقا
٢٤٩ شعاعا وقلب للحسان صديق

- ٢٥٦ على الحد الماتى
٢٥٦ عليه فن دعاك إلى الفراق

- ٢٧٠ فربعت من ظامة فى شروق
٢٩١ ثم نادى متى يكون التلاق

- ٣١١ يرتضيه من عاشق معشوق
٣٧٣ لئن وأنفاس النسيم رقاق

حرف الكاف

- ٨٠ وأن لأرى غيرى له الدهر
مالكا

- ٨٣ يادار جادك وابن وسقالك
١٠٦ إن خف ذلك عليك

- ١٥٨ فطالما رفق المشكو بالشاكي
١٥٨ فانى جدت للمحكي بالحاكي

صحيفة	صحيفة
٤٨ وتأتى الطباع على الناقل	١٧١ صبغت نضارته ببرد صباك
٤٨ منكم ولا أنى شفيت غليل	١٨٠ إلا لعهدى قصرك
٤٩ أو معيناً أو عاذراً أو عدولا	٢٣٦ فلذّ حتى كأنى لاثم فالك
٥٣ ذا البدن الناعم والناحل	٢٣٨ فياحسدى لعينى من يرالك
٧٩ ملث مثل أجفانى هطول	٢٥٠ سسقالك دممى إن لم يوف
٨٢ بحرة ليل حيث ربنى أهلى	ساقيك
٨٣ أحب إلى قلبى وعينى من أهلى	٢٥١ رقة خديك بقلبك
١٠١ ولا رأي فى الحب للعاقل	٢٥٢ من أسير قيدته بجفاكا
١٠٩ من ليس يخطر أن نراه بباله	٢٥٨ تلقاء شامك أو عراقك
١١٤ الأهيف الخلو الدلال	٢٨٤ أ كذا يجور الحكم فى ناديك
١١٤ بطيف خيال يشبه الحق	٢٩٧ لقلقل ما وجدت إذن حشاك
باطله	٢٩٧ قد اشتكى قلبى لشكواكا
١١٦ له أو ملم طائف من خياله	٣٠٣ بمحب ريحانه ذكرالك
١١٦ وإذا ما فرط الحب قتل	٣٧٨ ولقد عهدت لك تغلت الأشركا
١١٨ اليها فانى واصل حبلى من وصل	حرف اللام
١٢٢ أن الصحيفة أعوزت من حامل	٣٩ محاسن هذا الظبي أدمعها هطل
١٢٥ اليك على بلاء طويلا	٣٩ بدر الدجى منها خيجل
١٢٧ وهل راجع من عيشنا ما تؤمل	٤٣ حرقاتوقد فى الحشامارحل
١٣٣ أو ما إلى شفى بالتقبيل	٤٣ من الوجد أو يشفى شجى
١٣٧ والدهر يعدل تارة ويميل	البلايل
١٣٩ أرتجى منك وتدنى أجلى	٤٣ فى الحب أحرى أن يكون جميلا
	٤٤ والفضى إن لم تصلنى واصلى
	٤٧ لغزة غير آذنت برحيل

صحيفة

- ١٤٤ ويمنعني إنه لبخيل
١٥٧ قد قطعناه على صرف الشمول
١٧٥ كأنا ليلة بالليل موصول
١٧٥ وعدتهم عنا أمور تشغل
١٩٠ على غفلات الكاشحين
سبيل
١٩١ أرى السدر بعدى كيف
كانت بدائله
١٩١ فلا تكرميه أن تقول له
أهلا
١٩٣ لو لم تهم بمذاق القدر مبتذل
٢٠٣ على ما بها إن الحديث طويل
٢٠٤ ان المهزات فيها يعرف الرجل
٢٠٩ وقد دعا داعى الرحيل
٢١٧ وإنك اليوم بعد الحزم
مخبول
٢٣٤ لعزة غير آذنت برحيل
٢٣٤ إذا غاله من حادث الدهر غائله
٢٣٥ بشجوا المحبين الألى سلفوا
قبلى
٢٣٥ ولو سألت قتلى وهبت لها
قتلى
٢٤٦ وشقائى فى قيلهم بعد قال
٢٤٦ فتطاردى لى فى الوصال
قليل

صحيفة

- ٢٤٩ دمي لا تطلبوه لها حلال
٢٥٤ بساقيه من ثقل الحديد
كبول
٢٥٥ كأنا عما قد أظلك غافل
٢٥٩ بعد الله إلا الابل
٢٦٣ فلم أجدها تقبل
٢٦٣ وفاضت عيون للفراق تسيل
٢٦٦ أمالت إلى الطرف كل ميل
٢٧٦ ولم يك موصولا بمجمل كوحيل
٢٧٦ تحيل وطرفى بالسهاد كليل
٢٧٩ ومثريه من نضرة وجمال
٢٨٣ واجد بالحى مذ نزل
٢٨٥ فدعص وأما خصرها فبتيل
٢٩٣ أبيت على أرجائها وأقيل
٢٩٦ ويكنفينى من الألم القليل
٢٩٧ ودمعى لما لاقيت فيك همول
٢٩٩ ويعدل عن لهيب جوى
دخيل
٣٠٩ وأنت لى الراى فكلى مقاتل
٣٠٩ وأن لسانه العضب الصقيلى
٣١١ مقيان فى غير اجتماع من
الشميل
٣١٢ لو أبصره الواشى لقرت
بلا به

صحيفة

٣٢٠ تمثل لى لىلى بكل سبيل

حرف الميم

٣٥ فقلت جوئى لوتعلمون أليم

٣٨ فيما جرت بالدمع أو سالت دما

٤٠ فى الخد أو تفاحة لا تلثم

٤٤ وعزة لويدرى الطيب قذاها

٦٠ تفريج ما ألقى من الهم

٦٠ إلى الله بعد الوالدين يتيم

٦٢ إنما الشكوى إلى من يرحم

٦٤ داحي القواد وليله لا يعلم

٧١ عزاها مشوقات القلوب

الهوائم

٧٢ كل المشارب مذ هجرت ذميم

٧٤ على طول ما أقوت وحسن

رسوم

٧٤ وعهد المغانى بالحلول قديم

٧٦ تيسح من السر الممنع ما أحمى

٨١ إلا إذا لم ييكها بدم

٩٣ ضنيناً بها إني إذن للثيم

٩٨ فلم يرهن دار مقام

٩٩ رويدك أين سمعى والملام

١٠٠ من جوئى فأتنا السليم

١٠٧ فكرر إذا نام فكر الخلق

لم ينم

١٠٧ فأتانا فى خفية واكتتام

صحيفة

١٠٨ يا أحسن العالم فى العالم

١١٠ يحل لنا جدواك وهى حرام

١١٤ سكرنا بها من قبل أن يخلق

الكرم

١١٥ فهل ركب يبلغها السلام

١١٩ وقت الزيارة فارجمى بسلام

١٢١ لدى نواحل فى أرساغها

الخدم

١٣٠ على تطاول الليل التمام

١٣٦ متأخر عنه ولا متقدم

١٣٦ وجون القطا بالجلهتين جثوم

١٣٦ وأشتى من كان فىك يلوم

١٣٧ بالليل مختلس الرقاد سليم

١٣٩ تفريج ما ألقى من الهم

١٥٠ فقل فى فؤاد رعته وهو هائم

١٥٣ على غصن بان جاو بها حائم

١٥٧ يطارح مرناحا على القضب

معجا

١٥٧ وتشرب لب شاربها المدام

١٥٩ سجاما على الخدين بعد

سجام

١٥٩ إذا أحبت مثلك أن ألما

١٧٧ ونفى عن الكرى طيف ألم

١٧٨ جفاء كريم أو رجاء لثيم

١٨٨ وييسل بالتحية والسلام

صحيفة	صحيفة
١٩١ بلى وستور الله ذات المحارم	٥٢ أعلم فيها الصخر كيف يلين
١٩٤ والبخيلات وما كنّ لثاما	٧٣ دوان ومن يحكين غير دوان
٢١٠ مدامعنا تندى لفرقتهم دما	٨٢ ثم القفول فقد جثنا خراسانا
٢٣٠ فكل منى الدنيا على حرام	٨٣ نواجها كأرواح الغواني
٢٣٦ حبا لذكرك فليمنى اللوم	٨٦ قلبي إلى تلك الربا قد حنا
٢٣٦ سقيا وأجسام المحبين تسقم	٩٢ وجزى الله كل خير لسانى
٢٤٢ مفتاحا لظلمى	٩٣ جهدى فتمت العينان
٢٤٧ ونحن بأكتاف الجحاز رميم	٩٩ جاز أن يملك الصواب عنانى
٢٥٧ وتظل تبكيه بدمع ساجم	١٠٨ فاجتمعنا ونحن مفترقان
٢٧٤ كان على الجزع لمأم	١٢٠ لعل لقاء فى المنام يكون
٢٧٥ وخامر جسمه سقمه	١٢٤ عند باب الصيدلانى
٢٧٩ ومن كلف أنى أحن إلى	١٢٧ أروح بالأمانى الهم عنى
السقم	١٢٩ بينكم والوفاء فى العرب دين
٢٩٥ وكن عون المحب المستهام	١٤٦ هو تنمو مالا يهون
٢٩٨ ولادنب لى إن كنت فى النوم	١٥٠ فانى إلى أصواتكن حزين
أحلم	١٥٠ أهاب بشوق فى الضلوع
٣١٥ بأبى أنت وأمى	دفين
٣٤١ من الناس ينعاها إلى سواكما	١٥٢ فأشعلت ماخبا من نار
حرف النون	أشجانى
٣٧ ذات شجوصدحت فى فتن	١٥٤ أنها تضمحزنا مثل حزنى
٤٢ وكم مسعد لى فى الهوى	١٥٥ والطير آوية الى الأوكان
ومعين	١٦٥ نسيم تناجيه الخمائل وان
٤٥ وإيانا فذاك لنا تدان	١٦٦ وناب عن طيب لقيانا تجافينا
٤٧ فكان فى الروح مثل الروح	١٧٣ فسلى ظلام الليل كيف أكون
فى البدن	١٧٥ اذا نرحت داروحن حزين

صحيفة

١٧٩ وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
١٨٠ وجدى عليك أشجاني
فأضناني
١٩٩ وأغريت دمع العين بالهملان
٢٠٤ والله يعلم أنى منك خيران
٢٠٥ تبدى خفايا الردف والأعكان
٢٠٦ لديغ هوى لبيت حين دعانى
٢٠٧ خلفنا بالعراق هل يذكرونا
٢٠٩ وشلا بعينك ما زال معينا
٢١٣ وان خليلا من غد سيين
٢١٦ ألا بينى بنفسى أنت بينى
٢١٦ فجازانى جزاء الخائنين
٢٣٠ فأنا الذى استودعت غير أمين
٢٣٤ بعمياء من رياء بغير يقين
٢٣٦ أملاه قلبى على لسانى
٢٣٨ وكل عند صاحبه مكين
٢٤١ الا الا آسه والا أنت ثم أنا
٢٥١ فهل ندمتم كما ندمنا
٢٥٥ قطع الشك اليقين
٢٨٤ نفوس لاعيون
٢٩١ تقلب الدهر منهم حين أدانا
٢٩٣ ولم تر العين شيئا بعدكم حسنا
٢٩٨ لذة النوم والرقاد جفون
٣٠١ نحيلا كاد يقتله الحنين
٣٠٣ ونازح الدار فى العيان

صحيفة

٣٠٩ وبنى رعدة أهتر منها وأسكن
٣١١ وهل بعد ريعان البعاد تدان
٣١٣ إليه وهل بعد العناق تدان
٣٤٨ بعيد الكرى عيناه تبتدران
٣٥١ غريب فما أجفى الفراق
وأجفانى
٣٧٠ وجدى عليك أشجاني
فأضناني
٣٧١ من مشوق متم القلب عان
حرف الهاء (١)
٤٢ وغال بك تلك الأضالع غولها
٤٢ حتى يكون حشاك فى أحشائه
٤٥ قبيل الصبح أوقبلت فاهها
٧٥ مدامع نسديها لكم وتثيرها
٧٩ أمات الهوى منى فؤادى
وأحياء
٨٠ الى وسلمى لا يصوب سحابها
١٢٣ فى ساعة ما كنت قبل أنا لها
١٢٧ ما كان أحلاها وأهناها
١٢٧ به ولا بى فى حال يمتعه
١٣٥ ألا إنما يغنى المهان يصيدها
١٣٨ ما ليس يفعله به أعداؤه
١٤٨ وأعلن سلوانى له وأشيعه

(١) أضفنا كل ما انتهى بهامشها مشبعة الى حرف الهاء

صحيحة

- ١٥١ وما عنت بشيء ظل يعنيه
١٥٥ بكاء الحام على ساقها
١٦٠ أنست بطول بكائها
١٨٧ فعلمت مامعناك في إبعادها
١٨٨ أهدى التي تهوى فقلت نظيرها
١٩٠ لما استقل الحى في أعضائه
١٩٢ وأقتل الحاظ الملاح كحيلها
٢٠٣ وعاتباه لعل العتب يعطفه
٢٠٥ وفؤادى بحبه فى التيه
٢٢٢ بالكرخ من فلك الأزرار مطلعته
٢٢٦ لها حجاج يزدد طيبا ترابها
٢٣٦ عليهم من أصبواليه وأهواه
٢٤٢ ولا الشباب الذى أبلتته فيها
٢٤٧ لو كان كل حسنه إسجاجة
٢٤٨ ظماء من النوم أجفانه
٢٧٢ أو أتلى بعد الوصال بهجره
٢٧٣ فجنى لها ثمر الردى بيديها
٢٧٥ وتحسد مقلتي نظرى إليه
٢٨٣ شافع من مقلتيه
٢٩٢ سكنت بجرعاء الحى آرامها

صحيحة

- ٣٠٠ اذا قتلتنى أو أمير يقيدها
٣٠٤ اذا هى لم تعط الهوى من
ودادها
٣١٠ على ولكن ملء عين حبيبها
٣١٤ منأى ولا يبدو لقلبي صريمها
٣٤٠ اذا ما أراد اعتاض عشر أمكانها
٣٤٨ هالت يداى على صدك ترابها
٣٧٤ فقد كاد رباها يطير بلبه
٣٨٦ فبشرت نفسى أن نجد أشيئها
حرف اليا
٤٤ فلن تمنعوا منى البكا والقوافيا
٩٣ أطار القلب من حرق شطايا
٩٩ وكل فؤاد غير قلبى ساليا
١٢٠ لعل خيالا منك يلقى خيالها
١٣٧ تؤم الحى أنضأوها والمطالها
١٣٧ فقدت صديقى والبلاد كماها
١٣٨ وأن ديونى باقيات كماها
١٤٧ من القلوب القاسية
١٨٢ فقال علام اليوم ينعب ناعيا
٣٠٨ أنيقا وبستا نامن النور حاليها

فهرس الاعلام حرف الألف

إبراهيم الموصلى ٢٣٩

إبراهيم بن المهدي ٢٨٣

الأيوردي ٩٩ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ، ١٩٢ ، ٢١٠ ،

٢٧٨ ، ٢٩٣

ابن الأحنف (العباس) ٣٤ ، ٦٣ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٧٣ ، ٢١٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ — ٢٣٨ ،

٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣١١ ،

٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩

أحمد بن يحيى ٢٠١

الأخطل ٧٤

الأرجاني ٧٩ ، ٩٣ ، ١٣٨ ، ١٥٥ ، ٢١١ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٧٨

ابن أسباط القيرواني ٣٦

اسحاق الموصلى ١٠٤ ، ٢٦٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢

أبو الأسود الدؤلى ٩٨

اسماعيل صبرى ٢٥٠

أشجع السامى ٢٦٨

الأصمعى ٢٤١

الأقرع بن معاذ ٢٠١

المؤمل ٢٩٨

أمين الدين بن عطايا ٢٠٥

حرف الباء

البحترى ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

١٥٩٠ ١٣١٠ ١٣٠٠ ١١٦٠ ١١٥٠ ١١٢٠ ١١١٠ ١١٠٠ ١٠٨٠

٣٣٦٠ ٣٣٢٠ ٣٠٤٠ ٢٦٩٠ ٢٥٨٠ ١٨٥٠ ١٨٤٠ ١٧٤٠

بشار بن برد ٨٢٠ ١٠٩٠ ٩٣٠ ١٣٣٠ ١٧٧٠ ١٧٨٠ ٢٥١٠ ٣١٦٠

بشر بن مروان ١٢٣٠

أبو بكر بن سعادة ٣٥١٠

أبو بكر بن عبد الرحمن الزهري ٣٠٨٠

البها زهير ٦٢٠ ١٤٦٠ ١٤٧٠ ١٤٨٠ ٢٠٤٠ ٤٧٥٠ ٣٣١٠

حرف التاء

ابن التعاويذي (سبط) ٤٠٠ ٥٩٠ ٧٩٠ ٩٩٠ ١٠٠٠ ١٢٩٠

١٤٣٠ ١٦٠٠ ١٩٩٠ ٢٠٩٠ ٢٩٢٠ ٣٧٤٠

أبو تمام ٣٦٠ ٣٩٠ ١٠٧٠ ١٠٨٠ ١٣٨٠ ١٥٠٠ ١٦٣٠ ٢٥٥٠

٢٧٥٠ ٢٩٨٠ ٣٤٠٠

النهاسي ١٩٨٠

حرف الجيم

الجاحظ ٢٥٤٠ ٣٤٠٠

جحدل ٤٥٠

جرير ١١٩٠ ٢٠٩٠ ٢٧٣٠

الجزار (أبو الحسين) ٢٠٥٠

جعفر بن عتبة ١٢٠٠

جميل ١١٢٠ ٢٣٣٠ ٣٠٧٠ ٣١٢٠

ابن جمهور ٨٦٠

حرف الحاء

حافظ ابراهيم ٦٤٠ ١٣٥٠ ١٨١٠

ابنة الحباب ٢١٥٠

- حذيفة الغنوى ٢٢٥
الحسن بن البراء ٢٩٧
الحسن بن رجاء ٢٠٧
الحسن بن سهل ١٢٣
الحسن بن وهب ١٨٦
الحسين بن الضحاک ١٢٠
الحسين بن مطير الأسدي ٣٠٠
أبو حفص القرطبي ١٥٧
ابن الحكم (الوزير) ٢٩٧
الحكم بن قنبرة ٣٣٤
حندج بن حندج ١٧٥
أبوحية النخري ١٩١ ، ٢٤٧

حرف الخاء

- خالد الكاتب ٤٢ ، ٤٤ ، ١٧٦ ، ٢٥١ ، ٢٩٦ ، ٣٧٨
الخفاجي (ابن سنان) ٧٥ ، ١٥٤
ابن الخياط ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٧٩ ، ٣٢٧ ، ٣٧٤

حرف الدال

- ابن دريد ١٥٣
دعبل ٥٥
ابن الدمينه ٣٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ، ٣٢٩
ديك الجن ١٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣

حرف الراء

- راشد بن أرشد ٣١٩ ، ٣٢٠
راشد بن اسحق الكوفي ٨٧

الرصافي الأندلسي ١٥٧ ١٩٣

الرضي (أنظر الشريف)

الرفاء (السرى) ٥٢ ٨٦ ٩١ ١٨٨ ٢٩٠ ٢١٠ ٢٩٨

ذو الرمة ٤٣ ٤٧

ابن الرومي ٥١ ٨٠ ٨١ ٩٨ ١٦٣ ١٧٦ ٢١١ ٢٢٤

٢٤٢ ٢٤٧ ٢٦٦ ٢٦٧ ٣١٠ ٣١٣ ٣٤٠

حرف الزاى

زكى مبارك (صاحب البدائع) ٦٨ ١٦١ ١٨٠ ٢٢٨ ٢٤١

٢٤٣ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٨٦ ٢٩٥ ٣٠١ ٣٢٣ ٣٧٠ ٣٧١

٣٧٢ ٣٨٠

ابن الزيات ٩٩ ٣٠٣ ٣٤٨

زياد بن حمل ١٢١

ابن زيدون ١٣٠ ١٣١ ١٦٦ ١٧٠ ١٧١ ١٨٠ ٢٦٤

٢٨٤

حرف السين

سحيم ٢٩٦

السروجي (تقى الدين) ١١٧

سعيد بن حميد ١٣٧ ١٧٧

ابن سعيد المغربي ٢٠٥

سعيد الوراق ٣٣٢

سكينة بنت الحسين ٢٣١ ٢٧٣

حرف الشين

الشبلى ٣٧

أبو شراة القيسي ٨٩

الشرىف الرضى ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١٣٢ ،
١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ،
٢٤٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٤ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٧٨

شوقى ١٨٠

أبو الشيص الخزاعى ١٣٦ ، ٢٥٩

حرف الصاد

أبو صخر الهندلى ٥٩ ، ١٣٩ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢

صدر ٤٠ ، ٥٢ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٨٨ ، ٣٣٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩

الصمة بن عبد الله ٢٨٧ ، ٢٨٨

حرف الضاد

الضحاك ٢٠١

حرف الطاء

طاهر بن عبد الحكيم ٢٤٠

ابن الطثربة ٢٨٥ ، ٣١٢

طرفة بن العبد ١٠٨

الطغرائى ٥٦ ، ٦٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ،

٢٠٣ ، ٢٧٦ ، ٣٧٣

طويس ١٠٣

حرف العين

العباس (أنظر ابن الأحنف)

ابن عبد ربه ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ٢٣٥ ، ٣٣٨

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ١٠٣

عبد الرحمن الداخل ٥٦

عبد الرحمن بن الحارث المخزومى ١٠٣

- عبد الرحمن بن هشام ١٧٩
 عبد الصمد بن المعذل ٨٩
 عبد الله بن كعب ١٩٠
 عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ٣٤٣
 أبو العبر ١٢٣
 عبيدة الطنبورية ١٠٦
 العتابي ١٨٦
 أبو العتاهية ٤٤، ١٧٦، ٣١٥
 العتيبي ٨٩
 ابن أبي عتيق ٢٠٣
 أبو عثمان الناجم ٣٣٤
 العرجي ٢١٣
 عروة بن خزام ٣١٤
 العطوي ٣٠٣
 ابن العفيف ١٠٨
 العقاد ١٨١، ١٥٥
 العقيلي (ابن أحمز) ٧٤
 عليّة بنت المهدي ١٠٤، ١١٤، ٢٤٦
 علي بن شعيب ١٨٧
 علي بن عبد الكريم ٨٠
 عمارة النبي ١٤١، ٢٠٢
 عمر بن أبي ربيعة ٢٠٩، ٢١٢، ٢٣١
 عمرو بن ربيعة الرقاشي ٩٧
 ابن عنين ٩٨، ١٢٢

حرف الغين

الغرناطي (يوسف بن إبراهيم) ٢٩٧

الغزى ٩٩

غسان بن جهم ٢٧١

حرف الفاء

ابن الفارض ١١٤

أبو فراس ٣٣٢ ، ٣٠٩ ، ٧٢

الفرزدق ١٧٧

ابن فرسان (عبد البر) ١٥٧

فضل الشاعرة ١٠٤ ، ١٠٥

الفضيل بن عياض ٩٦

حرف القاف

ابن القائف (إياس) ١٣٧

قارعة بنت ثابت ١٠٣

القالي ٢١٣

القاياتي (حسن) ١٨١ ، ٢٤٢

ابن قلاقس ٢٣٦

قيس بن ذريح ٢٦ ، ٦٠ ، ١٢٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨

حرف الكاف

كثير ٤٤ ، ٤٧ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩

٣٢٨ ، ٣٢٠

الكسائي ٢٣٩

كشاجم ٨٥ ، ١٢٢

حرف اللام

ليلي الأخيلية ٣١٢

ليلي بنت زهير ٣٤١

حرف الميم

مالك بن أسماء ٧٤

مالك بن الرب ٨٣

المأمون ٢٤٠، ٥٥

المتنبي ٣٠١، ٢١١، ١٦٤، ١٠٩، ١٠١، ٩٧، ٥١، ٤٨

المجنون (قيس بن الملوح) ٢٧٧، ١٥٠، ٧١

أبو محلم الشيباني ١٥١

محمد بن أبي أمية ٣٣١

محمد البطليوسي ١٨٧

محمد بن زياد الأعرابي ٢١٦

محمد بن عاصم المصري ٨٤

محمد بن منذر ٣٤٣

محمد المهدي ٢٦٨

محمد بن وهب ٧٤

محمد بن يزيد ٢٠٧

مسلم بن الوليد ٣١٦، ١٢٧، ٤٠، ٣٤

ابن مصعب (عبد الله) ٣٢١

ابن المعز ٣٧، ٦٠، ٦١، ٨٣، ١٩٠، ٣٣٢

ابن المعتز ١٠٨ (أنظر عبد الصمد)

معين الدين الخطيب ٦٠

معلي الطائي ٣٣٨

أبو منصور التميمي ٢٦٨

موسى الهادي ٢٧٢

مهييار ٥٢، ٩٤، ٩٧، ١٩٤، ٢٠٦

ابن ميادة ٨٢، ٣١٧

حرف النون

ابن نباتة السعدي ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٩٠

ابن نباتة المصري ٢٣٦

نهمان العبسي ٧٢

نصيب ١٥٣ ، ٢٣٢ ، ٣١٧

القميري ٢٤٦

أبو نواس ٥١ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٣ ، ٢٥١ ، ٣٣١ ، ٣٣٩

نويب ٢٤٩

حرف الواو

الوأواء الدمشقي ٢٠٣

حرف الهاء

هرون الرشيد ٨٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٩

هاشم بن عبد الله ٢٤٠

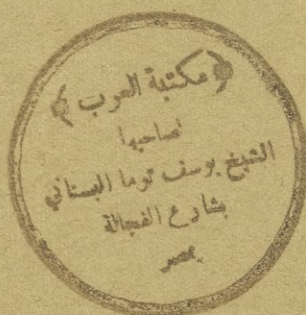
ابن هانيء الأندلسي ١١٩ ، ١٨٦ ، ٢٨٤

ابن هرمة ٣٥

حرف الياء

ياقوت الحموي ١٢٧ ، ٣٧٥

يعقوب بن الربيع ٣٤٥



فهرس

صفحة	صفحة
١٧٣ الأرق والسهاد	٣ الاهداء
١٨٤ الطبيعة في أنفس الشعراء	٤ المقدمة
١٩٠ مداراة الرقباء	٣٣ مذاهب النسيب
١٩٤ بخل الحسان	٣٤ موجبات الدموع
٢٠١ الأمر للحب	٤٢ عذر أرباب الدموع
٢٠٣ حمل السلام	٤٥ الاكتفاء بالدموع
٢٠٩ دموع الغانيات	٤٧ الفزع الى الدموع
٢١٦ ندامة المفارق	٥١ الدمع عند الوداع
٢٢٥ غربة المحب	٥٥ الدمع بعد الفراق
٢٢٨ الأمل الضائع	٥٩ شكوى الصبابة
٢٣٣ الكتمان	٧٠ عند منازل الأحباب
٢٤٢ قسوة التجنى	٩٢ وشاية الدموع
٢٤٦ ظلم الحبيب	٩٥ سلطان الحب
٢٥٠ قساة القلوب	١٠٢ غرام النساء بالنساء
٢٥٤ سيف الفراق	١٠٧ طيف الخيال
٢٥٨ الهرب من الفراق	١١١ خيال البحتري
٢٥٩ غراب البين	١٢٣ طرف أدبية
٢٦١ فقد العزاء	١٢٥ - اليأس والرجاء
٢٦٦ بكاء الشباب	١٢٩ العتاب
٢٧١ بلایا الغيرة	١٤٦ عتاب البها زهير
٢٧٦ الاستعطاف	١٥٠ نوح الحمام
٢٨٧ الحنين	١٥٨ التقرب بالدموع
	١٦٣ ثورة الوجد

صفحة	صفحة
٣٣٦ القلب والكبد	٢٩٦ الرفق بالحبيب المريض
٣٣٨ بكاء الملاح	٢٩٨ الذبول والنحول
٣٤٨ بكاء الحلائل	٣٠٣ أمانى المحبين
٣٥١ لوعة الشوق	٣٠٩ الهيبة والخضوع
٣٥٧ راحة السلوان	٣١١ الرضى بالقليل
٣٦٠ غدر الغواني	٣١٤ شفاء المحب
٣٦٦ ميزان الحب	٣١٦ القلب الخافق
٣٦٧ الليالى الخوالى	٣١٩ مثال الحبيب
٣٧٠ ليالى سنتريس	٣٢١ أهوال الصدود
٣٧٣ صبا نجد	٣٢٤ التلفت الى معالم الوجد
٣٧٨ جناية العين والقلب	٣٢٧ الصد والنوى
٣٨٠ قضاء الله	٣٢٩ القريب البعيد
٣٨١ فهرس القوافى	٣٣١ حلاوة الملام
٣٩٦ فهرس الأعلام	٣٣٤ رؤية الضمير
٤٠٥ فهرس الموضوعات	

مؤلفات زكي مبارك

- ١ — الأخلاق عند الغزالي .
- ٢ — La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire
- ٣ — البدائع .
- ٤ — شرح الرسالة العذراء Étude sur La Lettre Vierge
- ٥ — حب ابن أبي ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة) .
- ٦ — ديوان زكي مبارك .
- ٧ — الموازنة بين الشعراء .
- ٨ — مدامع العشاق (الطبعة الثانية) .
- ٩ — ذكريات باريس .
- ١٠ — تحقيق نسب « كتاب الأم » .
- ١١ — النثر الفني (في مجلدين كبيرين) .

إصلاح أشنع خطأ في تاريخ الشريعة الإسلامية

كتاب الأمل

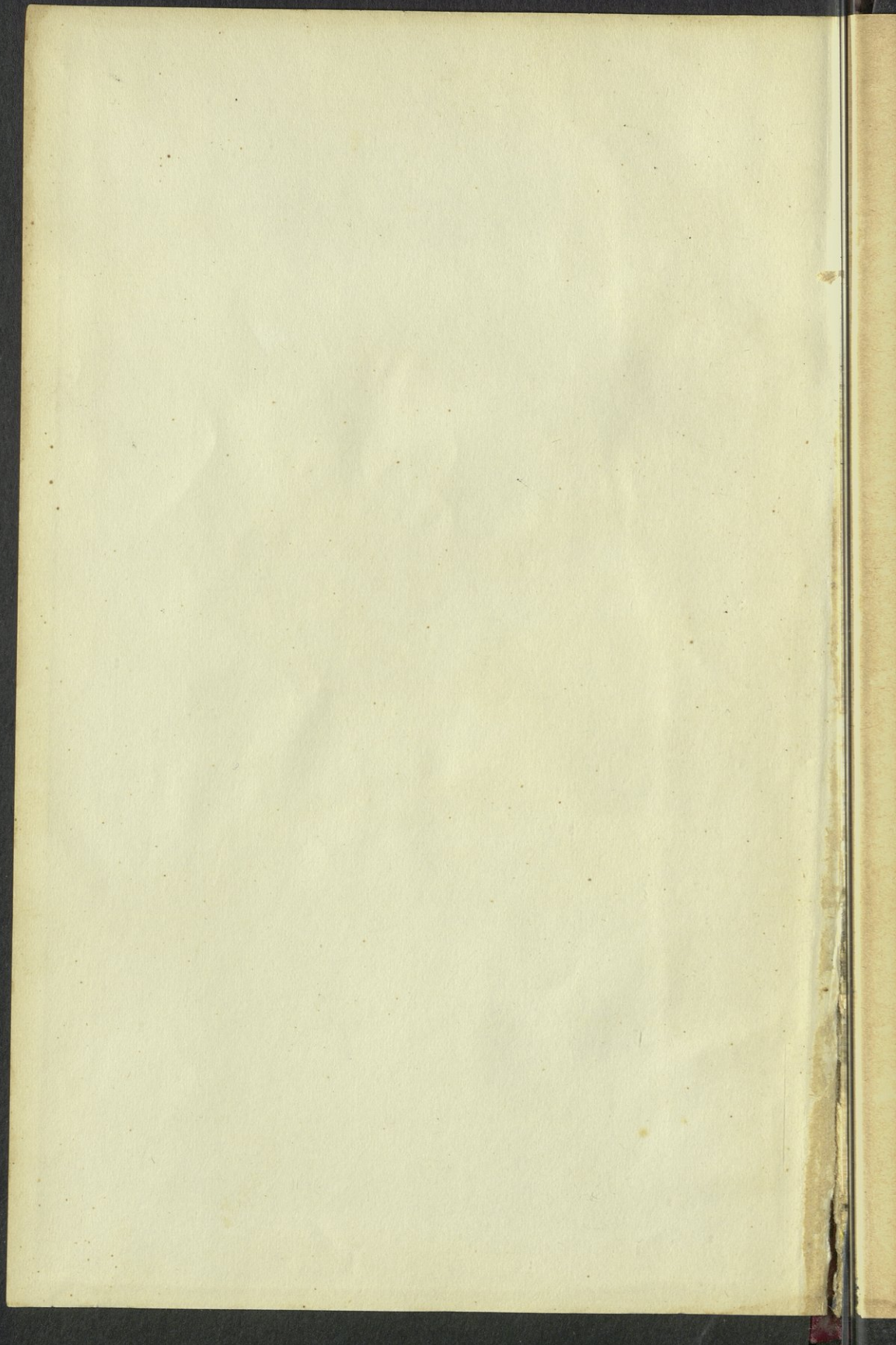
لم يؤلفه الشافعي وإنما ألفه البرطي وتصرف فيه الربيع بن سليمان

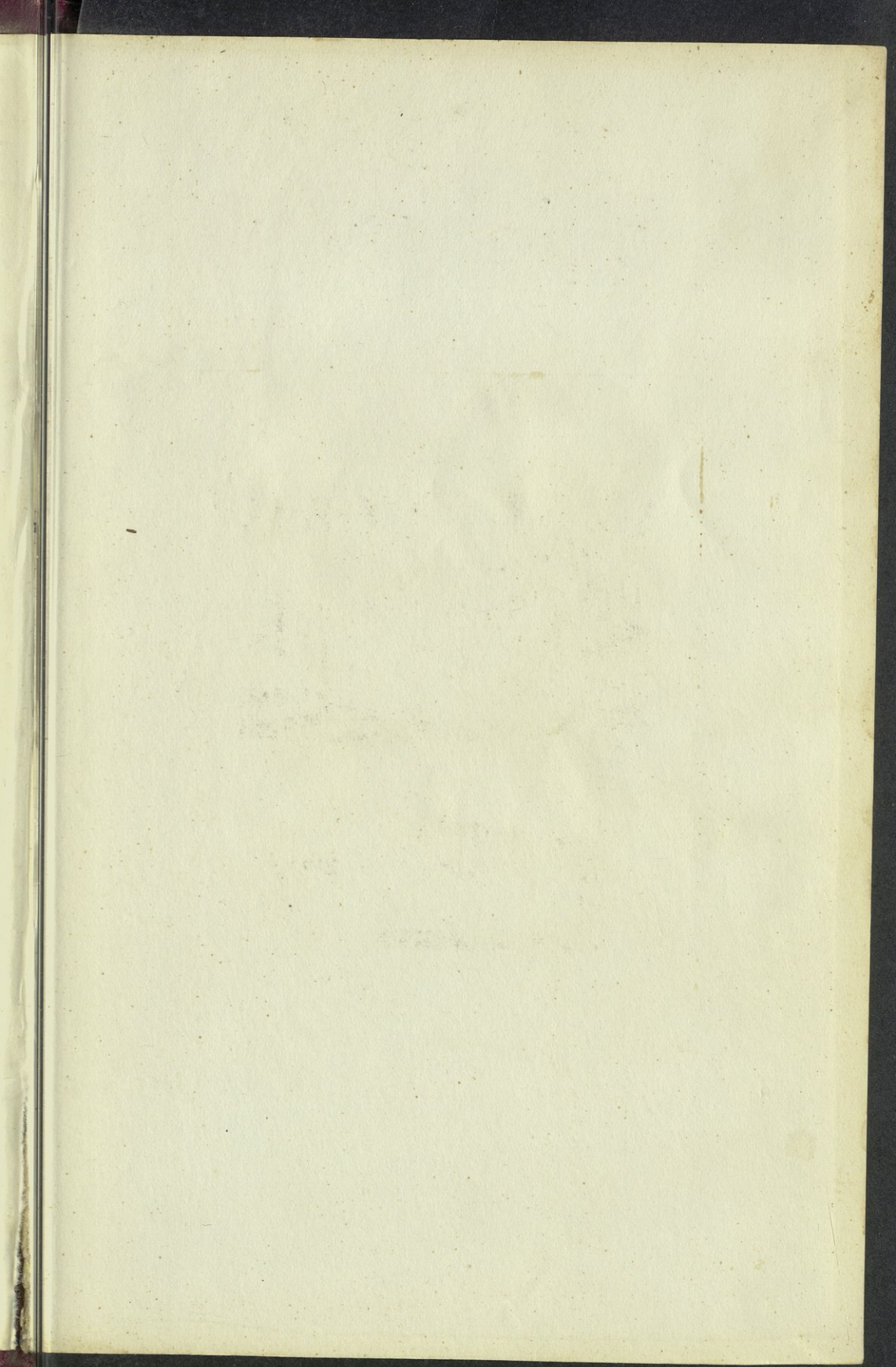
ببحث وتحقيق

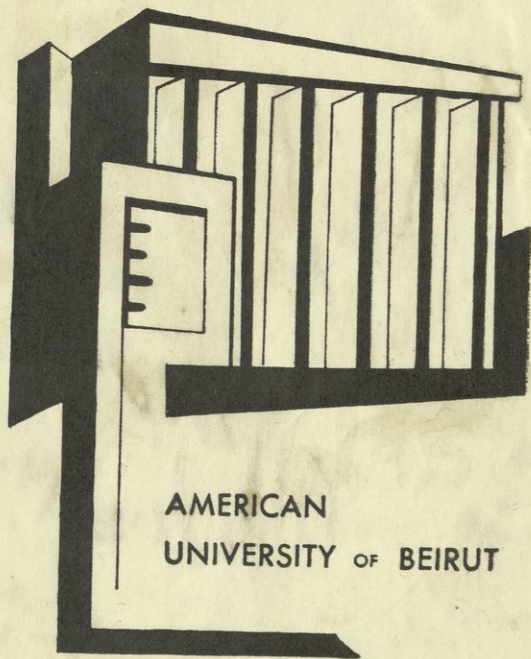
بقلم

الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكاتب الشيرة وثمان النسخة خمسة قروش







AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

